

كلمة افتتاح المؤتمر

للاستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع

السيد الأستاذ الدكتور وزير التعليم

الزملاء المجمعيون

أستأذن حضراتكم فى بدء كلمتى أن أبعث باسمكم واسمى أخلص التحيات وأصدق التمنيات إلى الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مذكور رئيس المجمع ، متعه الله بالصحة التامة والعافية الكاملة .

وهذا اليوم نحتفل فيه بافتتاح مؤتمر المجمع فى دورته الحادية والستين ، وأشكر باسم المجمع السيد وزير التعليم الجليل لحضوره معنا هذا المؤتمر ، وأرحب باسم المجمع بالزملاء الوافدين من البلاد العربية الشقيقة ومن البلاد الإسلامية والغربية وأشكرهم لتببيتهم دعوته لحضور المؤتمر والمشاركة فى بحوثه وقراراته ، وأهنئ المجمع وأعضاءه بالزملاء الجدد من أعضائه العاملين والمراسلين ، وهم ستة عشر عضواً من الأعلام فى مصر وشرقاً وغرباً ، وبهم وبأعضاء المؤتمر جميعاً سيفرم أعماله كثير من النشاط والحيوية والفاعلية فى خدمة العربية لغة القرآن الكريم الخالدة بخلوده .

وتعلمون - حضراتكم - أن المجمع تعهد - منذ تأسيسه - على أن يجعل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون والحياة العصرية ، واتخذ لتحقيق ذلك الوسائل الفعالة باختياره صفوة من أعلام العلم واللغة والأدب والقانون تألفت منها لجان علمية لوضع المصطلحات العلمية المقابلة لمصطلحات العلوم الغربية ، كما تألفت لجان لغوية وأدبية لتطويع اللغة وقواعدها وأبنيتها حتى تستوعب ما يريده أصحاب المصطلحات العلمية من صحة فى التعبير ودقة فى الأداء .

وظل وضع المصطلحات العلمية والفنية وألفاظ الحضارة فى العربية الشغل الشاغل للمجمع منذ نشأته حتى أصبح العربية لغة علمية مثل اللغات العالمية ، وحتى أصبح لغة للتدريس الجامعى مثلها ، وحتى تستتم وجهها العلمى بجانب وجهها الأدبى العربى ، وحتى تستكمل سيادتها فى وطنها وجامعاتها ، وجد المجمع فى وضع المئات بل الآلاف من تلك المصطلحات فى كل علم غريب ، وتكاثرت حتى

استحالت فى كل علم إلى معجم نفيس فى جزء أو جزئين أو أكثر ، وفى المجمع الآن ثلاثة عشر معجما علميا ، والتزم المجمع فى جميع معاجمه العلمية أن يضع مع كل مصطلح تعريفا دقيقا له حتى تستكمل الفائدة العلمية منه ، وإن هذه المعجمات الثلاثة عشر لتعد عتادا معجما علمياً كبيراً من شأنه أن يجعل تعريب التعليم الجامعى الذى تتطلع إليه الأمة العربية أمراً ميسوراً وأنا لنرجو من السيد وزير التعليم الأستاذ الجامعى الجليل المعروف بتعاطفه مع قضايا اللغة العربية أن يطلب إلى مجلس الجامعات الأعلى أن يدرس هذه القضية دراسة وافية ويضع لها خطة محكمة للبدء فى تنفيذها ، ولا يُعرَفُ بين أمم العالم أمة مهما كانت صغيرة - يدرس أبنائها العلوم بغير لغتها القومية إلا ما يحدث عندنا فى جامعات الأمة العربية ماعدا جامعات سوريا الشقيقة ، وقد آن للأمة أن تستتم دورها التاريخى الحديث فى وطنها وجامعاته فتتخلص من التبعية العلمية للغرب ، كما تخلصت من التبعية السياسية .

أيها السادة :

اتخذ المجمع لمؤتمر هذا العام موضوعين للبحث والمناقشة ، الموضوع الأول - هو الأعلام الجغرافية والموضوع الثانى - هو توحيد المصطلح العلمى بين الأقطار العربية ، وهو تنمة لموضوع المؤتمر فى العام الماضى ، وكان «تعريب العلوم» والمجمع - منذ تأسيسه - يتخذ هذا التوحيد شعارا له ، ولذلك يضم إليه دائما أفذاذا من أعلام البلدان العربية الشقيقة ، آملا أن يتيح بذلك لمصطلحاته فى العلوم والفنون ضربا من الإجماع العربى .

بارك الله مؤتمركم وأعمالكم فيه وسدد خطاكم .

وأنا - باسم المجمع - أشكر حضراتكم جميعا ، وأشكر ضيوفنا الكرام من الزملاء المجمعين راجيا لهم طيب الإقامة بيننا فى بلدهم مصر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شوقى ضيف

نائب رئيس المجمع

كلمة الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين - وزير التعليم

فى افتتاح الدورة الحادية والستين

لمؤتمر مجمع اللغة العربية

الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

نائب رئيس المجمع

اعضاء المجمع الأفاضل

الحفل الكريم

يومٌ أعزُّ ، يومَ لقائِكُم ، سَدَنَةُ لُغَةِ الْقُرْآنِ
الكريم . ودوماً أسعدُ بِلِقْيَاكُم ، وأعتبرُ يومَ
اللقاءِ بكم يوماً مشهوداً ، وفى العقلِ مذكوراً ،
وفى الفؤادِ أثيراً ، كيف لا ، وهو يومُ مؤتمرِ
مَجْمَعِ الخالدين ، الساهرين على حفظ اللغة
العربية ، لغةِ القرآنِ الكريمِ والحفاظِ عليها ،
والعاملين بكل دأبٍ وإخلاصٍ على أن تَظُلَّ
العربيةُ حيةً مُبْدِعَةً رائدة على مر الأيام ،
فصيحُها رائقٌ ، وجَرَسُها يَحْلُبُ الألبابَ ،
وأسلوبُها يختالُ على أساليبِ اللغاتِ الحيةِ
جميعاً رشاقةً وجمالاً ، وذلك بما أودعه الله
عز وجل فيها من مكنونِ البلاغةِ ، وبما

تسهرون عليه من الحفاظِ على أسرارِها .

اعضاء المجمع الأفاضل حُرَّاسِ الفصحى :

لا يقتصرُ جُهدُكم - الذى نعتزُّ به أشدُّ
ما يكون الاعتزازُ - على الحفاظِ على اللغةِ ،
ولمَّا يمتدُّ ليقومَ بوظيفةٍ هامةٍ هى الحرص على
أن تَظُلَّ العربيةُ لغةَ الحضارةِ ، وفى هذا الإطارِ
يفخرُ أهلُ العربيةِ جميعاً بما يقدمُه مَجْمَعُكم
الخالد من ترجمةٍ للمصطلحاتِ الجديدةِ فى فروعِ
المعرفةِ ، وألفاظِ الحضارةِ . وها هو برنامجُ
دورتِكُم الحاديةِ والستين يشتمل على دراسة
العديد من مصطلحاتِ الفيزيكا ، والهندسةِ ،
والجيولوجيا ، والتربيةِ ، وعلم النفس ،
والتاريخِ والآثارِ ، والقانونِ ، والطبِ ،
والموسيقى ، والحاسباتِ ، والأحياءِ ، والزراعةِ
والرياضياتِ ، والجغرافيا .

وأرى الجُهدَ لا يقفُ عندَ مجردِ اختيارِ
الكلمة العربية المناسبةِ للمصطلحِ الأجنبيِّ وإنما
يتركُ نحوَ توحيدِ المصطلحِ العلمىِّ العربىِّ
المتخصصِ ليقضىَ على ما أصابَ الحياةَ
العلميةَ فى وطننا العربىِّ من الاختلافِ فى
المصطلحاتِ بين أهلِ التخصصِ الواحدِ مما جعلَ
لغةَ الفهمِ والتفاهمِ بينهم تحتاجُ إلى الرجوعِ
إلى المصطلحِ فى لغةٍ أجنبيةٍ ، ومن ثمَّ تفقدُ
الترجمةُ إلى العربيةِ وظيفتها ، وإنى لآملُ
معكم من خلالِ البحثِ المقدمِ فى الجلسة
الحادية عشرةَ من دورتكم هذه أن نخرجَ من
طورِ الهمِّ فى توحيدِ المصطلحِ العلمىِّ العربىِّ
إلى طورِ الفعلِ الرشيدِ ، ولا أحسبُنى مبالغاً
إن قلتُ مع قائلكم فى الجلسة الثالثة : نعم
لقفزةٍ علميةٍ رائدةٍ مبدعةٍ ، نخرجُ بها من
دائرةِ النقلِ عن الغيرِ إلى دائرةِ المشاركةِ فى
صنعِ الحضارةِ العلميةِ المعاصرةِ فنعطى ألفاظاً
حضاريةً ومصطلحاتٍ علمية - كما نأخذ -
وعند ذلك يُمكن أن نحلَّ إشكاليةَ تعريبِ
التعليمِ العالى فى جامعاتِ الوطنِ العربىِّ حيثُ
ستُصبحُ لغتنا العربيةُ كما كانت يوماً ما لغةً
تُشاركُ فى صنعِ الحضارةِ ، ولا تكتفى بدورِ

المتلقى وعندها أيضاً ستُصبحُ لغتنا الخالدةُ
لغةً عالميةً ، وليست مجردَ لغةٍ إقليميةٍ .

السيدات والسادة :

أرى فى برنامجِ الجلسةِ الحادية عشرة من
دورتكم الحالية بحثاً لأستاذِ جامعى فاضلٍ ،
أسهم فى الحياةِ الجامعيةِ أستاذاً ورئيساً
للجامعة ، وشارك فى العملِ الثقافى العربى
توجيهاً وتعليماً ، يتناول فيه مسائلَ فى تعلمِ
العربية .

وأود أن أنتهز هذه الفرصة لأضع بين
أيديكم بعضاً من سياستنا التعليمية فى تعليمِ
العربية فى إطارِ المشروعِ القومى لمصر حتى عام
ألفين لتطوير التعليم وإصلاحه إصلاحاً شاملاً ،
والذى دعا إليه السيد رئيس جمهورية مصر
العربية الرئيس محمد حسنى مبارك ، وذلك
من خلال إيمانه بأهمية التعليم ، واعتباره حجر
الزاوية فى الأمن القومى ، وركيزةً من ركائزِ
الاستثمار فى التنمية البشرية ، وطريقاً نحو
تحقيق النصر فى معركة الحضارة والتنمية
والتقدم التى تخوضها جميع دول العالم اليوم ،
ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين .

فى ظل هذا المشروع القومى لتطوير التعليم تم عقد مؤتمرين قوميين لتطوير التعليم الابتدائى والإعدادى تحت رئاسة السيدة الفاضلة قرينة السيد رئيس الجمهورية ، ولقد أوصى المؤتمران - من بين ما أوصيا - بالاهتمام بتعليم اللغة العربية .

لقد حدد المؤتمر القومى لتطوير التعليم الابتدائى الهدف الجوهرى له - باعتباره جزءاً من التعليم الأساسى الإلزامى ، وركيزة للتعليم قبل الجامعى ، وقاعدة المنظومة التعليمية ككل- على أنه توفير أساسيات الثقافة والهوية القومية بمكوناتها فى المستويات الشخصية والوطنية والعربية والإنسانية ، والتى تمكن التلميذ المواطن من أن ينمى قدراته بما فيها تنمية أساليب التفكير العلمى والتفكير المنطقى لديه ومقومات المواطنة والقيم الدينية والأخلاقية ، ومن أن يسهم فى تنمية وطنه قيماً وتمسكاً ، وفكراً وديمقراطية وإنتاجاً ، واستثماراً للموارد العلمية والتكنولوجية المتاحة ، وتحقيقاً لهذا الهدف الجوهرى يسعى التعليم الابتدائى إلى تنمية طاقات الطفل وقدراته .. بما يمكنه من ترسيخ الإيمان

والاعتزاز بدينه وقيمه السماوية والاجتماعية واحترام عقائد الآخرين ومقدساتهم وشعائرهم .

- اكتساب المهارات الأساسية فى القراءة والكتابة والرياضيات بصورة تؤدى إلى التواصل اليسير والفعال بمختلف وسائله من خلال اللغة القومية بين مواطنى المجتمع أخذاً وعطاء ، وحواراً ، ورأياً ، وتفاعلاً ، وانتماءً ، وتحكماً لمنطق العقل .

وتنفيذاً لهذا الهدف الجوهرى روعى فى تخطيط مناهج التعليم الابتدائى إعطاء الوزن النسبى الأكبر من المعرفة لتعليم القراءة والكتابة والخط العربى ، وزيدت فى الخطة الدراسة عدد حصص تعليم العربية ، وأعيد للخط العربى مكانه بعد أن أهمل تعليمه أكثر من عشرين عاماً وأكمل المؤتمر القومى لتطوير التعليم الإعدادى المسيرة فأوصى من بين ما أوصى بما يلى :

- ترسيخ القيم الدينية وفهم الدين فهماً صحيحاً واحترام عقائد الآخرين بعيداً عن التعصب والتطرف ، مع التأكيد على دور الثقافة الدينية فى دعم القيم الاجتماعية

ومبادئ السلوك وعادات العمل النافع .

السيدات والسادة :

- تنمية مهارات الاتصال والتواصل من خلال الاهتمام بترسيخ مهارات اللغة العربية باعتبارها أساساً لتدعيم الهوية القومية .

الاهتمام بتعليم اللغة العربية بصورة تؤدي إلى استخدام الفصحى في التحدث ، والتعبير والتعامل في مختلف المجالات والمواقف ، مع الأخذ في الاعتبار أن اللغة أداة للتفكير والتعبير الدقيق .

وإننا نعد هذه الأيام لعقد مؤتمر قومي تحت رئاسة السيدة الفاضلة قرينة السيد رئيس الجمهورية لتطوير إعداد المعلم ، ونأمل أن نجد في توصياتكم ودراساتكم ما يفيدنا في تطوير معلم اللغة العربية بصورة خاصة .

أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم ، ولكنه الحرص معكم على أن نعمل سوياً على تيسير تعليم الفصحى ، وتطويرها بحيث تظل إلى أن تقوم الساعة لغة حية تستوعب كل جديد ، وتعبر عن كل مستحدث ، وأن نسعى سوياً لأن تصبح اللغة العربية اليوم من لغات الحضارة المعاصرة ، ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين .

وإننا بعون الله لقادرون على ذلك ، ولغتنا الخالدة ثروة مطوّاعة قادرة على التعبير عن كل متطلبات بني البشر بلفظ سهل ودقيق وجميل ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حسين كامل بهاء الدين

وزير التعليم

* * * *

* * *

* *

كلمة الأستاذ إبراهيم التريزي الأمين العام للمجمع

السيد الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين

وزير التعليم

استاذي الجليل الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع

أيها السادة :

أيها السادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته . وبعد ...

تلبية لواجب مجمعي ، على الأمين العام

فكم يعزُّ علينا أن يغيب عن منبرنا

أن يؤدِّيه كل عام ، في جلسة افتتاح مؤتمر

المجمعي شيخ المجمعين وعميدهم في وطننا

المجمع - أعرضُ عليكم النشاطَ المجمعِي بين

العربي : أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم

مؤتمرنا : السابق واللاحق ، وهو بيانُ أشبه

مذكور رئيس مجمعنا ، ورئيس اتحاد المجامع

بالتقرير ، أرجو أن يَسَعَه صبركم الجميل ..

العربية ، هَيَّا الله تعالى لشيخنا أسبابَ

وسأتلو عليكم منه ذِكْرا .

الشفاء ، وقَيِّضَ له سُبُلَ العافية ، ومدَّ في

المؤتمر السابق :

عمره " لنظِّلُ ناهلين من علمه وفضله ، مُتَقَيِّين

عقد المؤتمر ثلاث عشرة جلسة ، منها أربعُ

وارفَ خبرته المجمعية العريقة .

علنية : أولاها جلسة الافتتاح ، والثلاثُ

ولعلكم تأذنون لي في الإبراق بالتحية

الأخرياتُ لثلاثِ محاضراتٍ عامة : وهي :

إلى عميد المجمعين باسم نائبه أستاذنا الجليل

« العربية لغة علم راسخة » للأستاذ الدكتور

الدكتور شوقي ضيف ، ووزيرنا الجليل الأستاذ

شوقي ضيف نائب رئيس المجمع ، و« بين

الدكتور حسين كامل بهاء الدين ، وأعضاء

الثقافة والفكر » للأستاذ الدكتور كمال بشر

المجمع الأجلاء ، وباسمكم جميعاً أيها السادة

عضو المجمع ، و« الأسُسُ النفسية والفكرية

، سائلين الله تعالى أن يعجل شفاءه ، ويسبغ

لتعريب الطب » للأستاذ الدكتور محمد

عليه نعمة العافية .

عماد الدين فضلي الخبير بالمجمع .

والجلسات التسعُ الباقياتُ مغلقة ، نظر المؤتمر فيها مصطلحاتٍ في الطب والكيمياء والصيدلة ، والفيزيكا ، والنَّفطِ ، والهندسة ، والرياضيات ، والجغرافيا ، والقانون ، والتربية الرياضية ، كما نظر المؤتمر قراراتٍ في الألفاظ والأساليب ، واللهجات ، وموادٍ من المعجم الكبير .

وقدِّمتُ من الزملاء الأعضاء بحوثٌ عديدةٌ في الموضوع الذي كان مقترحاً في المؤتمر السابق ، وهو « تعريب المصطلح العلمي » وبحوثٌ أخرى في شئون اللغة والعلم والأدب . وأصدر المؤتمر في ختام جلساته قراراتٍ وتوصياتٍ منها :

* إن التعريبَ لا يعنى بحالٍ من الأحوال التهاونَ في مجال تعليم اللغات الأجنبية ؛ فإتقانُ لغةٍ أجنبيةٍ واحدةٍ - على الأقل - بمستوى رفيع ضرورةٌ حضاريةٌ تُواكبُ مسيرةَ التعريب وتُدعِمُها ؛ إذ يتطلَّبُ التعريبُ أن يكونَ المهندسُ أو الطبيبُ أو العالمُ ضليعاً في لغةٍ أجنبيةٍ عالمية ، يتواصلُ فيها مع العلماء ومُنجزاتِهِم في البلدان المتقدمة .

* تعريبُ التدريس في الكليات العلمية العربية يستلزمُ إنشاءً هيئةً كبرى للترجمة في مصر ، تضمُّ صفوةً من العلماء ، تنهضُ بوضعِ خُطَّةٍ قوميةٍ للترجمة ، تُحدِّدُ الأولوياتِ في ترجمة العلوم والتكنولوجيا ، وتُلاحقُ التطوراتِ العصريةَ فيهما ؛ خدمةً للتعريب ، وإسراعاً به نحو تحقيق الغايات العلمية ، وتُنسِّقُ جهودَهَا في الترجمة مع مراكز الترجمة ، التي تُنشأ على نهجها في البلاد العربية .

* يؤكد المؤتمر - اعتزازاً بهُويتِنَا العربية - ما أوصى به مراراً ، من حَظَرِ كتابة اللافئات على المحال التجارية ، والشركات وغيرها ، بأيِّ لغةٍ غيرِ العربية ، كما يُوصى بِحَظَرِ كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية ، ويدعو جميعَ الدول والحكومات العربية إلى إصدار تشريعات تحظرُ استخدامَ هذا الأسلوب ، وتُجرِّمُ من يستخدمه .

المجلس واللجان :

عقد مجلس المجمع خمساً وثلاثين جلسة ، منها اثنتان علنيتان استقبل فيهما ستة من الأعضاء الجدد ، هم السادة الأساتذة :

* الدكتور أحمد مستجير : نابغة علوم الزراعة

والهندسة الوراثية والأديب الشاعر .

* الدكتور محمد السيد غلاب : أحد الأوتاد

الرؤاسى فى علوم الجغرافيا ، ورؤاها المعاصرين .

* الدكتور محمد الأمين بسيونى : العلم القذ

فى العلوم الجيولوجية .

* الدكتور أحمد على سالم الصباغ : أحد

أساطين العلوم الهندسية وجهاذتها الأعلام

* الدكتور على الحديدى : أستاذ الأدب

العربى الحديث ، وأحد رؤاد أدب الطفولة .

* الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعى

أستاذ الفلسفة الإسلامية النابه الجليل .

ولأيدخر المجمع وسعاً بين الحين والحين - فى

اختيار الأعضاء المراسلين ، من صفوة

العلماء الأعلام ، فى اللغة والأدب والعلم ،

من العرب والمستعربين .

فاختار المجمع من سورية : الدكتور محمد

إحسان النص ، والدكتور محمد هيثم الخياط

والدكتور محمود أحمد السيد .

واختار من السعودية : الفريق الأستاذ

يحيى بن عبد الله المعلمى .

ومن الكويت : الدكتور عبد الله يوسف الغنيم

ومن المغرب : الدكتور محمد محمد بنشريفه .

ومن موريتانيا : الدكتور محمد المختار ولد إياه

كما اختار ثلاثة من أعلام المستعربين :

فاختار من ألمانيا : الدكتور فولفدبتريش

فيشر .

ومن هولاندا : الدكتور فردريك

ليمهاوس .

ومن المجر : الدكتور شاندور فودور

وقد نظر مجلس المجمع فى جلساته

الباقيات مصطلحات فى الطب ، وعلوم الأحياء

والزراعة ، والفيزيقا ، والحاسبات ، والهندسة ،

والرياضيات ، والجيولوجيا ، والقانون ،

والجغرافيا ، والتاريخ والآثار ، والشريعة ،

والتربية وعلم النفس ، والموسيقى كما نظر

قرارات لجان : الألفاظ والأساليب ، واللهجات ،

وأصول اللغة ، وستعرض كلها على المؤتمر ، مع

مواد من المعجم الكبير .

مطبوعات المجمع :

أصدر المجمع مطبوعاته التالية :

- الجزء الخامس من كتاب « غريب الحديث »

- الأجزاء الخمسة من مجلة المجمع : من

السبعين إلى الرابع والسبعين .

- المجموعتين : الخامسة والثلاثين والسادسة

والثلاثين من مجموعة المصطلحات

العلمية والفنية .

صلات المجمع الثقافية :

شارك المجمع فى ندوة « توحيد تعريب

المصطلح الجيولوجى » التى عقدها اتحاد

المجامع فى رحاب مجمع تونس الشقيق ، وكان

لى شرف تمثيل المجمع فى هذه الندوة مع

الزميل الجليل الأستاذ الدكتور محمد

يوسف حسن . وقد عُقدت الندوة فى الثانى

والعشرين من أكتوبر وامتدت إلى الرابع

والعشرين منه .

وقد شارك فى هذه الندوة مع مجامع

دمشق وتونس والقاهرة مجمعان جديان هما

مجمع اللغة العربية الفلسطينية ، ومجمع اللغة

العربية الليبى ، فتحيّة لهما ، ومرحباً بهما ،

فى اتحاد المجامع العربية .

ولايفوتنى هنا التنويه بانضمام ثلاثة من

أعضاء المجمع إلى مجرتنا المجمعية ،

فازوا بجوائز الدولة التقديرية ، وهم الأساتذة

الزملاء : الدكتور محمود على مكى الفائز

بها فى الآداب ، والدكتور كمال الدسوقي

الفائز بها فى العلوم الاجتماعية ، والدكتور

أبو شادى الروبى الفائز بها فى العلوم الطبية .

أيها السادة :

سنةٌ مجمعيةٌ حميدة : ألا يقف مؤتمراً

المجمع نشاطه على نظر ما أعدته لجان المجمع ،

وأقره مجلسه ، وهو كثير كثير ؛ فالمؤتمر - مع

ذلك كله - يعمد إلى قضية من قضايا اللغة

أو الأدب أو العلم ، يرصدها للبحث والدراسة ،

وقد يعاودها عاماً بعد عام ، حين تظل

معالجتها فى حاجة إلى مزيد ، أو يجد على

ساحتها جديد ، فيبونها منزلة من الاهتمام

العلمى المتواصل ، الذى يأخذها من كل

أقطارها ، ويسبرها فى كل أغوارها ، وبخاصة

حين تبلغ القضية من الأهمية أن تصبح أملاً

لأمتنا العربية ؛ كقضية توحيد المصطلح

العلمى العربى وتعريبه ، التى نتابع معالجتها

وقضية الفصحى والعامية ، التى يعاود

أستاذنا الدكتور شوقي ضيفُ معالجتها في محاضرة عامة ، بجلسة علنية من جلسات المؤتمر ، بعد أن عالج في مؤتمر سابق - « لغة المسرح بين الفصحى والعامية » .

والموضوع المقترح لمؤتمر هذا العام كان بمبادرة حميدة من زميلنا الجليل الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي عضو المجمع من المغرب الشقيق ، ورئيس المؤتمر الدولي السادس للأعلام الجغرافية بهيئة الأمم المتحدة ، فلقيت مبادرته استجابة ترحيب واحتفاء من أعضاء المؤتمر السابق ، فأصدروا قراراً في جلسته الختامية بأن يكون الموضوع المقترح لمؤتمرنا هذا العام : « الأعلام الجغرافية العربية » ورقد مجلس المجمع بمواصلة البحث في موضوع « توحيد المصطلح العلمي العربي وتعريبه » .

وما أظن موضوع « الأعلام الجغرافية العربية » سيبلغ الغاية من بحثه واستقصائه في هذا المؤتمر ؛ فهو موضوع يمتد مع المكان والزمان إلى آماذ بعيدة ، قديمة وحديثة ، تقتضي أن يمتد بحثه كذلك إلى آماذ بعيدة ، من الدراسة الفاحصة المستقصية ، التي تكشف الأسباب والعلل للأسماء الجغرافية ، وإن كان من الأسماء مالا يُعَلَّل كما يقولون !

وموضوع الأعلام الجغرافية لا يتصدى له إلا أولو العزم من أفذاذ العلماء ؛ فهو موضوع يتطلب مشاورة ومصاهرة ، وعلماً مُلمّاً بأصول هذه الأعلام في لغاتها الشرقية والغربية ، القديمة والحديثة ، وما تطوّر عن هذه اللغات القديمة من لغات حديثة ، وما اتّصل بها من لهجات ، وما وصل إليه بشأنها « علم الصوتيات » ، الذي يُحلّل ويُعلّل تطوّر بعض الأعلام الجغرافية ، وما قد يعتريها من عوامل « التعرّية اللغوية أو الصوتية » ، حين تلوّكها الألسن على مدى الأعوام ، فياقوت يقول في معجم البلدان :

« سامراً بلدٌ على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً يقال لها : « سُرٌّ مَنْ رأى » فخفّفها الناس وقالوا : « سامراء » ومن طريف ما ينقله بشأنها عن المقدسي قوله : « لما عمّرت سامراء وكملت .. سُميت « سرور مَنْ رأى » ثم اختُصرت فقليل : « سُرٌّ مَنْ رأى » فلما خربت وتشوّهت خلّقْتُها سُميت « ساء مَنْ رأى » ، ثم اختُصرت فقليل : « سامراء » ، ولزميلنا الجليل الدكتور إبراهيم السامرائي الذي يُنسب إلى هذه المدينة تحقيق لاسمها ، مع أعلام جغرافية عراقية أخرى .

ويتطلبُ البحثُ في «الأعلام الجغرافية» - بعد العلم اللغوي - علماً واسعاً بالتاريخ : أحداثه وأعلامه ؛ فكثيرٌ من الأسماء الجغرافية يَنْتَسِبُ إلى حَدَثٍ تاريخيٍّ ، كاسم « جبل المكبر » القريب من القدس الشريف ؛ فقد سُمِّيَ بهذا لأن الخليفة الراشد الفاروقَ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقف على هذا الجبل مستشرفاً بيت المقدس وهو يصيح مردداً «الله أكبر»، وتعالَت معه تكبيرات المسلمين ؛ فسُمِّيَ الجبلُ « جبلَ المكبر » . ومدينة «الفسطاط» - العاصمة الأولى لمصر العربية الإسلامية - قصة تسميتها بهذا الاسم معروفة ومثلُ ذلك كثير في أعلامنا الجغرافية على مدى عصور تاريخنا العربيِّ ، حتى نصل إلى عصرنا الحديث ، حيث يُطالِعُنا اسمُ « مدينة العاشر من رمضان » ، الذي يحملُ ذكرى أعظم نصر عربيٍّ في تاريخنا المعاصر :

وقد ترتبطُ الأعلامُ الجغرافيةُ بأحداثٍ طريفة ؛ فقد كانت « القيروان » عاصمة تُونِسَ الشقيقة ، ولكنْ مَلَكَها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب استعصى عليه النومُ فيها ليالىَ وأياماً عديدة ، فغادرها ضائقا بها وبنفسه ، إلى حيث يتكلمُ الراحة في رحاب الصحراء ، ويتنَسَّمُ هواءها الطلق ، فاستقبلته الصحراءُ السمحاءُ بالرحب والسَّعة ، ففُوجِيَ بالأرق والسُّهاد يشردان منه في رحاب الصحراء

الواسعة ، وبالنوم العَصِيَّ الحُرُونِ يلينُ له وينقاد ، واستغرقتُه لَذَّةُ الرُقَادِ ، التي هَجَرَتْهُ طويلاً .. ثم استيقظَ الملكُ الأغلبُ من رَقَادِهِ الهينِ ، وقد استجمعَ قُواه ، واستردَّ عافيتَه واستعاد بهجته ، فأمرَ بإنشاء مدينةٍ في هذا الموضع سَمَّاها «رَقَادَة» ، جعلها قاعدةً مُلكه وحُكمه ، وكان ذلك عامَ ثلاثة وستين ومئتين من الهجرة الشريفة ، وصارت « رَقَادَة » من أجمل المدن وأحفلها بالعُمران في عصره ، كما صارت « رَقَادَة » حاضرة بلادِ الثقافة ؛ فقد أنشأ فيها « بيتَ الحكمة » ، الذي حفل بالعلماء والأدباء والطُّلاب ، فصار مجمعاً وجامعةً « وأقبل إليه طُلابُ العلم من أوروبا ، وبخاصة من إيطاليا وفرنسا ، وبهذا نَهَضَتْ من « رَقَادَة » حضارةٌ علميةٌ وأدبيةٌ عَبَّرت البحرَ المتوسطَ إلى أوروبا ، بل إن أثَرَ « رَقَادَة » يمتدُّ إلى عصرنا الحاضر ، حيث تسمَّى مجمعُ تُونِسَ الشقيقِ باسم « بيتِ الحكمة » ، الذي أنشئَ في رَقَادَة » ! .

وإذا كان هذا من قصص الواقع الحقِّ ، فهناك من قَصَصِ الأساطير كثير ؛ فيقال - على سبيل المثال - في سبب تسمية « عَرَفَة » أو « عرفات » إنَّ آدمَ وحواءَ - عليهما السلام - تعارفا في هذا المكان بعد نزولهما من الجنَّة كما نُسِجَتْ أسطورةٌ أخرى في تسمية مدينة « جُدَّة » ، نَسَبَتْها إلى جدِّتنا حواء !

وبين جُدة وعرفة اختلطت الحقيقة بالأسطورة حول أعلام جغرافية أخرى ، مثل « أجباد » و « قَعِيقَعان » ، وهما بمكة المكرمة ؛ فقليل فى « أجباد » إنه سُمى بذلك لأن تَبَعاً رَبطَ فيه خيلَه حين قَدِمَ مكة ، وقيل : لأنه الموضع الذى كانت فيه الخيلُ التى سخرها الله لإسماعيل عليه السلام . وقيل فى « قَعِيقَعان » وأجباد : « إن الحرب حين وقعت بين الحارث ابن مضاض والسَّمِيدَع ، خرج الحارثُ من الموضع الأول فَتَقَعَقَعَ سلاحُه فَسُمى به « قَعِيقَعان » ، وخرج والسَّمِيدَعُ بخيله من الموضع الآخر فَسُمى به « أجباد » ، وقيل غير ذلك مَّا يَسْتَصْفِي حقائقه العلمية علامة الجزيرة شيخنا « حمد الجاسر » عضو مجمعنا وكذلك زميلنا عبد الله بن خميس .. وغيرهما من جغرافيّ الجزيرة العربية ، فيجعلون زَيْدَهُ يَذْهَبُ جُفَاءً ، لِيَمَكُثَ من علمهم ما ينفعُ الناس .

وكم من أعلام جغرافية أخرى فى سائر بقاع الأرض لها قصصُ وأساطير ! وقد تُسمى بعضُ الأعلام الجغرافية باسم حقيقتها اللغوية ، كما سُميت « تُهامَة » بهذا الاسم لانخفاضها حيث يشتد حرُّها ويركدُ هواؤها ، وسُمى « نَجْدُ » بهذا لارتفاعه ، وسُمى « الحجاز حجازاً » لأنه يحجزُ بين « تهامة » و « نجد » . وينتسب كثيرٌ من الأعلام الجغرافية إلى

أعلام إنسانية ، لها ذِكْرُ مآثور ؛ كما سُميت مدينة « الخليل » باسم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وسُمى الجبل الذى رسا عنده أسطولُ طارق بن زياد باسم « جبل طارق » كما سُميت مدنٌ ومواضعُ أخرى باسم مُنشئها أو مُكتشفيها ، وهى كثيرة شهيرة .

وللناس - أحياناً - وَلَعٌ بالتَّندرِ فى تسمية بعض المواضع ، وبخاصة فى مصر التى طُبِعَ أهلُها على الفكاهة ؛ فنرى فى القاهرة « شارع أم الغلام » « سِكَّةَ بئر المسن » ، « ودرب المهايل » و « درب أبى طَبَق » « ودرب غريق الزيت » ، « وقنطرة الذى كفر » التى سَمَوْا باسمها « شارع قنطرة الذى كفر » بل صَيَّرُوا للكلاب قلعةً ، فقالوا : « قلعة الكلاب » ، وسَمَوْا شارعاً باسم « شارع كُوع القرد » ، ولم يَسْلَمْ الجنُّ من إنسِ القاهرة ؛ فَسَمَوْا شارعاً باسم : « شارع الجن » بل إن مَلِكَ الموتِ « عزرائيل » نَسَبُوا إلى اسمه موضعاً بالقاهرة فقالوا : « عطفة عزرائيل » !

ولأظنَّ العديدَ من البلاد العربية فى المشرق والمغرب ، سَلِمَتْ من تَنَدَّرِ أهلِها ، فى تسمية بعض أعلامهم الجغرافية ، التى تُشير أسماؤها إلى أحداث فى مجتمعاتهم العربية .

أما البحثُ فى تحريف الأعلام الجغرافية الذى يكشف عن ظواهر صوتية يُعْنَى بها علماء الصوتيات واللهجات - فإنه يكشف

كذلك عن دوافع سياسية وراء هذا التحريف أو التغيير ؛ كما أصاب بعضَ الأعلام الجغرافية الأندلسية ، حيث غُيِّرَتْ « طَلَيْطَلَّة » إلى « تُولِيدُو » و« غَرْنَاطَة » إلى « جرانادا » « جبل طارق » إلى « جِيبَر التار » !

وفى عصرنا الحاضر تطالعتنا فى فلسطين الشقيقة « يهودا والسافرة » بدلاً من الضفة الغربية » ، و « أورو شليم » بدلاً من « القدس » الشريف ، ومدينة « حَبْرُون » بدلاً من مدينة « الخليل » أما قرية « دَيْر طَرِيف » فقد غُيِّرَ اسمُها إلى « كَفَّار تَرُوحان » الرئيس الأمريكى الذى فى عهده أنشئت إسرائيل ، وكم غُيِّرَتْ من أعلام جغرافية فى الجمهوريات الإسلامية السَّتْ ، التى ظَفِرَتْ باستقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى !

أيها السادة :

إن ما يُشيرُ الأسى والعَجَبُ أن أعلامنا الجغرافية العربية ، بعد أن اعتراها ما اعتراها من تغريب واغتراب ، أخذ بعضنا يستوردُها بفرنَجَتِها وقُبُعَاتِها ، ثم يجعلُها - دون استحياء - أعلاماً على مواضع ومَحَالٍّ عربية

مثل « تُولِيدُو » و « جرانادا » بدلاً من « طَلَيْطَلَّة » ، و« غَرْنَاطَة » ، كما أشرتُ من قبل ، ومثل « الهَمْبِرا » بدلاً من « الحمراء » اسم قصر غَرْنَاطَة « المشهور بالأندلس » .. وغير ذلك كثير !

بل إنَّ منَّا مَنْ يستعمل « كازابلانكا » بدلاً من « الدار البيضاء » اسم العاصمة الاقتصادية للمغرب الشقيق ! .

وكما أودُّ - ياسيدى الوزير - ألاَّ تَنْسَى ما خاطبتكم به فى افتتاح مؤتمرنا السابق ، وأن تدعَ لنا من شواغلِكَ وقتاً تُنَجِّزُ فيه ما حَمَلَكُم إِيَّاه المجمعُ من أمانة إصدار التشريع الذى يَشْفِى القاهرة من هذا الوباء الذى اسْتَشْرَى دأؤه ، بهذه الأسماء الأجنبية التى تَبْدُو كالبُثور فى وجه القاهرة العربىِّ الجميل ، كما يرجو المجمعُ أن تكونوا قد استجبتُم له بشأن درجات اللغة العربية فى إعلاء شأنها بين سائر الدرجات للموادِّ الدراسية .

وشكراً لكم أيها السادة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبراهيم الترنزى

الأمين العام للمجمع

كلمة الأعضاء العرب

للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي

عضو المجمع من العراق

أقول : : والله لولا حرصى على أن أحضر مؤتمر المجمع ولقاء إخوانى وأساتذتى العلماء والأعلام وإفادتى من علمهم ومما يقدمون من زاد وما يبسطون فى متاع لعدلت عن المجيء إليه لأننى منذ أربع سنوات أتى إليه فأشهد فى مطار القاهرة العذاب ، فقد أبقونى فى المرة الأولى قبل أربع سنوات خمس ساعات ثم سمح الرجال الشداد الغلاظ أن أخرج مع وجود أحد الإخوان من موظفى المجمع فى استقبالى ، وهكذا فى كل عام ، ومازال هذا دأبهم معى لأننى معدود من القرية الظالم أهلها ، ولا يدرون من أمرى ويعدى عن السياسة وأين منى هذه ولا طوق لى أن أضرب فى مضطرب لست فى أهله .

لقد وجدتني مضطراً أن أعرض لشيء صرفنى عن كلمة بى حاجة إليها هى أن أتوجه بتحيتى باسم الأخوة العرب من أعضاء المجمع

لمجمعنا العتيد الذى ما فتئ أهله وحماته يحرسون حمى العربية وأنى لأجد فى هذه اللغة التى كرمها الله فجعلها الصوت العلى فى لغة التنزيل العزيز ميثاقاً يجمع هذه الأمة التى فرققتها أنظمة الحكم ليس فى عصرنا هذا بل منذ عصور خلت حتى قال أحدهم فيها فى القرن السابع للهجرة :

عُربُ رأيتُ أصحَّ ميثاقٍ لهم

ألاً يصحَّ لديهم ميثاقُ

دع عنك هذا وأمسك بلغتك واجعلها ميثاقاً تجتمع عليه الأمة فتجمع شتاتها فتكون خير دليل على حضارتها ، ومتى نعى هذا ونصل إلى شيء نرضاه ؟

وإذا كنا أدركنا هذا فلنا أن نولى لغتنا ما تستحق ندرس قديمها ونقف على ما كان قد صنعه الأوائل ونفيد مما أنجزوا ، ولا نحسب

أنهم مبرءون عن الخطأ إذ كل ابن آدم خطاء ،
وحسبهم أنهم أخلصوا النية وسلوكوا الجدد
فأمنوا العثار . وإذا كان هذا فعلينا أن نمضى
فى المسيرة ونستدرك ما لم يتأت لهم أن
يدركوه .

إن عصرنا هذا يفرض علينا أن نرمّ بناء
لغتنا التى جهلنا من خصائصها الكثير ،
وأن نعود إلى ما كان للأوائل من إنجاز فنكمل
النقص ونربأ الصدع ونرمّ البناء . ألم نر أن
العربية محتاجة إلى أن يكون فيها جديد يقدر
بالآلاف فقد عرفنا فى تقارير الأمم المتحدة أن
العلم الجديد يُضاف إليه فى كل عام أكثر من
سنة آلاف مصطلح ؟

إذا كان هذا فعلينا أن ندرك أن عريّة
عصرنا هى العربية المعاصرة ، وهى بناء جديد
ولا أقول إنها انقطعت عما ورثناه من عريّة ،
ولكننا شئنا أم أبينا قد عوّدنا على عريّة
جديدة فلا يكون موضع فيها لما عدّ خطأ فى
مطلع هذا القرن . لقد درجنا على أساليب
جديدة فتغيرت الدلالة وابتعدت الأبنية ، وصار
ماكان مرفوضاً منذ ربع قرن مقبولاً . وإذا كنت
أعتقد ويعتقد معى أهل الحفاظ أن لخطبة
الجمعة أسلوباً خاصاً تجتمع فيه آية كريمة
وحديث شريف وقول مرسل مأثور وكلمات

تردّت فى أدبنا القديم ، فكيف نصدق أن من
خطباء الجمعيه فى هذه الأيام من يستعمل
مايدرج به الصحفيون ، فقد سمعت من يقول
فى خطبته : « إن الأكثرية الساحقة من
المسلمين لايعرفون حدود الله » . أقول : من
أين لهذا الخطيب هذه العجمة ؟ وسمعت آخر
من دعاة المعاصرة والحداثة يقول : إن الرئيس
فلاناً يذرف دموع التماسيح .

أقول : إذا كنا قد وصلنا إلى هذا الحد ،
وغفلنا عما كنا نردّد من أن لكل مقام مقالاً ،
فهل لنا أن نعود فنوطّن أنفسنا فنؤمن أن
عريّة العصر جديدة ينبغى أن نقف عليها
وندرسها ؟

على أنى أعود فأقول : علينا أن نجد
الوسائل فى العلم فيكون منا فهم للأصول من
تراثنا فى نهج نسلكه دون أن نضطرب فيه
لنصل إلى الجديد .

إن هذا المنهج قد سلكه الأوائل ألا ترى
أنهم قد وطنوا أنفسهم على قبول لغة المولدين
بعد أن غبر عهد كانوا يرون فيها جحوداً
وتنكباً عن الصراط .

وإنى لأحیی مؤتمر المجمع الذى دأب على
الجدّ وأدرك هذا الذى ألمعت إليه .

أذنبى ... أدبى ؟

أذنبى أن سَمَمَا أدبى
 وأن أَشْرَقْتُ فى كُتُبى ؟
 وأن جَـرَّـرْتُ أنى
 جَعَلْتُ العِلْمَ مُطْلَبى
 وأنى قد سَعَيْتُ إلى
 رَهَانٍ سَعَى ذى أَرْب
 فهل أدركتُ بعضَ الفوز^(١)
 أو قَارَبْتُ من قَصَبٍ ؟
 وقد يَلْقَاكَ من أَمْرِى (م)
 ما يَلْقَاكَ من عَجَبٍ
 إذا مَاجَءَكَ الخُطْبُ
 بما أَلْقَاهُ من نَصَبٍ .
 وأنى قد أَلِفْتُ سُرِّى
 على جَسَرٍ من التَّعَبِ
 يكادُ الهَمُّ يَأْلُقُنِى
 وَأَلْفُسُهُ على وَصَبِ
 كَأَنى قد وَجَدْتُ به
 أَخَا أَلْفِيهِ فى النُّوبِ
 فلا يَأْخُذْكَ من أَمْرِى (م)
 ما يَدْعُو إلى الرِّيبِ
 وأنى قد سَلَكْتُ الصَّعْبَ (م)
 أَرْقى كُلَّ مُنْقَلَبِ

يَقِينَا أن أَصِيبَ هُدًى
 فلا أَشَقَى بِمُضْطَرَبِ
 فإن تَرَنى قَصَدْتُ الهَمَّ (م)
 أرمى رَمَى مُحْتَرَبِ
 فلى دِرْعٍ من الصَّـبَرِ
 يَقِينِى عَوْلَةُ الحَرْبِ
 وهل فى الصَّبْرِ عَافِيَةٌ
 تُدَارِى ضَيِّمَ مُغْتَرَبِ ؟
 أَطِيحَ به إلى هَجَرٍ
 كئِيبٍ غَامِرٍ تَرَبِ
 فَهَمَّ بِأَى مُلْتَهَبِ
 من الآهاتِ مُجْتَلَبِ
 يَكْفُ الطَّرْفَ أن يَسْكُبَ (م)
 وَقَدْ غَايِرَ مُنْسَكِبِ
 غدا من عَامِرٍ نَزِهٍ
 كَرِيمِ الرُّوضِ مُؤْتَشِبِ
 إلى أين ... ؟ يُجِيلُ الطَّرْفَ (م)
 يُذَكِّى هِزَّةَ الطَّرَبِ
 به مِن شَارِدٍ عَاجِلِ
 إلى صَادٍ به نَصَبِ
 يُورِّقُهُ انتِظَارُ الطَّيْفِ (م)
 مَرْمِيَاً إلى هَرَبِ

وقد تصرَّعه الحيرة (م)
ما واقَّته من غضبٍ
وماذا يبتغى الموجد (م)
هل يسُعى إلى غلبٍ ؟

حملتُ هوى إلى الأردن (م)
لم أحرّمه من أدبى
وأخلصتُ إليه الدرس (م)
ثمّ نلتُ فى طلبى
وباركتُ له زادى (م)
ما أوغبتُ فى كُتبى .

ومن ثمّ عرّانى الهم (م)
فى طيفٍ وفى سببٍ
خدانى الوجد فى نَبأٍ
إلى سببٍ إلى سربٍ
وملتُ إليه لا أدرى
أحمولُ إلى عطبٍ .
أم الأيام تسلبُننى
بقية شوط مُكتبٍ ؟
وقلتُ لعلّ فى « يَمَنٍ »
بعاداً غير مُرتقبٍ
أصيرُ إليه لا زلفى
ولاملقاً لنتجبٍ

وكنت وكان من قدرى
ضننى يومى إلى شجبٍ
ورحتُ أعدُّ بعضَ اليوم (م)
ألفيه من الحقب

وقد واجهتُ من حالى (م)
فى رغبٍ وفى رهبٍ
وما باليتُ من أمرى (م)
فى جدٍ وفى لعبٍ
كأنى قد لمستُ الصدق (م)
يطرى بُردة الكذب
فللمتُ إبائى وهو (م)

من زادى ومن حسبى .

وإنى مع رصيدلى (م)
من علمٍ ومن نسبٍ
لألفى أن فى هذا
وذا من عسكرٍ لجبٍ
وإنى ، وشواظ الداء (م)
يُورى خامد اللهبِ
لأ ضعيدُ رتل أنفاسى
يرينُ على فى صببٍ

أَزْحَ مَــارَثُ مَنْ هَمَّ

وَحَذَّ مَا كَانَ مِنْ كَثَبٍ

فَإِنْ عَجَائِبَ الدُّنْيَا

بَدَتْ فِي عَصْرِنَا الْخَرْبِ

فَهَلْ تَقْسُو فَتَظْلِمَنِي

إِذَا شَمَرْتُ فِي أَدْبَى ؟

أَقِلْنِي بَعْضَ هَذَا الظُّلَمِ (م)

وَانْسُـبْنِي إِلَى النُّجُبِ

إِلَى الْقُـوَمِ الَّذِينَ هُمُ

عَلَوْا قَدْرًا مِنَ الْعَرَبِ

غُذُّوا بِالطَّيِّبِ مِنْ كَرَمٍ

وَمِنْ أُمَّ لَــهْمٍ وَأَبِ

وَلَا تَعْجَبْ إِذَا مَا كَانَ (م)

فِيهِمْ أَشْرَفُ الرُّتَبِ

فَفِيهِمْ كُلُّ مُنْتَحَبٍ

وَفِيهِمْ كُلُّ مُحْتَسِبٍ

وَلَسْتُ بِمُخْرَزٍ مَا هَامَ (م)

فِيهِ الْقُـوَمُ مِنْ نَشَبِ

سِوَى وَلَهَى بِنْتِ الضَّادِ (م)

قَدْ أَوْعَبْتُهَا خُطْبَى .

وَعِـرْقُ زَانَنِي شَرَفَا

وُصِلْتُ بِهِ بِخَيْرِ نَبَى

إِبْرَاهِيمَ السَّامِرَائِي

عضو المجمع

من العراق

٥ - لغة الشعر ١٠٠٠

(تحية إلى مؤتمر المجمع)

قصيدة للأستاذ حسن عبد الله القرشي

لغة خارقة مُعْجِزة	سَطَعَتْ مِنْذُ بَدَتْ شَمْسُ زَمَانٍ
جَمَعَتْ أَلَاؤَهَا شَتَّى الْمَعَانِي	وَزَهَتْ وَهَاجَةً بِالصَّوْلُجَانِ
لغة الشعرِ وَكَمْ مِنْ حِكْمَةٍ	عَذُبَتْ فَجْرًا ، وَعُطْرًا ، وَنَدَى
صَاغَهَا الشَّعْرُ لِبُؤْسَنِي أَوْلِيَانِ	وَسَمَتْ كَالدَّرِ فِي جِيدِ الْحِسَانِ
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا فُرْقَانَهُ	فِي نَسِيجِ عَبَقْرِي أَزْهَرَتْ
يَتَفَذَّى مِنْ سَنَاءِ الثُّقْلَانِ	مِثْلُ مَا أَخْصَبَ زَهْرُ الْأَقْحَوَانِ
هُوَ دُسْتُورٌ لَمَنْ قَدْ حَكُمُوا	صَانَهَا الْخَلْقُ مَا أَعْظَمَهُ
صَالِحٌ لِلخَلْقِ فِي كُلِّ مَكَانٍ	فَحَوَتْ مِنْ فَضْلِهِ عَذَابَ الْمَجَانِ
لَوْ تَمَسَّكْنَا بِهِ لَانْقَشَعَتْ	وَجَلَتْ آيَاتِهِ بِأَهْرَةٍ
غُمٌّ ، وَانْجَابَ إِعْصَارُ الدُّخَانِ	وَهْدَاهُ الْفَذُّ ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِ
وَمَشِينَا قَمًّا شَامِخَةً	قَدْ تَوَلَّاهَا بِهَا لَيْلُ النُّهْنِ
فَوْقَ هَامِ الْكُونِ فِي رَفْعَةٍ شَانٍ	مُثْلًا عَلِيًّا . وَأَقْطَابَ بَيَانٍ
مَنْ عَذِيرِي . وَالْمَصْبَايِحُ خُبْتُ	بِاشْتِقَاقٍ ، وَاصْطِلَاحٍ قَبِدْتُ
وَالْأَنَاشِيدُ غَدَتْ رَهْنٌ هَوَانٍ ؟	تَتَهَادَى غَادَةً فِي الْمَهْرَجَانِ
وَالْمَأْسَى شُرْعٌ لَا تُنْتَهَى	إِنَّهَا الْفُصْحَى وَأَكْرَمُ بِالَّذِي
وَالْمَنَارَاتُ أَسِيرَاتُ ارْتِهَانٍ	فَجَرَّ الْفُصْحَى عَلَى خَيْرِ لِسَانٍ

أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي الْجُلُوسَةِ الْإِفْتِتَاحِيَّةِ لِمُؤْتَمَرِ الْمَجْمَعِ بِتَارِيخِ ٢٦ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ ١٤١٥ هـ الْمَوَافِقِ ٢٧ مِنْ مَارِسِ (آذَار) سَنَةِ ١٩٩٥ م .

ورِفاقُ الجُرْحِ في غَفْوَتِهِمْ
سَادَرُوا الْأَحْلَامَ. مَحْصُورُ الْكِيَانِ !

يَا بَنِي الْإِسْلَامِ يَا هَدَى الْوَرَى
وَالْمَجْدُونَ لِتَحْقِيقِ الْأَمَانِي
وَالْأَلَى كَمْ رَفَعْتَ أُمَّتُهُمْ
رَايَةَ الْقَتْلِ بِأَطْرَافِ السَّنَانِ
بَهَرُوا الدُّنْيَا بِأَرْغَامِ الْعَدَى
لَمْ يَلِينُوا لِوَعْدِي أَوْ عُنْفُوانِ
قَدْ مُنِينَا بِسَلَامِ شَأْنِهِ
الشَّرِيكَانِ بِهِ مُنْقَبِضَانِ
هُوَ سَلَّمَ خَادِعٌ مُنْكَفِيٌّ

سَوْفَ يَنْهَارُ صَرِيحاً فِي الرَّهَانِ
جَاءَ كَيْ تَضْلَعَ فِيهِ أُمَّةٌ
نَسِيتُ أَمْجَادَهَا أخطرَانِ
وَمَشَتْ حَائِثَةً هَائِمَةً
كَحِصَانٍ شَبَّ مِنْ غَيْرِ عِنَانِ
شَرِقَتْ ، وَاسْتَسَلَمَتْ حَتَّى غَدَتْ
رَهْنٌ خِذْلَانِ ، وَذَلِ ، وَامْتِهَانِ
(الزَّغَارِيدُ) بِهِ مُقْبِضَةٌ
وَالْتَحِيَّاتُ وَلِيدَاتُ اضْطِقَانِ
أَيَّ سَلَّمَ ضَائِعٍ مُنْخَرَفٍ
أُخْرِسَ رُغْمَ صَفَاقَانِ الْقِرَانِ

فَانْتِهَاكَ (الْقُدْسُ) يُدْمِي كَبْدِي
فَهْيُ وَ (الْكَعْبَةُ) دَوْمًا تَوَآمَانِ
وَعَلَى (الْجَوْلَانِ) أَطْيَافُ الْوَعْدَى
فَ (يَهُودَا) صَبَغَ مِنْ حَرْبٍ عَوَانِ
شِرْعَةُ الْحَقِّ أَمَانٌ خَالِدٌ
لَيْسَ مِنْ غَدْرٍ بِهِ أَوْ شَنْآنِ
وَرَوَى عَلَوِيَّةٌ مِنْ مَلَأِ
آثَرُوا شِرْعَتَهُمْ دُونَ أَمْتِنَانِ
حَفِظُوهَا ذِمَّةً مِنْ (أَحْمَدِ)
وَرَعَوْهَا فِي تَضَاعِيفِ الْجَنَانِ
هِيَ إِرْثُ الْغَدِّ لِلْجِيلِ الَّذِي
عَاشَ مُحْفُوفًا بِنَارِ الْحَدَثَانِ !

جِئْتُ أَسْتَنْخِي الْأَلَى فِي مَجْدِهِمْ
صَعَقَةُ الشُّهُبِ وَأَشْدَاءُ الْجِنَانِ
أُمَّةُ الْعُرْبِ وَمَا شَطَّ الْمَدَى
(خَالِدٌ) مِنْهُمْ أَخُو السَّيْفِ الْيَمَانِي
وَالْعَلَى مِنْهُمْ وَقَدْ الْحَجَى
مَنْ أَضَاءَتْ مِنْ سَنَاهِ النَّيِّرَانِ
وَالرَّشِيدُ النُّجْدُ مِصْبَاحُ الدُّجَى
وَابْنُهُ (الْمُعْتَصِمُ) الْمَاضِي الطَّلَعَانِ
وَالْبِهَالِيلُ بِتَّارِيخِ حَوَى
مُثِّلَ الْعِزَّةَ غَابَ السِّنْدِيَانِ

أَنْ يُفِيقُوا مِنْ رُؤَى غَشِيَتِهِمْ
وَيُعِيدُوا عَهْدَ قَرَبَى وَتَدَانِي
وَيَفِيئُوا لِاتِّمَامِ ، وَهْدَى
فَهُمِ الْأَعْلُونَ فِي كُلِّ امْتِحَانٍ
إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ مَعْقُودٌ لَنَا
إِنْ نَصَرْنَاهُ .. بِظِلِّ الْمَعْمَعَانِ !

(مَجْمَعُ الْفُصْحَى) أَتَيْنَا زُمْرًا
نَتَرَوُكَ شَذَى أَثْلٍ وَبَانٍ
نُتِرَاءُكَ تُرَاثًا عَبِيقًا
وَنَرَى الْمَاضِيَ مُوَصَّلَ الْأَوَانِ
حَقْلَ الْمَاضِي بِأَفْذَاذِ النَّهْيِ
وَسَمَا الْحَاضِرُ بِالْفِكْرِ الْمُصَانِ

وَنَحْيَى فَيْكَ حِصْنًا بِأَذْخَا
شُعْلَةُ الْمَجْدُوبِ ذُخْرَاتِ تِمَانٍ
كُلَّ عَامٍ نَجْتَلِي مُؤْتَمَرًا
تَرْتَدِي فِيهِ عُقُودًا مِنْ جُمانٍ
وَتُبَاهِي بِالْأَلَى قَدْ وَقَدُوا
لِلِقَاءِ حَقِّهِ الشُّوقَ الْمُدَانِي
لَهُمْ مَنْ عِلْمِهِمْ مَنْزِلَةٌ
فَذَّةٌ مِيدَ إِشَارَاتِ الْبَنَانِ
عِشْتَ لِلْفُصْحَى مَلَاذًا خَالِدًا
رَمَزَ إِعْجَازٍ ، وَنِبْرَاسَ افْتِنَانٍ !

حسن عبد الله القرشي

عضو المجمع المراسل من السعودية

الإدريسي

صاحب « نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق » ★

للأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد

فى أوائل القرن الرابع الهجرى حين رسم الخرائط
أبو زيد البلخى ثم رسمها بنفس الطريقة ابن
حوقل والإصطخرى والمقدسى فى أواسطه .

على أن الأبعاد بين المواقع حددت بعد
ذلك ، وأقدم من عينها جماعة منهم
الإدريسي .

والإدريسي هو أبو عبد الله محمد بن
محمد عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى ،
على اختلاف المؤرخين .

وقد توفى الإدريسي فى عهد روجار
الثانى ، وبناء على أمره ، على كتابة كتابه :
نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق ، على
اختلاف فى عنوان كتابه .

يصف المسلمون العرب « علم الهيئة »
فيقولون إنه علم وصف الأرض : ساكنها
ومتحركها ، بحارها وأنهارها وخلجانها ،
رياحها العاصفة ونسميها . ولم يسميها
المسلمون « جغرافيا » كما كان يسميها
بطليموس^(١) . وأول وجود علم الهيئة كان
برسم صورة الأرض على أساس قياس خطوط
الطول والعرض ، وأول من رسم الأرض على
هذا الأساس محمد بن موسى المعروف
بالخوارزمى فى زمان المأمون فإنه عين مواقع
المدن والبحور بالدرجات مبنية على علم
الفلك ، ثم ترك المسلمون العرب المقاييس
بالدرجات وصاروا يرسمون الخرائط اعتماداً
على زوايا يضعونها فى مقدمة رسمهم
فاختلط بذلك موقع المدن كما حدث

(١) أول ماسميت « جغرافيا » فى العصر الحديث سنة ١٣١١ م . - دائرة المعارف الإسلامية .

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٢٧ من شوال سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٢٨ من
مارس (آذار) سنة ١٩٩٥ م .

وقد نُشِرَ هذا الكتاب كاملاً العالمُ الإيطالي جوزيبي توتس بدءاً من سنة ١٩٥٥ حينما اتفق مع مطبعة الحكومة الإيطالية على نشر كتاب علمي ، وكونَ له لجنة من العلماء درست الكتاب باهتمام والتزام بقواعد العمل في نشره إلى جانب لجنة باشرت العمل ، تحت رعاية المعهد الإيطالي لدراسة الشرقيين الأوسط والأقصى .

وأخذت لجنة العمل تجوب الآفاق للبحث عند أصوله وبقايا المخطوطات بالمكتبة القومية ببائيس ومكتبات بودلين وصوفيا واسطنبول والقاهرة والموصل وليننجراد وجمعت أصوله وقارنت بينها وضحت نتائج مقارناتها ورموز أصحاب هذه المقارنات في هوامش الكتاب (١) .

وذكر الإدريسي ، وهو من نسل النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن ثم يلقب بالشريف، في مقدمة كتابه ويبلغ تسعة أجزاء من القطع الكبير : « إن أفضل ما عني به الناظر واستعمل فيه الأفكار والخواطر ما سبق إليه الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية

وإنكبردة وفلورية (معز) إمام رومية الناصر للملة النصرانية إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً وصرف الأمور على إرادته إبراماً ونقضاً ودان في ملته بدين العدل واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل وافتتح البلاد شرقاً وغرباً وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بُعداً وقرباً بما يحويه من جيوش متوافرة العدد والعدد وأساطيل متكاثفة متناصرة المدد صدق فيها الخبر الخبر وتساوى في معرفتها السمع والبصر ... ثم جمع إلى كرم الأخلاق طيب الأعراق مع شجاعة النفس وصفاء الذهن وغور العقل ... والمعرفة بتصاريف الأمور من نهاية الفهم الثاقب ومراقبة كالههم الصائب ... »

وفي هذا النص يذكر الإدريسي فضائل رجار الثاني ، ابن رجار الأول فاتح جزيرة صقلية « ومنتزعها من يدي العرب بعد أن بقيت معهم نحو ثلاثة قرون ، كما تقول هونكه في كتابها » .

شمس الله تطل على الشرق ، الذي ترجمه إلى العربية الدكتور فؤاد حسنين . وقد ظلت المعالم العربية سائدة حتى بعد فتح الجزيرة ، ومن أبرزها هذا الكتاب

(١) ترجمت هذه المعلومات من الإيطالية أ . د . سوزان بدريع إسكندر أستاذ الأدب الإيطالي والترجمة بكلية الألسن ، ج . عين شمس .

العربى اللفظ البليغ الكلمة . وسنعود إليه إن شاء الله ، بعد قليل .

ومن مزايا النص أنه يذكر فى شوال سنة ٥٤٨ هـ . الموافق يناير من سنة ١١٥٣ م . اهتمامه بمآثر الملك رجار وتوحيده الشرق والغرب . (على ما ذكر الإدريسى) وأساطيله المحيطة ، وبلاده التى أحاط بها ، وأخلاقه : من العدل ، وطيب الأعراق ، وعطاياه الزواجر . ويذكر معرفته بالعلوم والرياضيات ، فيقول الإدريسى :

وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعد ولا تحصى بحد ... فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه كما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية . وأحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكتها برا وبحرا وفى أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة ... بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله » ...

وفى النص السابق يجد القارئ معلومات رجار الرياضية ، وحبه لمعرفة حدود بلاده الخاضعة له ، وحدود غبره من الأقاليم السبعة ، والكتب والمراجع التى قرأها وراجعها الإدريسى . وأجاب الإدريسى عن ذلك كله .

إن السبب الحقيقى الذى دفع الإدريسى لكتابة ما كتب هو قراءته بعض المراجع التى لم يجد فيها طلبته ، فلم يجد الوصف الذى يصف به الأقاليم السبعة : نظام الحدود والمسالك لها ، وما يختص به كل بلد من عوائد ، وتجارة ولغة ، وما يختص بمؤكلاتهم وما يخص الخارج والداخل فيها .

وإن السبب كذلك أمر رجار له بأن يترجم كل ذلك فى كتاب ، شأن جميع الكتاب حين يضعون أسباب لكتبهم .

وكذلك فيما صنعه رجار من من كرة الفضة الخالصة تكون عنوانا للملكه ولما يصفه فيها ، من وزن أربعمئة رطل رومى ، كل رطل منها مائة واثنى عشر درهما ، وأن ينقل العمال فيها صور الأقاليم السبعة وأقطارها ، وسوقها وريفها ، وخلجانها وبحارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلاد منها من طرق

ومسالك ، وأن يرسم كل شئ على « هيئته
وصورته ، وأن يُؤلفَ له كتابٌ يجمع كل ذلك ؛
وسمى هذا الكتاب باسم يختاره هو ،
«نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» .

أما الكتب التى قرأها الإدريسي
ولم يجد فيها طلبته فقد عددها بنفسه
فى كتابه ، وهى :

كتاب «العجائب» للمسعودي
(ت ٣٤٦ هـ .) ، وكتاب أبى نصر سعيد
الحيهاني ، وكتاب أبى القاسم عبيد الله بن
خرداذبة (ت أواسط القرن الثالث الهجرى)
وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى
القاسم محمد الحوقلى البغدادى (أواسط القرن
الرابع الهجرى) ، وكتاب خاناح بن خاقان
الكيمايى ، وكتاب موسى بن قاسم القردي ،
وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى
(ت ٢٧٩ هـ .^(١)) ، وكتاب إسحق بن الحسن
المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب
بطليموس الأقلودى وكتاب أرسىوس الأنطاكى .

والأقاليم السبعة التى عناها الإدريسي
وغيره ممن ألف فى علم الهيئة أو فى الجغرافيا

فتبدأ من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى)
وتنتهى ببجر الصين ، ومن الجنوب الربع
المسكون من الأرض . وقد وصف الإدريسي فى
كتابه شكل الأرض بعد ما قدم أن خط
الاستواء يقسم الأرض قسمين وأن الجغرافيين
يتبعون ما ذكره بطليموس الأقلودى وما كتبه
غيره ممن ألف فى علم الهيئة ، وأن هذه الأقاليم
السبعة كانت معروفة لدى المؤلفين المسلمين
العرب ، وكانت معروفة لدى صاحب معجم
البلدان وأشار إليها كثيرا .

وبعد المقدمة لكتابه يبدأ الإدريسي
حديثه عن الإقليم الأول بقوله : « وها هنا
نفضى إلى ذكر الجزء الأول من الإقليم الأول
والحمد لله رب العالمين » .

ويقسم الإدريسي الإقليم الواحد إلى أجزاء
عشرة غير البدء والنهاية ؛ فعدد أجزاء الكتاب
أو عدد صوره ، (والتعبيران مأخوذان من
كتابه) ، اثنان وسبعون صورة .

ويقول فى الصورة الأولى : « وأول
ما أبتدى به من ذلك الكلام على صورة الأرض
المسماة بالجغرافية كما سماها بطليموس

(١) السنوات المبينة ليست من صنع الإدريسي .

ووصفها به ومن الله نستمد المعونة والتوفيق والتسديد فى كل منهج وطريق فهو جلت قدرته بذلك جدير وعليه قدير .

ويقول فى الإقليم الأول : « إن هذا الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربى المسمى ببحر الظلمات وهو البحر الذى لا يعلم ما خلفه وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات ومن هذه الجزائر يبدأ بطلميوس بأخذ الطول والعرض ... » (ح ١ / ١٧) .

يصنف بعد ذلك المدن وما يوجد فيها ويسير إلى موقع النيل ، فيتحدث عن مجراه وعدد جزره التى يضمها فرعه إلى انقسامه ، ثم ضم فرعيه الرئيسيين بعد القسمة ، شرقه وغربه ، وكثرة مائه وقلته ، ويقول :

« إن الناظر إذا نظر إلى هذه الصفات المصورة (ص ١٣ - ١٤ من نفس الجزء) والبلاد المذكورة رأى منها وصفا صحيحا وشكلا صحيحا ... » (ح ١ ص ١٧) .

فالصورة التى عنها الإدريسى هى نفس تصويره وما كتبه فى هذا الكتاب .

وفى الجزء الثالث من الإقليم الثالث (ح ٣ / ص ٣١٧ إلى ص ٣٤٦ ، وهو آخر

الجزء) : بعد أن يتحدث عن « أسوان » ويلحقها بإقليم النوبة ويصف الطريق من « برقة » إلى « الإسكندرية :

« يدخل النيل الغربى منها (الإسكندرية) تحت أقبية دورها كلها » وبعد أن يصفها وصفا كاملا ، يتحدث عن النيل ومدته وكوره وقراه ، مدينة مدينة ، حتى أسوان .

وفى الإسكندرية : يتحدث عن المنارة حديثا ممتعا ، وعن ارتفاعها ، وأن المراكب ترى النار فى وسطها من بعيد فتعرف مكانها وتهتدى . وفى القاهرة ، ويسمىها الناس كما سماها الإدريسى « مصر » يعنى « الفسطاط » ، يصف « دار المقياس » وصفا ممتعا ، وكيف يصل ماء النيل إليها ، وعمود المقياس وما كتب عليه ، ويقول « أخبر الحوقلى فى كتابه أن لها سحرا ، « وبها مسجدان جامعان للجمعة والخطبة » (ح ٣ / ص ٣٢٤ س ٢) .

وفى مدينة الفيوم : يذكر سبب تسميتها « الفيوم » (ح ٣ / ص ٣٢٨ / ٥ من أسفل) . ويذكر الإدريسى « وادى اللاهون » ونهره وإجراء الماء فيه ، وإقطاع يوسف عليه .

السلام هذه المدينة . ويصف كل مدينة في النيل حتى «أسوان» فيذكر كيفية الوصول إليها ، وطول المسافة بين ما قبلها وما بعدها ، وفر روعاتها ودخلها وخرجها ، وأسواقها إن وجدت ومواعيد عقدتها . وهكذا في الأقاليم السبعة . وفي نهاية كل جزء يذكر الإدريسي : نجز هذا الجزء ، أو هذا الإقليم .

وفي أول الجزء الثاني أو الإقليم :

يذكر ما يشتمل عليه الجزء من المدن أو البلاد ، وما سوف يصنعه فيه .

ويقول في الجزء العاشر من : الإقليم السابع :

« إن هذا الجزء العاشر من الإقليم السابع كله مظلم لا عمارة فيه ألبتة ولا يعلم ما خلفه فهذا جميع ما اتصل إلينا من أوصاف الأرضين من معمور وغير معمور فتبارك الله رب العالمين وهو على كل شئ قدير والله تعالى حسبنا ونعم الوكيل .

وهنا انقضى الكتاب المعروف بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق والحمد لله رب العالمين (ح ٨ / ص ٩٦٣ / س ٢) .

وهذا الكتاب ، كما نرى من نصوصه المدونة هنا ، خالٍ من علامات الترقيم المعروفة ، (فاصلة ، وفاصلة منقوطة ، ونقطة ، وعلامات استفهام أو تعجب) ،

ووليه جزء تاسع ينتهى بصفحة ١٠٩٠ وكله ما نشر في هوامش أجزائه الثمانية .

وأسلوب الإدريسي في كتابه ينتمى إلى عصر ابن العميد ، وهو مزدوج الفقرات ، مسجوع في المواضع التى يجوز فيها الازدواج ، والسجع ، وتعبيراته رصينة ، والتكلف فى ذلك غير ملاحظ إذا نظر أنه فى عصر يجوز فيه ما صنعه الإدريسي .

وقد جاءنى هذا الكتاب جزءا جزءا وآخر ما جاءنى كان الجزء الثامن ، وتاريخ وصوله ١٩٨٠ / ٥ / ٧ م .

أما الجزء التاسع والآخر :

فتاريخ انتهاء طبعه كان يونيو ١٩٨٤م . وبقي كتاب « المحبين لدراسة الترحال فى بقاع الأرض » وعسى أن يصلنى إن شاء الله كما وصل إلى « نزهة المشتاق » ، بعناية ورعاية الأستاذ الدكتور كليلى سارنيللى تشاركوا أستاذ وعميد معهد الدراسات الإفريقية والشرق أوسطية ، وهو معهد بين معاهد كثيرة جامعية فى نابلى بإيطاليا ، فشكرا كثير لعنايتها ورعايتها .

عبد السميع محمد أحمد

عميد الألسن الأسبق

عضو المجمع

الأعلام الجغرافية - دراسة فى تكونها وفلسفتها*

للأستاذ الدكتور يحيى جبر

مدخل:

سد الخلّة ورفع الشبهة ومداداة الحيرة ... «
(الحيوان - طبعة البابى الحلبي ١٣٥٧ هـ -
تحقيق عبد السلام هارون ١/٤٤ ، ٤٥) .

والحديث عن الأعلام الجغرافية لا يختلف
عن الحديث عن أعلام الناس وغيرهم ، ذلك أن
العلم - هو بمعنى العلامة ، وكلاهما يقومان
دليلا على المعلوم - لا يكون إلا بالتحديد عن
قصد ، ونية مسبقة ، فما أكثر ما يمر به
الإنسان من مواقع ، ويراه من نجوم ... ولكن
قليلا منها اختص بعلاقة مميزة بالإنسان . ليجد
نفسه مضطرا إلى تمييزه بعلامة (عَلَم) أو وسم
(اسم) ، والاسم إن لم تكن معنيا بمدلوله
ومسماه فإن معرفتك وجهلك به يستويان ،
ككثير من الناس وهم جميعا يعرفون
بأسمائهم ، تمر بهم لا يعنونك ، ولا تجد

عاش الإنسان دهرًا على الأرض دون أن
تكون به حاجة إلى تسمية المواقع التى مر بها
أو عاش فيها ، وما نراه اضطر إلى ذلك
إلا بعد أن استقر فى أماكن بعينها ، واعتاد
السير فى مسالك معلومة ، لأن تلك المواقع
كانت قد أصبحت جزءا من معرفته ، ومعرفة
قومه ، فأطلقوا عليها أسماء هى بمنزلة
العلامات ، من شأنها أن تميز موقعا عن
موقع ، وتستحضره فى مخيلة السامع ...
وهكذا المعارف كلها .. تراكمات مكتسبة
تولدها الحاجة على نحو ما نجده فى قول
الجاحظ من أن « البيان ضرورى للاجتماع ،
وهو الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم ،
ومعبرا عن حقائق حاجاتهم ، ومعرفا لمواضع

* ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من مؤتمر المجمع بتاريخ غرة ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ .

الموافق الأول من أبريل (نيسان) ١٩٩٥ م

فى نفسك حاجة لمعرفة أسمائهم ، تماما على
نحو ما يظهر فى قول الشاعر :

ونحن الثريا وجوزاؤها

ونحن السماكان والمرزم

وأنتم كواكب مخصولة

ترى فى السماء ولا تعلم

إذ نراه جعل قومه كأعلام النجوم ، وجعل
الآخرين كسائر النجوم التى نرى فى السماء
دون أن يعرفها الناس بأسمائها ، لأنها ليست
من نجوم الأخذ (المنازل) ولا هى من نجوم
الهداية .

وأسماء الأعلام تواضع واصطلاح ،
والأكثر فيها أن تكون مرتجلة أو أعجمية
لا مساغ فيها للاشتقاق (ياقوت الحموى -
معجم البلدان بيروت ١٩٥٥ ، ١ / ١٥)
ومنها كثير نقل على جهة التخصيص وقصر
الدلالة ، ولكن الواضع لم يفعل ذلك دون
فلسفة توجه التسمية ، بل كان ينطلق من
علاقة بين الاسم والمسمى على نحو ما
سنوضحه فيما بعد (راجع بحثنا حول العلاقة
بين الاصطلاح ومدلوله ودورها فى إشاعته
وانتشاره ، مجلة التعريب ، العدد الثامن)
وهى مما يختلف من أمة لأخرى ، ومن زمان

لآخر ، وذلك لارتباطها بمستوى التمدن ومنهج
التفكير . وفى هذا المعنى يقول جرجى زيدان
(التمدن الإسلامى - القاهرة ١٩٥٨ ٢ / ٢٦٦) :

« إن لأسماء الأعلام تاريخا طويلا فى
علم العمران ، وهى تختلف صورة ومعنى
باختلاف العصور ، وباختلاف الأمم ، فكل أمة
تختلف التسمية فيها عما سواها ، وتختلف
فى الأمة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها » .

وتدخل دراسة الأسماء الجغرافية ،
والأعلام منها بوجه خاص فى ما يعرف بعلم
ال Onomastic ، أى فلسفة الإنسان فى تسمية
ما حوله ، وفى علم ال Toponymy الذى
يبحث فى الأعلام الجغرافية والمكانية (انظر
يوسف توتى - المعجم الجغرافى - المقدمة) .

ونستعرض فيما يلى أبرز مذاهب العرب
فى تسمية الأعلام الجغرافية ، انطلاقا من
بضعة معاجم ، ومن معرفتنا الشخصية .

أبرز مذاهب العرب فى تسمية الأعلام الجغرافية :

أولا - تسمية الموقع باسم أول من
سكنه ، أو نسب إليه :

وهذا منهج قديم نجد له جذورا فى التوراة
(انظر مقدمة كتابنا معجم البلدان الأردنية
والفلسطينية - عمان ١٩٩١ ، ص ٣) وعليه

درج كثير من علماء العربية فى تخرج أسماء بعض المواقع ، يقول جرجى زيدان فى هذا الصدد (المرجع السابق ٤٠ / ٢) : « وقد بالغ العرب فى الرجوع إلى الأجداد حتى رجعوا بأسماء المدن إلى أسماء بعض أجدادهم ، والغالب أن ينتهى النسب بأحد آباء التوراة ، فإذا سئل أحدهم مثلاً عن الأندلس من بناها قال : بناها أندلس بن يافث بن نوح .. » انظر الماوردى - الأحكام السلطانية ١٩٤

ولو استعرضنا معجم البلدان لياقوت الحموى لوجدناه يعيد أسماء كثير من المواقع والبلدان إلى أسماء من بنوها أو نزلوها ابتداء . ومن قبيل ذلك :

- **الهان** : مخلاف باليمن سمي بألهان بن مالك بن زيد من قحطان (٢٤٨ / ١) .

- **تباله** : التى تقع فى الطرف الشرقى من عسير جنوب السعودية ، سميت بتباله بنت مدين ابن إبراهيم فى ما ذهب إليه ابن الكلبي ، وتباله بن مكنف بن عمليق وفقاً لياقوت (١٠ / ٢) .

وقد فعل الهمدانى مثل ذلك ، فنجران (على الحدود السعودية اليمنية) مسماه

بنجران ابن زيدان بن سبأ ابن عبد شمس (الأكليل فى أخبار اليمن وأنساب حمير . الكتاب العاشر - ط السلفية ، القاهرة ١٣٦٨ ١٤ / ١) .

- **والحبش** : درب بالبصرة ، سمي بحبش كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أسكنهم هناك (ياقوت - المشترك ١٢٠) .

- **وثور** : جبل بمكة سمي بثور بن عبد مناة ، أول من سكنه (ابن بنين ، اتفاق المباني وافتراق المعانى - تحقيقنا ، دار عمار - عمان ١٩٨٥ ص ٨٢) .

- **وقائم بن أحمد بنى** : بلدة بمنطقة جازان، سميت بالرجل على ما ترى (العقيلي ١٨٣) .

- **والقرافة** : اسم مقبرة بالفسطاط ، وهما قرافتان متصلتان : الصغرى ، وبها قبر الإمام الشافعى - والكبيرة .. وكانتا فى أول الأمر خطتين لقبيلة من اليمن هم بنو قرافة من المعافر بن يعفر ، ثم صارتا مقبرتين (المشترك ٣٤١) .

- **قلت** : طريف أن المصريين راحوا يستخدمون كلمة القرافة بمعنى المقبرة مطلقاً ، فانتقلت بذلك من الخصوص إلى العموم .

- **حضر موت** : وقيل فى تسميتها غير قول ،
منها إنها سميت بحضر موت بن يقطن بن
عابر بن شالخ (ياقوت ٢٩٢/٣ وجواد على
(المفصل ١٢٤/٢) .

- **أبو حامد** : علماً على جبل بصقلية كان يعرف
باسم Erixe ، ويعرف الآن باسم San
Joliano (أحمد زكى - قاموس الجغرافية
القديمة . القاهرة ١٣١٧ ص ١٩) .

ثانياً - تسمية العلم بصفته :

وهذا من باب إقامة الصفة مقام
الموصوف . وهو من أبرز الموجهات التى تقف
وراء تخصيص بعض الأسماء أعلاماً لمواقع
بعينها ، وذلك أن الموقع يشتهر بين الناس
بصفة لا يلبث حتى يعرف بها ، فتستقر فى
الأذهان علماً عليه . **ومن أمثلة ذلك :**

- **المزمزمة** : علماً على بئر فى موريتانيا ،
كان أحدهم قد صب فيها ماء من بئر زمزم
(مقلد ١٦٧) فكأن الأصل : البئر المزمزة ،
فشاعت الصفة حتى ساغ الاكتفاء بها عن
المركب الوصفى .

- **الجماء** : علماً على ثلاث عيون بالمدينة المنورة
(المشارك ١٠٦) والمعنى : التى تجم كلما
نُزفت ، أى يجتمع فيها الماء من جديد .

- **السوانى** : جميع سانية ، وهى قرية فى
الشُّقيق من تهامة عسير (العقيلي ١٢١) .

وأعرف بلدة قرب طرابلس الغرب تحل
الاسم نفسه ، والأصل أن السانية هى الناقة
التي يسنى بها الماء ثم توسع القوم فى دلالة
الكلمة حتى أطلقت على الآبار التى يسنى
ماؤها ، ثم ازدادوا فأطلقوها على المزارع
التي تروى بها ، وأعقب ذلك إطلاق اللفظ
على الأحياء والقرى التى تكتنف ما سبق ،
حتى بالرغم من أن العمران اكتسح المزارع
وأحالتها إلى مبان وعمارات .

- **المنشار** : اسم مكان كثير الرؤوس الجبلية
بليبيا ، ولذا سُمى به (الزاوى ٣٢٥) وهو
كما ترى ، مسمى بصفته .

- **السوداء** : بلدة أعرفها فى الجنوب السعودى
تقع على قمة سوداء فى جبال عسير تطل
على رجال ألمع فى تهامة ، وهى إلى جانب
ذلك كثيرة الشجر ، ومن الناس من يسمي
سلسلة جبل السراة من الطائف جنوباً باسم
ساق الغراب لدقتها وسوادها ، على
التشبيه .

ثالثاً - قصر الدلالة :

وهو أن يُطلق على الموقع اسم جنسه علماً عليه دون سواه ، وذلك كثير في كلام العرب ، وهو من باب تخصيص العام ، مفرداً كان ذلك أم جمعا ، معرفة كان أم نكرة . ونستعرض في ما يلي طائفة من الأمثلة توضح ما سلف .

- **البيداء** : علماً على أرض ملساء بين مكة والمدينة (ياقوت - البلدان ١/٥٢٣) والبيداء أصلاً هي الصحراء .

- **الرهوة** : علماً على عدة أماكن ، منها رهوة التي تقع إلى الشمال من درب بنى شعبة من منطقة جازان السعودية (العقيلي ١١١) ، ورهوة تنومة من بلاد بنى شهر السعودية أقمت بها عامين ، والرهوة في اللغة من الأضداد إذ تأتي بمعنى ما ارتفع من الأرض . وما انخفض (ابن بنين ٢١٦) .

- **الجبل** : علماً على ثمانية مواضع استناداً إلى ما ذكره ياقوت في المشترك (ص ٩٤) والجبل في اللغة معروف .

- **الرملة** : علماً على خمسة مواقع استناداً إلى ما ذكره ياقوت في المشترك (ص ٢١٠) والرملة في اللغة معروفة ... ومن ذلك رملة فلسطين ، وهي أشهرها على الإطلاق .

وقد أحصينا أكثر من خمسة وسبعين علماً من جنس ما تقدم ، تنتشر مسمياتها في أرجاء مختلفة من الوطن العربي .

رابعاً - التسمية بالمصادر المائية :

كان للماء أثر بالغ في توجيه نمط الحياة العربية قديماً ، ومن هنا لم يكن غريباً أن نجد كثيراً من الأماكن سميت بأحد مصادر المياه التي تكون فيها ، **ومن ذلك** :

- **الأحساء** : الإقليم السعودي المعروف وغيره ، مفرداً ، مثل : حسي وحاسي (مسعود مثلاً) في الجزائر وجمعا ، على نحو ما نجده في قول زهير :

كأن سحيله في كل فجر

على أحساء ب عؤودٍ دعاء
(المشترك ١٤) والحسي في اللغة هو الماء تنشفه الأرض من الرمل ، فإذا صار إلى صلابة أمسكته ، فتحفر عنه الناس نحواً من متر وتستخرجه .

- **الأيبار** : مدينة في الشرق الليبي . وهي مسماه بجمع «بئر» الماء .

- **الحَمَّة** : وبالتصغير " الحميمة علماً على أربعة عشر موضعاً (المشترك ١٤٦) ،
والحمة هي العين تسيل بماء حار .

- **رأس العين** : علماً على مواقع كثيرة ، قديمة
(المشترك ١٩٧)

- **الشمى** : علماً على عدة مواقع (المشترك ٤٢٦)
والنهي والتنهية والتهنئة هي منتهى
المسيل إلى الرياض ونحوها .

- **العين ، العيون ، العوينات** : أعلاماً على بلدان
ومواقع في الإمارات العربية والسودان وليبيا
وعُمان وموريتانيا .

**خامساً : التسمية بنبات أو حيوان أو غير ذلك
مما يكثر وجوده في الموقع :**

وربما تم ذلك بالحيوان أو جزئه أو نسبة
إليهما ، وبالنبات وموضعه ، وأمثلة ذلك
كثيرة جداً ، ومنها :

- **الافاعي** : علماً على واد قرب القلزم
(السويس) من أرض مصر (ياقوت ٢٦٦/١) .

- **الخنزيرة** : علماً على بلدة بجازان جنوب
غرب السعودية ، قرب قرية الجعافرة
(العقيلي ٩٨) .

- **الذئبة** : علماً على موضع ذكره ياقوت
(المشترك ١٩٥) .

- **كراع الناقة** : علماً على واد في موريتانية فيه
شجر كثير (مقلد ١٥٤) وأراه سمى به لجامع
الشبه في طولهما .

- **الجوش** : وهو الصدر من الدابة ، ويطلق علماً
على بلدة في سفح جبل نفوسة (الغربي)
بليبيا ، قال الزاوي (ص ١٠٨) كأنها
مأخوذة من الجوش بمعنى الصدر لأنها واقعة
في سفح الجبل . وقد سمعت أهل تهامة رجال
المع يسمون أسافل سفوح الجبل أصداراً
وصُدراً

- **القمرى** : علماً على بلدة بجازان (العقيلي
١٩١) .

- ومن ذلك في فلسطين حمامة ، وفي
موريتانية مدينة نواكشوط ، إذ يرى بعضهم
أن الأصل في اسمها «نواق الشط» جمع
ناقة ، والشط هو الشاطئ ، شاطئ
الأطلسي .

- ومن التسمية بالنبات ، الأثلة ، واحدة
الأثل ، وهو من شجر الحمض ، منابته
الرمال ، وورقه دقيق كالإبر ، وقد استخدم

هذا الاسم علماً على عدة مواقع ذكرها
ياقوت (البلدان ٩١/١ والعقيلي ٥١/١) ،
وربما سموا بمصغره ، الأيثل . كقول قنيلة
بنت النضر أو أخته :

ياراكباً إن الأثيل مظنة

من صبح خامسة وأنت موفق .

- والسنطة : شجرة الشوك المعروف كالطلح
والقرظ ، وقد أطلقت علماً على قرية بمصر
(المشترك ٢٥٧) .

وغير ذلك كثيرة ، والعلل التي تكمن
وراء إطلاق الأسماء أعلاماً على المواقع
الجغرافية كثيرة جداً إلى درجة يتعذر حصرها
وإحصاؤها ، ولذلك نكتفى بما تقدم ، لننتقل
إلى البحث في الأعلام الجغرافية من حيث
تركيبها .

أبنية الأعلام الجغرافية :

يمكن تصنيف الأعلام الجغرافية من حيث
أبنيتها وتراكيبها إلى عدة أقسام ، وذلك
باعتبارات مختلفة ، تماماً كما هي الحال
في أعلام الناس (انظر ابن هشام قطر النداء
وبل الصدا ص ١٣٣ وما بعدها) إذ أن ثمة
ما يعرف بعلم الشخص ، كزيد وعمرو ،
وينظرهما في المواقع والبلدان مكة والقاهرة ،

وذؤالة للذئب ، وينظرهما في الأعلام الجغرافية
تحوط وكحل علمين على السنة الجديدة ، ومحوة
علما على ربح الشمال .

والأعلام : من باب آخر ، إما مفردة
أو مركبة ، ومن الأول في الناس زيد ، وفي
البلدان ونحوها صنعاء ، أما الثاني ، فهو
على أربعة أوجه هي :

١ - مركب إضافي :

مثل دارة جلجل ، وبيت المقدس ، ووادي
الآجال جنوب ليبيا ، وسوق السبت في
السعودية والمغرب ، ودير دبان في فلسطين
وكفر الشيخ في مصر ، وخشم القرية في
السودان ، وهجرة زهير ، ووادي حلى وهما
في السعودية .

٢ - مركب وصفي مثل :

المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، والواحات
الداخلية والخارجية والربع الخالي ، والصحراء
الكبرى والنعام الوارد ، والنسر الواقع من نجوم
الأخذ ، التي هي منازل القمر .

٣ - مركب إسنادي مثل :

سر من رأى ، وحضرموت .

٤ - مركب مزجي مثل

بعلبك : وينغازي ، وجدأيم (جود دائم) ..
بليبيا .

ويمكن تقسيم الأعلام الجغرافية إلى مثل ما تقسم له أسماء الناس ، فمنها ما هو اسم ، ومنها ما هو لقب وكنية ، وكل ذلك على تشبيه المكان بالإنسان والحيوان ، إذا نجد من المواقع ما سمي بالمركب مبدوءاً بالأب والأم مثل : أبو المظ والمظلة بلدة قرب بيشة في السعودية (ورمان البر ، ينور ولا يعقد وأبو النبع نبع الماء ، أوجمع نبعة ، وهو الشجر الذى تصنع منه القسى وهما علمان على موضعين يقعان قريباً من بيش بتهمة عسير (العقيلي ٥٣) .

والمكان أبو كذا ، أى ذو كذا ، قاما كقولهم ذو الخُلصة ، علما على صنم كان بتبالة ، وذات عرق ، وما بدىء بالأم ، بمعنى ذات أيضاً ، كأم الأرناب علما على بلدة بليبيا ، وأم القرى علما على مكة المكرمة ، وأم عبيد علما على الأرض الخلاء ، وأم مرزم علما على ربح الشمال ، وأم أوعال علما على هضبة باليمامة ، (ياقوت البلدان ٢٤٩/١) وأم الطيور علما على منطقة بعينها فى موريتانية (مقلد ١٥٨) وأم قيس علما على بلد فى الأردن ، وأم درمان فى السودان معروفة.

وينسجم مع ما تقدم تسميتهم المواقع والبلدان بأبن كذا أو بنت وبنات كذا ، ومن ذلك « ابن غراب » علما على موقع قرب مسلاته بليبيا ، وبنات نعش علما على

مجموعة نجمية تظهر فى نصف الكرة الشمالى . وابن مزنة علماً على القمر . كقول ابن أحر :

كأن ابن مزنتها جانحاً

فسيط لدى الأفق من خنصر .

أما صرف الألقاب أعلاما على المواقع الجغرافية فكثير جداً ، ومن ذلك الفيحاء والشهباء علمين على دمشق وحلب على التوالى ، والمضنونة علما على بئر زمزم ، وغير ذلك . ونعتقد أن هذه الألقاب صفات فى الأصل ، وأن ما كان مستخدماً فى الأصل هو المركب الوصفى ، ولما شاع استخدامه طويلاً ساع الاجتزاء بالصفة عن المركب فكان .

أعلام فى مبنى الفعل :

من الملاحظ أن نسبة الأعلام الجغرافية التى جاءت على وزن الفعل أكبر من نسبة ذلك فى أعلام الناس . وقد اجتهدنا فى البحث عن علة توجه ذلك فلم نظفر بما يقنع ، ومن أمثلة ذلك :

- تجيب : علما على خطة بمصر ، سميت باسم قبيلة تجيب من كندة ، أول من سكنها (ياقوت ٢ / ١٦) .

- تدمر (تتمر ، لعلاقة بالتمر فيما نرى) سميت بتدمر بنت حسان بن أذينة بن السמידع (ياقوت ١٧/١) قلت : وتسمية البنت بهذا الاسم يشبه التسمية العبرية « تامارا » بمعنى الحلوة كالتمر .

- تبشع : بلد بالحجاز لفهم (ياقوت ١٣/٢)

قلت : واسم واد فى عسير .

- تدوم : موضع ذكره لبيد (ياقوت ١٩/٢) .

- تروق : اسم هضبة (ياقوت ٢٨/٢) .

- تريم وشبام : علمين على موضعين بحضرموت (ياقوت ٢٨/٢) .

- تذكر : اسم موضع (ياقوت ٢٧/٢) .

- تصلت : اسم موضع وماء لبنى إنسان من جشم . (ياقوت ٣٢/٢) .

- تضارع : تضرع ، تعكر ، تعمّر ، تغوث ، تقوع ، تقيد ، تكتّم وغيرها مواضع ذكرها (ياقوت ٥٠/٢ - ٦٨) .

ويمكن تخريج هذه الأسماء بكونها جملا فعلية وقعت صفات لمسميات بعينها ثم شاعت حتى استغنى بالجملة الفعلية (الفعل) عن الموصوف .

التفسير الاسطوري لبعض الاعلام :

يقف المطالع فى كتب البلدان كمعجم ياقوت الحموى على كثير من الاعلام الجغرافية التى خصت بأسمائها لعلاقة لا سبيل إلى الأخذ بها ، وتعود إلى حكايات خرافية ، لاسميا تلك التى تقوم الأدلة على تسميتها لعلاقات صحيحة مختلفة .

فمن المعروف أن مدينة نابلس الفلسطينية سميت بهذا الاسم نسبة إلى أسرة فلافيا نيا بولس ، وهى نظير مدينة نابولى الايطالية ، ولكن الحموى يخرج تسميتها بطريقة مختلفة ، محللا الاسم إلى مركب إضافى « ناب لس » مفسرا « لس » بأنها حية كانت تسكنها ، وهو نابها . (ياقوت/نابلس) .

كما نعتقد أن الحكاية التى ساقها ياقوت (أجأ/سلمى - ٩٤/١ ، ٩٧) فى تعليل تسمية جبل طىء هى من قبيل ما تقدم ، فقد ذهب إلى « أجأ » وهو علم مرتجل لاسم رجل سمى به الجبل ، ويجوز أن يكون منقولا ، ومعناه الفرار كما حكاه ابن الأعرابى ، يقال : أجأ الرجل : إذا فر ، وسلمى اسم امرأة ، وكان من خبرها أن رجلا من العماليق يقال له أجأ بن عبد الحى عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى ، وكانت لها حاضنة ويقال لها العوجاء ، وكانا يجتمعان فى منزلها حتى نذر بهما أخوة سلمى ، وهم الغميم والمضل وفدك وفائد والحدثان ، وزوجها ، فخافت سلمى فهربت هى وأجأ والعوجاء وتبعهم زوجها وإخوتها ، فلحقوا سلمى على الجبل المسمى سلمى فقتلوا هناك فسموا المكان بها ، ولحقوا أجأ

بالجبل المسمى بأجا ، فقتلوه فسمى به ، وأنفوا
أن يرجعوا إلى قومهم ، فسار كل واحد إلى
مكان ، فأقام به فسمى ذلك المكان باسمه .

وشبيه بذلك تسمية وثنى أساف ونائلة ،
والنجوم قلاص النجم والحويجزين (الفرقدان) ،
وقلاص النجم على التشبيه بقلاص الإبل ،
وحضرموت (جواد علي ١/ ١٢٤) .

ويبدو أن الجغرافيين العرب ، كانوا يرون
أنفسهم ملزمين بتفسير الأسماء ، ولعلهم كانوا
يرون في تسمية الأعلام الجغرافية بمن سكنها
أو ملكها مخرجا سهلا فأكثروا من ذلك ، وربما
تكلفوا غيره . جاء في تعليل تسمية تبالة
(ياقوت ١٠ / ٢) إنها «سميت بتبالة بن مكثف
من بنى عمليق ، وزعم الكلبي أنها سميت
بتبالة بنت مدين بن إبراهيم . ولو تكلف
متكلف تخرج معانى كل الأشياء من اللغة
العربية لساغ أن يقول : تبالة من التبيل ، وهو
الحقد ...» فتبالة ابن في رأى ، وبنت في رأى
آخر ، وأن شئت فهي من التبيل ؟؟

مصادر الأعلام الجغرافية :

١ - الأصل العربي :

تعرف معظم البلدان والمواقع بأسماء عربية
خالصة ، سواء أكانت تسميتها وضعاً وابتداءً ،

أم كانت نقلا من أسماء مواقع في الجزيرة
العربية . فقد أطلق المسلمون العرب على
الأماكن التي دخلوها بعد الإسلام أسماء ها ،
ومنها ما أسموه باسم موقع أو بلد مما عرفوه في
جزيرة العرب ، ذلك أن من شأن الشعوب أن
تكرر في أسماء الأعلام سواء في ذلك المواقع
والبلدان وأعلام البشر ، وأكثر ما يكون ذلك
تعلقا بالمسمى به . جاء في (المشارك ١٥)
«فاتفاق الأحصّ وشبيب متجدد والأخص شبيب
يحلب عجب ولا أبعد أن تكون قبائل ربعة
انتقلت من نجد والشام فسموا هذه بتلك على
وجه التعلل والتشوق إلى أوطانهم وقد فعلوا
ذلك في نجران ، ودومة ، الجندل ، وغيرهما ،
ولما انتقل بنو هشام إلى الأندلس سمو بلادهم
بأسماء بلاد الشام » وانظر أيضا ص ٤١٦ .
والمطالع في الأطلس العربي يقف على كثير من
الأعلام الجغرافية المتفقة هنا وهناك .

٢ - الأصول الأعجمية :

ونعني بذلك الأعلام الجغرافية التي تنتمي
للغات غير العربية ، ومن هذه الأعلام ما يقع
في الجزيرة العربية ، ولكنه مسمى باسمه

لعلاقة بالفرس أو بالروم أو بغيرهم . فكلمة «بيشة» (علما على مدينة تقع فى الجنوب السعودى) تعود لأصل فارسى يعنى حائط النخل ! «وزنجبار» هى بر الزنج العربية ، ولكنها مركبة وفقا للقاعدة الفارسية فى تقديم المضاف إليه على المضاف ، ومن الأعلام رومانى كالإسكندرية (المشترك ١٦ موصفا) والإسكندروية ، وطرابلس ، فى لبنان وليبيا ، ونابلس وقيسارية فى فلسطين .

ومنها يونانى ككورينا ودرنة فى ليبيا ، وكوستى فى السودان ، وغير ذلك .

٣ - الأصول المحلية - إن صح التعبير :

ونعنى بها الأعلام التى تنتسب للغات السكان الأصليين قبل امتزاجهم بالمسلمين العرب ، كما هى الحال فى كثير من الأعلام الجغرافية فى المغرب العربى ، التى تعود للغات التماشق والفلانية والشلحية والقبائلية وغيرها من لغات البربر ، وقد مثل ذلك فى أسماء بعض البلدان والمواقع فى مصر ، لا سيما التى تبدأ بشبين وميت وشبرا ، وهذه المفردات ترد بأصلها إلى القبطية والفرعونية . ونظير ذلك أعلام كثيرة تنتشر فى السودان كواو ورمبيك وجوبا ونيمولى وغيرها ، مما يعود إلى مجموعة اللغات النيلية التشادية .

كما يقف المطالع فى أطلس بلاد الشام والعراق على كثير من الأعلام الجغرافية التى تعود أصولها إلى اللهجات العربية العادية (اللغات السامية فى اصطلاح آخر) كأسماء بعض البلدان الفلسطينية مثل : عورتا ، عنبتا ، خربتا التى تحمل الطابع الأرمى السريانى ، وجديتا فى الأردن ولبنان من الفصيحة نفسها ، إضافة إلى بعض المواقع التى تحمل أسماء كردية فى العراق ، أو كنعانية أو عبرانية فى فلسطين وغير ذلك كثير .

وخلاصة لهذا البحث نستطيع أن نقول : إن الأعلام الجغرافية ، كغيرها من الأعلام ، إنما كانت إنطلاقا من فلسفة وجهة واضعها وأغرتهم بها ، وهى أنواع شتى من حيث أصولها وأنواعها ، وقد تطورت عبر العصور ، وكثرت حتى صح لدى الإنسان أن يرمز لها بالحروف والأرقام ، وهى تلقى الضوء ساطعا على مذاهب الناس فى تسمية ما حولهم من المواقع والبلدان ، إضافة إلى ما يكشفه بعضها من أوجه التطور الدلالى والاستخدام المجازى للمفردات .

يحيى جبر

رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطينى

مدخل

لدراسة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية فى إسبانيا

للاستاذ الدكتور محمود على مكى

تقديم:

اللغات الأوربية إنما كان انتقالها عن طريق

اللغة الإسبانية بوجه خاص .

وكما اهتم الباحثون بدراسة تأثير اللغة العربية فى الإسبانية والبرتغالية فقد كان موضوع الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية فى البلدين مما شغل الباحثين أيضا منذ زمن طويل . وطبيعى أن يكون الرعيل الأول من هؤلاء الباحثين من الإسبان منذ منتصف القرن الثامن عشر حينما بدأت مراجعة تاريخ إسبانيا والاهتمام بإعادة النظر فى عصوره الأندلسية بروح أكثر تجردا وأقل تعصبا مما كان عليه الأمر فى القرنين السابقين حينما حملت كراهية الإسلام المفكرين على محاولة طمس الماضى العربى وتجاهل تأثير الإسلام الحضارى .

وقد كان أول من عمل على كتابة التاريخ الإسلامى لشبه الجزيرة فى ظل هذا الاتجاه الجديد هو خوسيه أنتونيو كوندى José Antonio Conde (١٧٦٥ - ١٨٢٠) الذى كان أول مؤلف إسبانى يكتب تاريخا

لسنا فى حاجة إلى تأكيد ما خلفته الحضارة الأندلسية على أرض شبه جزيرة إيبيريا (أى إسبانيا والبرتغال) من آثار فى كل مظاهر الحياة ، ولعل خير ما يصور هذا التأثير هو اللغة ، فقد احتفظت اللغتان الإسبانية والبرتغالية بقدر كبير من المفردات العربية أصبح جزءا لا يتجزأ من ذخيرة هاتين اللغتين ، وهى ظاهرة تميز لغتى هذين القطرين عن سائر اللغات الأوربية . وقد تشاركهما فى ذلك أيضا اللغة الإيطالية التى انتقل إليها عدد لا بأس به من الألفاظ العربية ، وذلك من خلال الوجود العربى الذى استمر قرونا فى جزيرة صقلية وفيما يتاخم هذه الجزيرة من أرض قلورية Calabria فى جنوبى إيطاليا ، على أن ظاهرة التأثير اللغوى العربى أوضح بكثير فى إسبانيا والبرتغال ، إذ إنه كان أطول زمنا وأوسع رقعة . كذلك علينا أن ننبه إلى أن كثيرا من الألفاظ العربية التى انتقلت إلى

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٣ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٣ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م .

كاملا لما سماه « الاحتلال العربى لإسبانيا » ،
وقد صدر هذا الكتاب بعد وفاته فى
سنة ١٨٢٠/١٨٢١ (١) .

وكان كوندى قد كتب قبل ذلك بسنوات
(فى ١٧٨٧) مقدمة للمعجم الإشباني اللاتينى
العربى الذى وضعه الراهب فرانسيسكو كانيس
جعل عنوانها « أهمية معرفة اللغة العربية
لدراسة تاريخ إسبانيا » (٢) . وفى هذه المقدمة
التي بين فيها أنه لا غنى عن معرفة العربية
لتبين أصول كثير من الألفاظ الإشبانية أشار
أيضا إلى أن هذه المعرفة ضرورية لتبين أصول
عدد كبير من الأعلام الجغرافية الإشبانية ، ثم
طرح بعد ذلك مشروعا طموحا لكتابة « معجم
جغرافى لإسبانيا » ، ووضع تخطيطا لمواد هذا
المعجم واقترح أسماء من يمكنهم العمل فيه .

وبعد فرانسيسكو كوديرا Francisco
Cordera (١٨٣٦ - ١٩١٧) مؤسس المدرسة
الاستشراقية الإشبانية الحديثة ، وقد كان من
أكثر الباحثين تجردا ونزاهة فى الحكم على
الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا . وإليه
يرجع الفضل فى نشر ما سُمى بالمكتبة
الأندلسية التي أصدر منها عشرة مجلدات ،
وكان معظم هذه المجلدات معاجم لتراجم علماء

الأندلس . وقد أمدته هذه الكتب بعدد كبير من
الأعلام الجغرافية ، واستهوتته مقابلة هذه
الأسماء على أسماء المواضع الإشبانية الحالية ،
فقام برصدها فى بطاقات أورثها تلاميذه من
بعده ، فانتفعوا منها فى دراساتهم .

وأبرز هؤلاء التلاميذ ثلاثة ، أولهم إدواردو
سافيدرا Eduardo Saavedra (١٨٢٩ -
١٨٩٨) الذى نشر دراسة قيمة بعنوان
« جغرافية إسبانيا كما يصورها كتاب
الأدريسي » (٣) . والثانى هو فرانسيسكو
سيمونيت (١٨٢٩ - ١٨٩٧) صاحب الدراسة
الخاصة « بوصف مملكة غرناطة بحسب كتاب
معيار الاختبار لابن الخطيب » (٤) وفيها عنى
بمقابلة الأعلام الجغرافية فى كتاب الوزير المؤرخ
المشهور لسان الدين بن الخطيب على أسماء
المواضع الحالية فى آخر دول الإسلام فى
الأندلس ، وهى التى تشمل غرناطة والمرية
ومالقة . وأما المستشرق الثالث فهو أليمانى
بولوفر الذى نشر دراسة وافية حول « جغرافية
شبه جزيرة إيبيريا طبقا لكتابات الجغرافيين
العرب » (٥) .

وقد شارك بعض العلماء الأوربيين فى
بحث موضوع الأعلام الجغرافية ذات الأصول

العربية . وكان من أولهم هامر بورجشتال فى بحث نشره فى سنة ١٨٥٤ (٦) ، وقد سجل فيه أسماء ٨٣٣ موضعا ، غير أن معظم ما أورده من اشتقاقات هذه الأسماء من الأصول العربية كان خاطئا مما ذهب بقيمة هذا البحث المبكر فى الموضوع .

أما فيما يتعلق بالبرتغال فإن أهم ماتم من دراسات حول أعلامها ذات الأصول العربية هى التى قام بها المستشرق البرتغالى دافيد لويس (٧) .

وقد توالى بعد ذلك أبحاث جزئية اشترك فى إصدارها باحثون إسبان وأوربيون حول أعلام بعينها لم تكن أصولها العربية معروفة ، فاستطاع هؤلاء إمالة اللشام عنها ، كما أحرزت الدراسات الخاصة بالموضوع تقدما كبيرا بفضل ما قام به عدد من اللغويين من أبحاث حول القواعد الصوتية والصرفية التى حكمت انتقال الألفاظ العربية إلى الإسبانية . وأهم هذه الأبحاث هى التى قام بها أرنالد شتايجر فى كتابه حول « صوتيات لغة أهل الأندلس وصقلية » (٨) ، ورامون منندث بيدال فى كتابه « أصول اللغة الإسبانية » (٩) ، ثم الدراسة الجامعة التى اضطلع بها عضو مجمعنا المراسل

فيدريكو كورينتى ، وهى بعنوان « تخطيط نحوى لمجموعة اللهجات الأندلسية » (١٠) .

وأول دراسة جامعة للأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية هى التى قام بها العالم الإشباني ميغيل أسين بلاثيوس بعنوان «دراسة للأعلام الجغرافية العربية فى إسبانيا» (١١) وقد جمع فى هذا الكتاب أسماء نحو ألف وخمسمائة موضع أرجعها لأصولها العربية وألحق بالكتاب قائمة بنحو أربعمائة وخمسين علما رجح أنها من أصول عربية وإن لم يستطع معرفة الأصول التى أخذت عنها . وهو جهد تتجلى فيه سمات كل عمل ريادى بما فيه من ميزات ووجوه نقص ، فقد كان موقفا فى تتبع أسماء هذا العدد الكبير من أسماء المواضع وفى الاهتداء إلى أصول اشتقاقها ، غير أن الكثير من المواضع الأخرى قد فاتته ، فمن المؤكد أن قائمة الأسماء تزيد على ما جمع أضعافا مضاعفة ، وأن فى تحقيقه لأصولها ما يحتاج إلى تصحيح وإعادة نظر فى ضوء ما تكشفته عنه النصوص والدراسات الكثيرة التى نشرت خلال السنوات الأخيرة . وعلينا أن نذكر أن قائمة أسين بلاثيوس قد وضعت منذ أكثر من نصف قرن أحرزت خلاله الدراسات

الأندلسية تقدما هائلا سواء من ناحية الكم أو کیف .

ملاحظات عامة :

١ - كان شبه جزيرة إيبيريا منذ أقدم عصور التاريخ ملتقى لهجرات كثيرة متعاقبة قادمة إليها من الشرق أو من شمال إفريقيا أو من الشمال الأوربي . وقد كان الفينيقيون من أول الجماعات التي هاجرت من السواحل الشامية وامتدت مستوطناتها على طول الساحل الإفريقي الشمالى ، ثم فى جنوبى إسبانيا حيث أنشأوا عددا من المدن التى كانت من أزهر مدن العالم القديم . ومنها جادر Gadir ومالاكا Malaka . ويرجع تاريخهما إلى نحو القرن الحادى عشر قبل الميلاد . ومن المعروف أن الفينيقيين شعب سامى وأن لغتهم تنتمى إلى نفس المجموعة اللغوية التى تنتسب إليها العربية . فلفظ «جادر» مشتق من القدرة ، وقد حرفة الرومان إلى جادس Gades وحافظ العرب على صيغة اللفظ فأطلقوا على المدينة اسم قادس ، وهى بإسبانية اليوم Cádiz . أما مالاكا فاسمها مشتق من لفظ الملك وأطلق عليها العرب اسم مالقة ، وعرف الرومان

هذا الاسم ولو أنهم أطلقوا عليها اسما آخر هو ترجمة للفظ الفينيقي فسموها Reggio أو Reyyo المشتق من لفظ Rex أى الملك ، وعرف العرب هذا الاسم أيضا فسموا به المنطقة التى كانت مالقة قصبتها ، وكانوا يعرفون معنى اللفظ ، فابن سعييد يقول فى وصف مالقة «ويكفيها من الإطناب ما يتضمن شرح اسمها ، إذ معنى ريه عند النصارى (يعنى الرومان) سلطنة ، فهى سلطنة البلاد» (١٢) .

٢ - وخلال القرن السادس قبل الميلاد نشأت على سواحل شمال إفريقيا دولة قوية جديدة هى قرطاج Cartago والقرطاجيون ينحدرون من الفينيقيين وهم ورثة دولتهم ، وقد استطاعوا فى امتدادهم على سواحل البحر المتوسط أن يستولوا على أجزاء كبيرة من جنوبى إسبانيا وسواحلها الشرقية ، واختطوا مدينة سموها قرطاجة الجديدة ، وهذا هو اسمها الرومانى Cartago Nova ، ولم يبتعد العرب فى تسميتها كثيرا عن هذا الاسم الرومانى ، إذ أطلقوا عليها قرطاجنة وهو بالإسبانية اليوم Cartagena ، وما زالت هذه المدينة تعد من أهم القواعد البحرية الإسبانية .

٣ - وعلى أرض شبيهة الجزيرة أنشأ
القرطاجيون حضارة زاهرة استمرت على مدى
نحو ثلاثة قرون ونصف قرن . ثم بدأ النزاع
بينهم وبين الرومان فدارت بين الجانبين حربان
طويلتان الأولى كان ميدانها جزيرتا صقلية
وسردانية ، وذلك فيما بين سنتي ٢٦٤
و ٢٤١ ق.م. ثم تجدد القتال فيما يعرف
باسم الحرب البونية الثانية بين سنتي ٢١٨
و ٢٠٢ ق.م. وانتهت بهزيمة القرطاجيين
واندثار دولتهم في شبه الجزيرة . ومنذ هذا
التاريخ بدأ غزو الرومان لإسبانيا ، ولكنهم
قوبلوا بمقاومة شديدة من قبل أهل البلاد ، فلم
يتمكنوا من بسط سيطرتهم على البلاد إلا بعد
قرنين من الزمان . وابتداء من القرن الميلادي
الأول تبدأ البلاد في الاصطباغ بالصبغة
الرومانية ، فيتخذ أهلها اللاتينية لغة لهم ،
ويبدأ الرومان في تقسيم البلاد إلى مقاطعات
إدارية وفي تشييد عدد كبير من المدن الجديدة ،
وكان الرومان مغرمين بالعمران والعناية
بتشييد المباني البالغة الفخامة .

٤ - وفي أواخر القرن الرابع الميلادي بدأ
انحلال الامبراطورية الرومانية ، فتعرض شبه
جزيرة إيبيريا لغزو القوط ، وهم شعب جرمانى

بدوى شديد المراس ، واستطاع هؤلاء في
سنة ٤٠٩ للميلاد الاستيلاء على شبه الجزيرة .
ولم يضاف القوط شيئا إلى عمارة الرومان ، بل
إن الاضمحلال أصاب كثيرا من المدن التي
أنشأها الرومان حتى كاد كثير منها يتلاشى
ويندثر . وأما الريف فقد كان أسوأ حالا ،
وتحول المزارعون إلى ما يشبه العبيد (١٣) .

٥ - وحينما فتح العرب شبه الجزيرة لم يروا
حاجة إلى التوسع في إنشاء مدن جديدة ، وإنما
اكتفوا بتنمية المدن التي أنشأها الرومان
والتوسع في عمارتها ، واحتفظوا بأسمائها
الرومانية القديمة محرفة بعض الشيء بما يتفق
مع طبيعة لغتهم مع اختصارها قليلا
فمثلا مدينة Hispalis أصبحت إشبيلية ،
و Caesar Augusta (أى مدينة القيصر
أغسطس) : سرقسطة ، و Augusta
Emerita : ماردة . و Tarraco : طركونة .
وهناك مدن كانت في طريقها إلى الضمور
والاضمحلال مثل Iliberris التي سموها
إلبيرة ، فرأى المستوطنون العرب أن ينتقلوا
إلى موضع مجاور لها كان قلعة صغيرة ،
فاتخذوها قاعدة وحاضرة للإقليم بعد أن تزايد

العمران فيها وإن كانوا قد احتفظوا باسمها
اللاتيني أيضا ، وهى غرناطة Granada .

مدن عربية جديدة :

لابن خلدون فى « مقدمته » مقولة تلقفها
أهل العصبية من المستشرقين المبغضين لحضارة
العرب والإسلام ، وهى « أن المباني التى كانت
تختطها العرب يسرع إليها الخراب ... وذلك
لقلّة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط
المدن ... فى المكان وطيب الهواء والمياه
والمزارع والمراعى » (١٤) . والحقيقة أن
ابن خلدون حينما تحدث عن العرب فى هذا
النص وفى غيره من نصوص الكتاب فهو إنما
يقصد الأعراب البدو . وإلا فإننا نجد العرب
الذين دخلوا الأندلس قد اختطوا فى هذه البلاد
مدنا تكذب تلك المقولة ، صحيح أن هذه المدن
الجديدة كانت قليلة بالقياس إلى المدن القديمة
التي كانت من منشآت الفينيقيين أو الرومان ،
ولكنها كانت جيدة الاختطاط وراعى فيها
مؤسسوها حسن اختيار المواقع وما يضمن لها
العمران من طيب الهواء والمياه والمزارع . ونورد
فيما يلى بعض هذه المدن المستحدثة فى عهد
المسلمين والتي كانت عامرة مزدهرة أثناء
حكمهم للبلاد ثم ظلت كذلك بعد استيلاء
المسيحيين عليها ، مما يدل على أن العرب

كانوا يحسنون اختيار المواقع لبناء المدن ،
وسنرى كيف ظلت هذه المدن المستحدثة محتفظة
بأسمائها التي أطلقها عليها العرب .

- جبل طارق Gibraltar ، وهو أول موقع
نزل به فاتح الأندلس الأول طارق بن زياد ، وقد
عرف المسلمون منذ البداية قيمة هذا الموقع
الاستراتيجي ، فعملوا على العناية بتحصينه ،
وتحول فى ظل الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن
ابن علي (سنة ٥٥٥ / ١١٦٠) إلى مدينة كبيرة
كانت تدعى «جبل الفتح» ، وظل طوال دولة
الإسلام أحد المعابر الرئيسية بين الأندلس
والمغرب ، وتداوله المسلمون وأعداؤهم خلال
القرن التاسع الهجرى حتى انتهى الأمر بسقوطه
الأخير فى أيدي المسيحيين ، وكان سقوطه
نذيرا بنهاية دولة الإسلام فى الأندلس ،
وصور ذلك الشاعر البسطى فى بكائية مؤثرة
يقول فيها : (١٥)

وقائلة : ما لى أراك مقسطبا

كأنسك للتقطيب هددت بالذبح

فقلت : دعينى الحزن فرض على الورى

أما قد حوى أعداؤنا «جبل الفتح»

حرام علينا البشر والسـمـح بعده

وفى القلب من آلامه أعظم الجرح

غير أن إسبانيا المسيحية لم تنعم كثيرا بالاستيلاء على هذا الموقع الذى كان يتحكم فى المدخل الغربى للبحر المتوسط ، فلم تمض قرابة قرنين حتى انتزعت منه بريطانيا العظمى فى سنة ١١١٥/١٧٠٤ ، وتحول فى ظل السيادة البريطانية إلى مستعمرة بالغة الخطر ، مازالت حتى الآن مثار نزاع بين إسبانيا وإنجلترا .

- الجزيرة الخضراء Algeciras ، وهى من أهم مرافئ جنوبى إسبانيا ، ويرجع بناؤها إلى بداية نزول المسلمين بها إبان الفتح ، وتعد من أهم المعابر بين المغرب والأندلس ، وتقع على مدخل مضيق جبل طارق مواجهة لمدينة سبتة المغربية . واختصر الإسبان اسمها إلى الجزء الأول من اسمها العربى . ومن الطريف أن هذه المدينة البحرية الجميلة تقع على مصب نهر صغير كان العرب يدعونه وادى العسل (١٦) وقد ترجم الإسبان اسمه العربى ترجمة حرفية ، فأطلقوا عليه Rio de la Miel .

- طريف Tarifa ، وهى ثالث المعابر بين الأندلس والعدوة المغربية على مضيق جبل طارق ، فى أقصى جنوبى إسبانيا ، ومازالت حتى اليوم تحمل اسم أول قائد مسلم اضطلع

بحملة الاستكشاف الأولى قبل طارق بن زياد ، وهو أبو زرعة طريف بن مَلُوك مولى موسى بن نصير ، وكان موسى قد وجهه على رأس سرية لاختبار الشاطئ الأندلسى ، وكان ذلك مقدمة للفتح الكبير .

- قلعة أيوب Calatayud ، وهى منسوبة إلى ثالث ولاية الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، وتقع فى الشجر الأعلى إلى الجنوب الشرقى من سرقسطة .

- مدينة سالم Medinaceli ، عاصمة الشجر الأوسط فى عصر الخلافة ، وتدين بفضل إنشائها واسمها الذى لا يزال يطلق عليها إلى أحد قادة البربر سالم بن ورعمال وكان من موالى بنى مخزوم ، وهى الآن مدينة متوسطة تتبع محافظة سربة Soria . وكان بها قبر المنصور بن أبى عامر .

- وادى الحجارة Guadalajara من كبريات مدن الشجر الأعلى ، وكان يطلق عليها أيضا اسم « مدينة الفرج » نسبة إلى منشئها الفرج بن مسرة بن سالم حفيد ذلك القائد البربرى سالم بن ورعمال الذى أنشأ مدينة سالم .

وهي الآن عاصمة إحدى محافظات إقليم قشتالة ، وتقع على الطريق بين مدريد وسرقسطة .

وقد انتقل اسم المدينة إلى أمريكا فهو يطلق الآن على ثانى مدن المكسيك .

- مرسية Murcia ، وهي مدينة مستحدثة أمر بإنشائها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ (٨٣٢) وتقع على نهر كان العرب يدعونه النهر الأبيض أو نهر شقورة Rio Segura وهو الاسم الذى يطلق عليه الآن ، ويرى منطقة مرسية ذات الخصوبة البالغة ، وكان الجغرافيون القدماء يشبهونه بنهر النيل ، ومن أجل هذا فقد نزل جند مصر هذه المنطقة منذ أول الفتح . وقد تزايد عمران المدينة خلال عصرها الإسلامى ، وإليها ينتسب عدد من كبار رجال الفكر نذكر منهم اللغوى الكبير ابن سيدة الضرير صاحب أول معجم دلالى هو «المخصص» ، وثلاثة من أعلام التصوف : هم محيى الدين ابن عربى نزيل دمشق وابن سبعين نزيل مكة ، وابو العباس نزيل الاسكندرية وليها الكبير .

- بطليوس Badajoz ، وكان منشئها الشائر على إمارة بنى أمية بقرطبة عبد الرحمن

ابن مروان المعروف بالجليسى ، وذلك بعد مسالته للأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) وكانت فى أول أمرها تابعة لمدينة ماردة Mérida قاعدة غرب الأندلس ، ثم أخذت فى النمو والانتساع حتى أصبحت فى عصر ملوك الطوائف حاضرة لواحدة من أكبر الممالك ، وهي دولة بنى الأفطس . وهي الآن عاصمة لإحدى محافظتى الإقليم الذى يدعى Extremadura (أى الطرف الأقصى) وتقع فى أقصى غربى إسبانيا على حدودها مع البرتغال . أما الاسم الذى أطلق على المدينة فمن الواضح أنه غير عربى . وقد اختلف اللغويون على أصل اشتقاقه ، على أن اتخاذ اسم عجمى لمدينة بنيت فى العهد الإسلامى يبدو أمرا غريبا ، ولكن تفسيره يكمن فى ظاهرة الازدواج اللغوى الذى كان فاشيا فى الأندلس سواء فى ذلك المسلمون والنصارى . وسرى على هذه الظاهرة أمثالا كثيرة .

- قلعة رباح Calatrava ، وهي بلدة صغيرة تقع الآن فى غربى محافظة لامانشا La Mancha وهو الذى كان يعرف فى أيام المسلمين باسم « الجوف » . وقد ذكر بعض العلماء ومنهم تسايبولد وأسين بلاثيوس أن بناء القلعة يرجع إلى على بن رباح ، وهو

أحد التابعين الذين دخلوا الأندلس فى بداية الفتح مع موسى بن نصير . غير أن ذلك لا يبدو مؤكداً .

- البسيط Albacete ، وهى مدينة محدثة أنشئت فى عصر الموحدين فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ويرجع اسمها إلى وقوعها فى سهل منبسط ، وهى الآن بعد أن اتسع عمرانها عاصمة لإحدى محافظات الإقليم المعروف باسم لامانشا ، متاخمة لمحافظة مرسية وبلنسية .

- المرية Almeria ، وهى مدينة محدثة أمر ببنائها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر لدين الله فى سنة ٣٤٤ (٩٥٤) وسرعان ما أصبحت قاعدة الأسطول الأندلسى فى البحر المتوسط ، ثم نمت نموا كبيرا فى العصور التالية ، وأصبحت من أشهر مراسى الأندلس وأعمرها ، إذ كانت مركزا تجاريا يربط البلاد بموانئ الشمال الإفريقى والمشرق ، وكانت ثانية مدن الدولة فى عصر بنى الأحمر بعد العاصمة غرناطة ، وهى الآن عاصمة إحدى محافظات الجنوب الشرقى ، متاخمة لمحافظة مرسية وبلنسية . أما اشتقاق الاسم فمختلف فيه ، فهناك من يقول إنها تصغير غير قياسى

للفظ « المرأة » لصفاء ماء البحر لديها ، وهناك من يقول إن اللفظ صفة للمدينة ومعناه « الطيبة » وهو تفسير يذكّرنا بالعبارة الشعبية التى يرددونها أهل الاسكندرية تمداحا ببلدهم : « اسكندرية مَرِيّة » .

- المنكب Almuñecar ، مدينة ساحلية صغيرة تعد من مرافئ غرناطة ، ويبدو أنها قديمة البنيان أنشئت بعد فتح الأندلس بقليل إذ يرد ذكرها فى أقدم المصادر الأندلسية ، وقد ارتبط اسمها بحدث تاريخى له أهميته الكبرى ، فقد كانت أول موضع ينزله عبد الرحمن بن معاوية الداخل « صقر قرش » بعد فراره من الشرق ومغامرته التى انتهت بإقامته لدولة بنى أمية فى الأندلس ، وذلك فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) . وبهذه المناسبة أذكر أن بلدية المدينة أقامت منذ سنوات تمثالا كبيرا فى أكبر ميادينها لعبد الرحمن الداخل وهو على صهوة جواده مذكرا بتلك اللحظة التاريخية . أما أصل اشتقاق الاسم فهو من الفعل « نكّب » أى مال وانحرف ، وفى ذلك تصوير لموقع المدينة ، فهى تقع على سفح منحدر بين الجبل والبحر . وكانت المنكب مشتهرة - ولا تزال -

بمزارع قصب السكر ، وهى صناعة أدخلها العرب لهذه المنطقة لملاءمتها لذلك المحصول .

- قصر آش ، وتكتب أيضا قصرش Cáceres ، وهى مدينة محدثة فى عصر متأخر ، إذ لا نجد لها ذكرا فى المصادر الأندلسية قبل عصر المرابطين فى أوائل القرن السادس الهجرى ، ولم تبق فى أيدي المسلمين إلا نحو قرن من الزمان ، إذ استولى عليها ملك ليون يعاونه جيش من قشتالة ومن فرسان قلعة رباح فى سنة ٦٢٤ (١٢٢٧) بعد حصار استمر خمس سنوات . واسم هذه المدينة يبدو مولدا (hibrido) مؤلفا من لفظ «قصر» العربى و « آش » العجمى ، فهو إذن ثمرة لما سبق أن ذكرناه حول ظاهرة الازدواج اللغوى فى الأندلس . ولفظ آش هو الذى نجده ملحقا بـ « وادى » فى اسم مدينة « وادى آش Guadix » التى كانت من كبريات المدن التابعة لغرناطة ، وأصله إيبيرى قديم (Acci) ، وهو يعنى الماء . وقد نمت تلك المدينة الحصينة بعد استيلاء المسيحيين عليها حتى أصبحت الآن عاصمة لإحدى محافظات إقليم إكستريمادورا Extremadura فى غرب إسبانيا (والأخرى هى محافظة بطليوس التى أسلفنا الحديث عنها) .

- ونختم هذا الحديث عن المدن التى يرجع للمسلمين فضل استحداثها بتلك المدينة التى تتمثل فيها العبقرية الأندلسية ، وهى مجريط التى تحولت بمضى الزمن إلى عاصمة إسبانيا منذ سنة ١٥٦٢ حتى اليوم بعد أن تحرف اسمها إلى « مدريد » Madrid .

وإنشاء مدريد يرجع إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (الذى حكم بين سنتى ٢٣٨ و ٢٧٣ / ٨٥٢-٨٨٦) . وكان هذا الأمير حريصا على تحصين ثغور الأندلس فيما بين الشجر الأعلى (سرقسطة) والشجر الأدنى (طليطلة) ، ومن هنا كان اهتمامه بعمارة المدينتين اللتين تحدثنا عنهما من قبل وهما : وادى الحجارة ومدينة سالم ، ثم رأى أن يعزز الخطوط الدفاعية الفاصلة بينه وبين مملكة ليون ، فعمل على إنشاء سلسلة من القلاع الحصينة على السفوح الجنوبية لجبال وادى الرمل Guadarrama التى تشق الهضبة الوسطى . ويذكر المؤرخون من هذه القلاع : طلمنكة Talamanca وولموش Olmos وقنالش Canales وقلعة خليفة Calatalifa . ونلاحظ أن جميع هذه الأسماء فيما عدا الأخير عجمية ، وهو ما يؤكد ظاهرة الازدواج اللغوى التى تحدثنا عنها من قبل .

وقد نمت مجريط فى ظل المسلمين فتحوّلت من قلعة منيعة إلى « مدينة شريفة » على حد قول ابن عبد المنعم الحميرى (١٧) ، وذلك بفضل النظام الذى وفق المسلمون إليه فى إمدادها بالماء اللازم للتوسع فى مرافقها ، وذلك بعد أن اكتشفوا أن المدينة تقوم على بحيرة من المياه الجوفية الصالحة للشرب . فكان أن عملوا على حفر عدد كبير من الآبار ثم التوصيل بينها بشبكة معقدة من القنوات تتجمع تحت الأرض فى عدد من الصهاريج ، ومنها تمتد أنابيب توصل المياه إلى أحياء المدينة ومنازلها . وبفضل هذا النظام الهندسى الذى فناه المسيحيون بعد ذلك اتسعت المدينة وازداد عمرانها حتى وقع الاختيار عليها لتكون عاصمة لإسبانيا فى عهد الملك فيليب الثانى سنة ١٥٦٢ . وقد أفاض فى شرح هذا النظام الباحث الإسباني خايمي أوليفر أسين فى كتابه « تاريخ اسم مدريد » (١٨) . وفصلنا الحديث عنه فى كتابنا الذى أفردناه للمدينة : « مدريد العربية » ، القاهرة ١٩٦٧

أما اسم « مجريط » الذى أطلقه المسلمون على المدينة فقد كان مشار خلافاً عريض بين المؤرخين واللغويين . وقد انتهى خايمي أوليفر

أسين فى كتابه الذى أشرنا إليه إلى أن اللفظ يتألف من لفظ عربى هو « مجرى » ثم اللاحقة « يط » المأخوذة من اللاتينية etum والدالة على التكثير ، أى المكان الذى تكثر فيه المجارى ، والمقصود بالمجارى تلك القنوات الجوفية التى كانت تؤلف شبكة من الأنابيب هى التى كان اعتماد السكان عليها فى إمدادهم بما يلزمهم من مياه (١٩) . على أن اللغوى الكبير فيديريكو كورينتى عضو مجمعنا المراسل كان له رأى آخر يبدو أنه أكثر اتساقاً مع المنهج اللغوى السليم ، وهو أن اللفظ العربى تطور من اللاتينية المتأخرة Matrice الذى يعنى « المستودع الأم » للمياه ، وهو ما يقابل بالعربية « مطرج » ، ثم حدث قلب موضعى بين حروف اللفظ - وهذه ظاهرة لغوية تتكرر فى كثير من الأسماء فأصبح « مجريط » وانتهى فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى « مدريد » (٢٠) وبهذا يكون الاسم مأخوذاً من لفظ لاتينى خالص ، وهو أمر لا يستغرب إذا ذكرنا أن معظم القلاع التى أنشأها الأمير محمد مع مجريط كانت تحمل أسماء عجمية .

ومن العرض السابق يتبين أن عدد المدن الكبرى التى استحدثتها العرب أثناء حكمهم شبه الجزيرة الإيبيرية والتى تحولت بعد ذلك إلى عواصم للمحافظات كان قليلا بالقياس إلى المدن القائمة عند الفتح العربى مما بُنى فى ظل الحضارات السابقة . هذا على حين نرى الأسماء العربية شائعة شيوعا كبيرا بين المدن الثانوية والقرى . وليس فى هذا مأخذ على الحضارة العربية الأندلسية ، بل لعله شاهد على الحس الحضارى الذى اتسم به العرب فى استيطانهم لما فتحوه من بلاد فى المشرق والمغرب ، فهم حيث رأوا مدنا قائمة لم يروا حاجة لتغيير بنيتها أو أسمائها ، وإنما أضافوا إلى عمرانها ما جعلهم أولى بها من منشئها . ويكفى أن نشير إلى ما قاموا به فى مدن قديمة كانت من إنشاء الفينيقيين أو الرومان ، مثل مالقة وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة ، فقد نموا عمران هذه المدن وحولوها إلى حواضر كبرى زاخرة بالنشاط من كل نوع . ولنتأمل تاريخ مدينة مثل قرطبة وهى من المدن التى أسسها الرومان فقد ظلت على عهدهم ثم فى أيام القوطيين مدينة متوسطة ، فلما اتخذها مسلمو الأندلس قاعدة لهم أخذ عمرانها فى

النمو حتى أصبحت فى ظل الخلافة الأموية أكبر الحواضر فى الغرب كله سواء الإسلامى أو المسيحى ، وبلغ عدد سكانها نحو مليون نسمة ، وكان فيها من العماثر والقصور والمساجد والحمامات والمتنزهات والأسواق ما لم يكن يضاهيها فيه إلا بغداد والقسطنطينية . وحينما استولى القشتاليون على قرطبة فى سنة ٦٣٣ (١٢٣٦) أخذ عمرانها فى التراجع حتى أصبحت من مدن الدرجة الثالثة وإن كانت قد استعادت بعض عظمتها القديمة خلال السنوات الأخيرة .

أما ظاهرة شيوع الأسماء العربية بين المدن الصغيرة والقرى والقلاع فإنها تدل على مدى عناية مسلمى الأندلس بتعمير الريف وما يتطلبه ذلك من استنباط المياه وشق القنوات وتحسين نظم الري . وما أكثر ماسمعنا الفلاحين فى منطقة شرق الأندلس - وهى أخصب أراضى إسبانيا وأغناها - يشهدون بأن نظم الري التى يستخدمونها هى التى ورثوها عن أسلافهم المسلمين ، ويدل على ذلك أن كشتيسرا من الألفاظ المتعلقة بالمياه والرى والفلاحة مما أصبح جزءاً من المعجم الإشباني مأخوذ عن العربية ، كما يتمثل ذلك فى العدد الكبير من مؤلفات

الأندلسيين فى الفلاحة والنبات والتقويم الزراعية مثل كتب ابن حجاج القرطبى وأبى عبيد البكرى والغافقى وابن البيطار وابن العوام الإشبيلى وابن الرومية .

ويرجع اهتمام الفاتحين العرب بالريف ونشاطهم فى تعميره إلى فترة مبكرة ترجع إلى أول عهدهم بالفتح إذ تخبرنا المصادر التاريخية أنه حينما قدم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي واليا على الأندلس سنة ١٢٥ (٧٤٣) راعه تفاقم النزاع بين البلديين - وهم الجيل الأول من الفاتحين - والجند الشامى - وهم الجيل التالى لهم ، فاستقر رأيه على أن يخرج الشاميين من قرطبة ويسكنهم فى نواحي الأندلس المختلفة ، فاختارت كل طائفة من طوائف هؤلاء الجند منطقة تشبه المنطقة التى قدموا منها ، وهكذا استقر المصريون منهم - وكانوا أكثرهم عددا - فى ثلاث نواح من الريف هى تدمير (مرسية) وأكشونية (فى جنوب البرتغال) وباجة (فى البرتغال الوسطى) ، ونزل جند حمص فى إشبيلية ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند دمشق فى البيرة (غرناطة) وجند قنسرين فى جيان(٢١) . وبهذا تحول أولئك المحاربون بعد استقرارهم فى

تلك المناطق الريفية إلى زراع مقتدرين يعملون على استصلاح الأراضى واستثمار الحقول وتنمية الموارد . والملاحظ أن العرب ومن كان معهم من الموالى كانوا يفضلون السهول والبساتين ، على حين استقر شركاؤهم فى الفتح من البربر فى المناطق الجبلية التى كانت تشبه البلاد التى قدموا منها فى شمال إفريقيا(٢٢) . ولم يكن من الغريب أن تتسمى القرى والقلاع التى نزل بها كلا الفريقين بأسماء الأسر العربية أو البربرية التى عملت على استيطانها .

ضوابط لتعرف الأصول العربية :

تعرضت أسماء الأعلام الجغرافية العربية على ألسنة الإسبان بعد استيلائهم على ماكان بأيدي المسلمين لكثير من التحريف حتى لم يعد من السهل الاهتداء إلى أصولها القديمة . وقد تطلب هذا من الباحثين جهودا مضنية ، ولاسيما حينما كان المعروف من النصوص الأندلسية قليلا ، على أن العقود الأخيرة شهدت نشاطا متزايدا فى تحقيق عدد كبير من تلك النصوص ، وأدى ذلك إلى زيادة معرفتنا بتلك الأصول . كذلك أعان على هذه المهمة ماقام به الباحثون الإسبان من نشر الوثائق

القديمة التى تم بمقتضاها توزيع ما استولى عليه المسيحيون من أرض الأندلس على الفاتحين ، فقد سجلت هذه الوثائق أسماء القرى التى وزعت بصفتها إقطاعات على النبلاء وقادة الجيوش المشتركين فى الفتوح . ومن هذه الوثائق المنشورة أخيرا والمدعوة « بالتوزيعات » (Repartimientos) ما هو خاص ببلنسية وإشبيلية ومالقة وجزيرة ميورقة . ويفضل هذه الوثائق استطاع الباحثون الإسبان ممن يعرفون العربية أو ممن استعانوا بالمتخصصين فى هذه اللغة أن يستكشفوا أصول عدد كبير من أسماء المواضع . ومن حصيلة هذه المعارف أخذ اللغويون فى وضع ضوابط لتبين الأصول العربية لتلك الأسماء . وكان من أسبق هؤلاء الباحثين أرنالد شتايجر فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل عن « صوتيات اللهجة الأندلسية » (٢٣) وماطراً على الألفاظ العربية التى انتقلت إلى الإسبانية من تغيرات صوتية . على أن هناك أمراً ينبغى التنبيه إليه ، وهو ما استطاع أسين بلاثيوس أن يدركه بحسه اللغوى ، وهو أنه لم تكن هناك لهجة أندلسية موحدة ، بل لهجات عديدة اختلفت باختلاف المناطق ، فلم تكن لغة

الخطاب الدارجة التى يتحدث بها أهل غرناطة مثلاً هى نفسها لغة أهل بلنسية أو سرقسطة أو غيرها من أقاليم الأندلس ، ومن هنا اختلفت الصور التى تم بها انتقال اللفظ العربى الواحد إلى هذه أو تلك من بقاع إسبانيا . ونضرب على ذلك بعض الأمثلة :

- لفظ « القصر » وهو شائع فى الأعلام الجغرافية الأندلسية نراه قد انتقل بعدة صور تتمثل فى الأعلام الآتية : فهو فى منطقة الشجر الأعلى (أرغون الحالية) Alquézar ، وفى بلنسية Alcácer مع نبر حرف الـ a الأول ، وفى البرتغال {do sal} Alcaçer (وكان العرب يسمون هذا الموضع قصر أبى دانس ، أو قصر الملح) ، وفى سائر أنحاء الأندلس Alcázar .

- لفظ « المدور » ، أصبح فى قرطبة Almodóvar ، وفى أرغون Almudévar
- لفظ « السهلة » ، نجده فى لقنت Alicante فى صورة Adsaila وفى تيروال Azaila : Teruel

- لفظ « الزاوية » : تحول إلى Adsubea أو Adsubia فى لقنت و Azoya فى مرسية و La Zubia فى غرناطة .

- لفظ « البحيرة » : نجده فى صورة Albuhera فى قصرراش Cáceres

وفى المدينة الملكية Ciudad Real ،
و Albufera فى بلنسية ومرسية وميورقة
ولقنت ، و Albuera فى قصرراش
وبطليوس ، و Albogaira فى المرية .

- لفظ « الخندق » : أصـبـح
Alfandecha فى بلنسية ،
Alhándiga فى مالقة ، و Alfántega
فى وشقة و Alfándiga فى لك Lugo .

- لفظ « الضيعة » : نجده معرفا ومنكرا
فى صور عديدة : Aldaya فى بلنسية ، و
Aldea وهى أشيع الصور ، فهناك ٢٢٩
موضعا فى إسبانيا تحمل هذا الاسم مشفوعا
بصفة مميزة ، أو فى صيغة التصغير ،
و Adaya فى منورقة Menorca ، و Daya
فى لقنت ، و Deyá فى جزر البليار .

وللتباين فى صور الكلمة العربية الواحدة
أمثلة كثيرة ، نكتفى منها بما ذكرنا . وجدير
بالذكر أن لهذه الظاهرة قيمة كبيرة فى إلقاء
الضوء على لهجات مختلف مناطق الأندلس ،
وذلك لأن هذه الألفاظ العربية لم تنتقل إلى
الإسبانية عبر لغة الكتابة الفصيحة ، وإنما من
خلال لغة الخطاب الشفاهية ، ومن هنا فإنها

تصور لنا الطريقة التى كان الأندلسيون ينطقون
بها تلك الألفاظ فى بقاع البلاد المختلفة .

وتتفاوت الأعلام الجغرافية كما ينطق بها
الإسبان اليوم فى مدى قريبها أو بعدها عن
أصولها العربية ، فهناك منها ما يسهل
الاهتداء إلى أصولها إذا سلمت من التحريف
أو أصابها منه قليل ، ولكن هناك ألفاظا أخرى
تعاقبت عليها مراحل من التحريف حتى بعدت
كثيرا عن أصولها ، وهنا يصبح الاهتداء إلى
صورها الأولى أمرا من العسر بـمـكان . وحينئذ
قد يعين على معرفة أصولها الرجوع إلى
الوثائق الإسبانية التى قد تكون سجلت أسماء
تلك المواضع فى زمن قريب العهد بوجودها
الإسلامى ، هذا إذا أسعدنا الحظ بوجود تلك
الوثائق . غير أن ذلك لا يتوافر فى جميع
الحالات .

ومن أمثلة المواضع التى لا نجد صعوبة فى
الاهتداء إلى أصولها العربية تلك التى تبدأ
بألفاظ مثل القصر Alcázar ، والقلعة
Alcalá ، أو Calat بصيغة التنكير ،
أو مصغرة فى صورة القليعة Alcolea ،
أو التى تحمل اسم علم مثل التى تبدأ بلفظ ابن
Aben أو Ben أو اسم قبيلة أو أسرة

بنى Beni ، وسرى نماذج لأمثال هذه
المواضع .

وهناك أسماء تتألف من جزأين : جزء عربى
وآخر عجمى ، وهو أمر راجع إلى ما ذكرناه من
ظاهرة الازدواج اللغوى bilingüismo التى
كانت شائعة فى الأندلس ، فبعض المواضع
عجمية الأصول ، غير أنها تحمل فى بدايتها
أداة التعريف العربية مثل البونت Alpuente ،
فلفظ puente المعرف بـأل يعنى القنطرة ،
و Almonte ، وهو تعريف عربى للفظ
monte الذى يعنى الجبل ،
و Fuentealbeitar التى تتألف من
Fuente أى عين والبيطار ،
و Torrealhaquime (Torre بمعنى برج
+ Alhaquime الحكيم) و Tordomar
(Tor اختصار للفظ الذى يعنى برج + d
اختصار لحرف الإضافة + Omar
أى عمر) و Castiel fabit (Castiel
بمعنى حصن + Fabit اسم حبيب محرفا)
و Villacadima (Villa بمعنى بلدة +
Cadima قديمة) . وقد يضاف إلى الاسم
العربى لاحقة التصغير الإسبانية مثل
Alcazarejo (القصر Alcazar + ajo -
وهى إحدى لواحق التصغير) ، و

Alcantarilla (القنطرة + illa
Alcántara وهى لاحقة أخرى تفسد
التصغير) .

وليست نادرة أمثال هذه الحالات من
التداخل اللغوى بين العربية واللاتينية أو
اللاتينية الدارجة (إسبانية اليوم) . فقد كان
الرومان يطلقون على سلسلة الجبال الشاهقة
التي تطل على إقليم غرناطة اسم Mons
Solarium أى الجبل المشمس ، ونقل
المسلمون هذا الاسم مع تعريبه محتفظين
بصورته اللاتينية ، فسموه « جبل شلير » ،
وكان يضرب به المثل فى برودته ، ثم أطلقوا
عليه اسما عربيا خالصا : « جبل الشلج »
وترجمه الإسبان بعد ذلك ترجمة حرفية ، إذ
دعوه Sierra Nevada ، ثم نقله الإسبان
إلى القارة الأمريكية فتسمت به إحدى الولايات
فى الولايات المتحدة وهى الواقعة على السفوح
الشرقية لجبال روكى العالية . وكانت هناك
قلعة تقع جنوبى مدينة ماردة كان الرومان
يدعونها Castrum Colubri ، فترجم
العرب هذا الاسم ترجمة حرفية إلى « قلعة
الحنش » واحتفظ الإسبان بهذا الاسم العربى
محرفا حتى اليوم فى صورة Alanje .

ولعل أكثر ما يكشف عن الأصول العربية لأسماء المواضع دلالتها الواضحة على الأعلام العربية سواء أكانت مفردة أو منسوبة إلى الأب في صورة ابن (Aben أو Ben أو Vin) أو على سبيل الكنية : أبو فلان (Abo ، أو Bo) . فمن الأسماء المفردة : طريف القائد الذى ترك اسمه على المدينة الواقعة فى أقصى الجنوب Tarifa ، وسليمان الذى أصبح اسم قرية فى محافظة « البسيط » تدعى اليوم Zulema ، وسالم وهو اسم إحدى قرى بلنسية : Salem ، ومن أسماء الإناث زيدة Zaida فى محافظة سرقسطة ، وسكينة Zucayna فى محافظة قشتليون Castellón . ومن أسماء الأعلام المضافة إلى لفظ Villa (أى قرية أو ضيعة) : Villanazar (قرية نصر) فى محافظة سمورة Zamora ، Villacelama ، Leon Villambrús (... عمروس) من أعمال برغش Villahamete، Burgos (... أحمد) Villabráhima و (... إبراهيم) ، وكلتاها من أعمال بلدوليد Valladolid . والملاحظ أن هذه القسرى

الأخيرة توجد فى مناطق لم تخضع أبدا لسلطان المسلمين ، ولهذا فوجود أمثال هذه الأسماء العربية يبدو غريبا لأول وهلة ، غير أن لهذه الظاهرة تفسيراً سوف نبينه فى موضعه .

ونذكر فيما يلى عددا من أسماء المواضع التى تبدأ بـ «ابن» : فى محافظة بلنسية : Abenromá (ابن رومان) ، Bengéber (ابن جابر) ، Benaguacil (ابن الوزير) ، وفى محافظة لقنت Benasán : Alicante (ابن حسن) ، Benamer (ابن عامر) ، Benalfaqui (ابن الفقيه) ؛ وفى الريف : Abenzuete (ابن سويد) ، Bentarique (ابن طارق) ، وفى البسيط : Abengibre (ابن جبر) ؛ وفى غرناطة Abenzaide (ابن سعيد) وقد كان بنوسعيد - الذين ينتمى إليهم ابن سعيد مؤلف كتاب «المغرب فى حلى المغرب» - هم سادة البلدة التى كانت تدعى «قلعة بنى سعيد» التابعة لغرناطة فلما استولى عليها المسيحيون احتفظت باسمها (Alcalá de Abenzaide) ثم أصبح اسمها الآن «القلعة الملكية» (Alcalá la Real) ، وفى مالقة : Bengalbón (ابن غلبون) ؛ وفى قادس Benamahoma

(ابن محمد) ؛ وفي وادي الحجارة :
 Benalaque (ابن الحكم) ؛ وفي سُرية
 Benamira : Soria (ابن عميرة) وفي
 قصرش : Benafayán (ابن حيان) ، وفي
 لاردة : Bingaña : Lérida (ابن غانية) ؛
 وفي ميورقة : Bennasar (ابن نصر) ؛
 وفي قشتاليون Benasal : Castellón
 (ابن عسال) ، وكذلك Vinaroz
 (ابن عروس) .

ومن الأسماء التي تحمل كُنى عربية :
 Abofageg (أبو حجاج) في محافظة نبرة
 Navarra ؛ و Albocabe (أبو كعب)
 في سُرية ، و Albolafia (أبو العافية)
 في قرطبة ، و Albuixech (أبو إسحاق)
 في بلنسية ؛ و Boadilla (أبو عبد الله) في
 سلمنكة Salamanca ؛ و Bobadilla
 (أبو عبد الله) في جيان .

وكثير من أسماء المواضع تحمل حتى الآن
 أسماء قبائل عربية أو بربرية أو أسر عمرت
 قرى مازالت تحمل أسماءها . ونذكر فيما يلي
 بعض هذه الأسماء :

من أسماء القبائل العربية : Alcaicia
 (القيسية) في بلنسية ؛ Almoradi

(المرادي) نسبة إلى بني مراد وهي قبيلة يمنية
 معروفة ، في لقنت ؛ و Alhendin (همدان)
 وهي إحدى كبريات القبائل اليمنية أيضا ، في
 غرناطة ؛ و Ojén (حُشَيْن) ، إحدى بطون
 قضاة ، في مالقة ؛ Alfamin ، وكذلك
 Alaminos, Alamin (الفهميين) ، نسبة
 إلى بني فهم ، إحدى قبائل قيس عيلان
 بن مضر) ، في طليطلة ووادي الحجارة .

ومن أسماء القبائل البربرية Albornoz
 في قرطبة وإشبيلية ، وكذلك Albornos
 في آبلّة Avila ، وهو بُرُنس بن بر ، جد شعب
 كبير من شعوب البربر يدعى في صيغة الجمع
 بالبرانس ، وإليه تنتمي مجموعة كبيرة من
 القبائل مثل كتامة وصنهاجة ومصمودة وأوربة
 وهوارة ؛ ومنها Azuaga في بطليوس ، وهي
 قبيلة زواغة إحدى قبائل البرانس ؛ Cehegin
 في مرسية ، وهو اختصار للفظ «الصنهاجيين» ؛
 Zaneta في قشتاليون ، و Ceneta في
 مرسية ، واللفظان مأخوذان من «زناتة» ؛
 Mequinenza في سرقسطة ، وهي مكناسة
 إحدى قبائل زناتة ؛ Mestanza في
 Ciudad Real أي المدينة الملكية ، وهي
 مسطاسة ، بطن من ازداجة إحدى قبائل
 البرانس ؛ أندارة Ondara في لقنت ،

وهي إحدى قبائل هواره : Alcalá de los Gazules وهي قلعة بنى جزولة ، وهم أيضا من البرانس ، في قادس ؛ وغمارة Gomara في سرية ، وغمارة من قبائل الريف المغربى المعروفة وهي من البرانس : Zacatena سكتان ، في المدينة الملكية ، وسكتان إحدى بطون مصمودة : Orba أوربة في لقنت ودانية Denia ، وأوربة إحدى قبائل البرانس .

وأما المواضع التى تحمل أسماء أسر عربية فهى من الكثرة بحيث تستعصى على الاستقصاء ، ومعظمها يبدأ بلفظ «بنى» ، ونذكر بهذه المناسبة أننا أحصينا بصورة مبدئية عددا من هذه الأسماء فوجدناها فى إسبانيا أكثر مما نجده فى بعض البلاد العربية ، وتوجد معظم هذه الأسماء فى منطقة شرق الأندلس : المرية ومرسية ولقنت وبلنسية وقشتليون وطركونة وجزر البليار . ونذكر من هذه الأسماء :

فى المرية Benitagla بنى تغلب ؛ فى مرسية Beniaján بنى عجّان ، فى لقنت : Benicais بنى قيس ، Beniasim بنى عاصم ، Beniali بنى على ، Benigálip

بنى غالب ، Benimaclet بنى مخلد ، Benijáfar بنى جعفر ، Benihomar بنى عمر ، Benihumeya بنى أمية ، Benifató بنى فتحون ، Benifarés بنى حارث ، Benisa بنى عيسى ، Beniomer بنى عمير ؛ وفى بلنسية Benicalaf Benicalap بنى خلف ، Benicanena بنى كنانة ، Benifayró بنى خيرون ، Benifayó بنى حيون ، Beniganim بنى غانم ، Benimuslem بنى مسلم ، Benisanó بنى سحنون ، Benisoda بنى سودة ؛ Benibrahim بنى إبراهيم ، Benifaraig بنى فرج ، Beniflá بنى فلاح ، Benimámet بنى محمد ، Beniopa بنى أبا (واسم أبا ليس عربيا وإنما هو حفيد لأمير قوطى كان من بين كبار الفقهاء المسلمين) ، Benioquer بنى عقيل ؛ وفى قشتليون Benicásim بنى قاسم ، Benigasló بنى غزلون ، Benifazá بنى حسن ؛ وفى طركونة Benifallet : Tarragona بنى خالد ؛ وفى جزيرة ميورقة Benifaldó بنى خلدون ، Beniali بنى على ، Benisalem

بنى سالم أو سلّام ، Beniamar بنى عمار
أو بنى أحمر ؛ وفى جزيرة منورقة Benillant
Menorca : بنى لمت ، وهى قبيلة بربرية وهم
إخوة صنهاجة .

وهناك مجموعة من أسماء الأسر تنتهى
بلاحقة جمع المذكر السالم (بن) ، رأينا بعضها
فيما سبق مثل Alfamin أى الفهميين ،
ومنها أيضا Zaidin (الزيديين) فى سرقسطة
، و Alfagarin (الحجّارين) فى سرقسطة
أيضا ، و Celemin (السليميين) فى قادس
، ولا بد أن هؤلاء ينتمون إلى أسرة بنى السليم
وكان منهم عديد من الوزراء ورجال الدولة فى
قرطبة على عهد بنى أمية ، وإليهم تنسب
«مدينة ابن السليم» على مقربة من قادس ،
وهى التى تدعى الآن Grazalema ويلاحظ
فى هذه الأسماء اختفاء ياء النسب تخفيفا
للنطق ، وذلك أسوة بما حدث فى النسبة إلى
بعض الأسماء فى المشرق ، مثل اليمانيين
والأشعرين .

القلع والحصون :

لعلنا غير مبالغين إذا قلنا إننا لا نكاد نجد
قطرا فى أوربا حفل بالقلع والحصون مثل

قطرى شبه جزيرة إيبريا أى إسبانيا والبرتغال ،
ومن اليسير تعليل هذه الظاهرة ، فقد كانت
هذه الأرض مسرحا لصراع لم ينقطع بين
المسلمين وجيرانهم من الإمارات والممالك
المسيحية على مدى ثمانية قرون ، وقد اقتضى
ذلك من الجانبين إقامة منظومات من القلاع
على طول الحدود التى كانت دائما فى حركة
لاتنقطع بحسب قوة كل طرف من أطراف
الصراع أو ضعفه . وأعانت طبيعة البلاد
وتضاريسها الجبلية الوعرة على إنشاء ذلك
العدد الهائل من الحصون ، إذ كان ما يبنى
منها فى موقع بالغ الارتفاع يتحول إلى قلعة
منيعه يمكن أن تقاوم الحصار شهورا بل سنوات .

وقد برع مسلمو الأندلس فى بناء الحصون
واختيار المواقع الملائمة لتشبيدها على طول
خطوطهم الدفاعية ، ولهذا فقد بقيت هذه
المواقع حتى اليوم شاهدة بأسمائها على أصولها
العربية . وتنوعت مفردات المعجم الدال عليها
ما بين القلعة والحصن والقصبة والمدينة
(بالتصغير) والبرج والصور والمحرس . بل إننا
نجد لفظا كالقصر لا يعنى مجرد المنزل الفخم
الجدير بسكنى الأمراء وعلية القوم كما يتبادر
إلى الذهن ، بل هو فى أغلب الأحوال أشبه

بقلعة حصينة ، فهو أقرب إلى العمارة الحربية منه إلى العمارة المدنية المعتادة .

ويعد لفظ «القلعة» أكثر الألفاظ شيوعاً في هذا الضرب من ضروب العمارة وقد دخل إلى اللغة الإسبانية في صورة Alcalá ، وهو شائع شيوعاً مفرطاً في معظم محافظات إسبانيا : في إشبيلية وجيان وتيروال وسرقسطة وكونكة والبسيط وقادس وقشتليون ووشقة ومجريط . وفي هذه المدينة الأخيرة (مدريد) يطلق هذا الاسم على أحد شوارعها الرئيسية لأنه كان يمتد من القصر الملكي - وكان على عهد المسلمين هو قصر الحاكم العربى وأكثر مواقع المدينة حصانة - إلى آخر أطراف المدينة . بل إننا نجد هذه القلاع قد تحولت إلى مدن عامرة مازالت تحمل اسمها العربى . نذكر منها على سبيل المثال Alcalá de Henares على بعد ثلاثين كيلومتراً من مدريد ، وكانت على عهد المسلمين تدعى «قلعة عبد السلام» . كذلك نجد مواضع تحمل مشتقات من لفظ «القلعة» مثل «القليعة» Alcolea - بالتصغير - في عديد من المحافظات : في قرطبة والمرية ووادى الحجاره ولقنت ولاردة .

وقد نجد اللفظ في صيغة التثنية Alcalatén في قشتليون .

ويستخدم لفظ «القصر» Alcázar مرادفاً للقلعة في عدد كبير من المدن : في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وكونكة وشقوية وأورنسى ، وجدير بالذكر أن المدينتين الأخيرتين لم تخضعا أبداً لحكم المسلمين ويستخدم اللفظ مصغراً في صورة Alcocer في لقنت ووادى الحجاره وبلنسية وبصيغة التثنية Alcazarén في سلمنكة وبلد وليد ، وهما بلدان لم يخضعا لسلطان المسلمين . أما القصبه Alcazaba فنجدته في غرناطة ومالقة والمرية وبطليوس .

ويستخدم لفظ «قلعة» مضافاً إلى اسم أو لفظ آخر ، كما رأينا في اسمى قلعة أيوب Calatayud وقلعة رباح Calatrava ، وكذلك في Calataraje قلعة الأعرج في مالقة و Calaceite قلعة زيد في تيروال ، و Calatorao قلعة التراب في سرقسطة ، و Calatañazor قلعة النور ، وهو الموقع الذى تزعم المدونات المسيحية أنه دارت فيه معركة هزم فيها المنصور بن أبى عامر ، ولو أن ذلك لم يثبت تاريخياً .

ويشيع لفظ «الحصن» ومشتقاته في عدد آخر من المواضع نذكر منها Alisne

Iznajar حصن آشور فى قرطبة ،
 و Iznalloz حصن اللوز فى غرناطة ،
 و Iznatoraf حصن التراب فى جيان .
 ويظهر أن أهل إشبيلية كانوا ينطقون لفظ
 الحصن بفتح الحاء ، يدل على ذلك بلدان تابعان
 لإشبيلية ، يدعى أولهما Aznalcázar حصن
 القصر ، والآخر Aznalfarache حصن الفرج .
 ويرد الاسم مصغرا فى صورة الحُصَيْن
 Aljocén فى قبادس وبطليوس ،
 و Alocén فى وادى الحجارة ، والحصينة
 Alozaina فى مالقة . وفى المدينة الملكية
 نلتقى بحصن ينسب كما يبدو إلى «هارون»
 Aznarón . ومن مشتقات هذا اللفظ
 المحصن Almazán الذى يطلق على بلدة
 تابعة لسُرّة .

ومن الألفاظ الأخرى التى تتضمن معنى
 المناعة «المحرس» Almaraz أى الموضع الذى
 يعهد للقائمين عليه بحراسة الثغر ، وهو يطلق
 على عدة مواقع فى قصرش ، وبلد وليد ،
 وسمورة . والبلدان الأخيران لم يخضعا لسلطان
 المسلمين .

ومن الألفاظ المرادفة للقلعة المُدِينَة
 Almudaina ، وهو تصغير غير قياسى
 للفظ المدينة ، وقد استخدم فى لقنت وفى

جزيرة ميورقة ، واستعمل فى صيغته الدارجة
 بإمالة كسرة الدال Almudena مرادفا للفظ
 القصبة فى مجريط .

وقد يكون الحصن منسوبا إلى بانيه كما
 نرى فى لفظ الـ Aljaferia الجعفرية فى
 سرقسطة ، وهو القصر الحصين المنسوب لأبى
 جعفر المقتدر بن هود أحد ملوك الطوائف من
 بنى هود الجذاميين فى القرن الخامس الهجرى ،
 وهو لا يزال محتفظا بكثير من معالم عمارته
 الرائعة . وأحيانا يكتفى بنسبة الحصن إلى
 الأسرة أو القبيلة التى ينتمى إليها بناته مثل
 حصن « Canena » فى جيّان ، وهو اسم
 قبيلة كنانة .

وقد يكون الاسم وصفا لهيئته مثل لفظ
 «المُدَوَّر» الذى أطلق على العديد من الحصون
 فى مناطق مختلفة ، وإن اختلف هجاء اللفظ
 باختلاف لهجات المناطق ، فهو فى قرطبة
 وكونكة والمدينة الملكية Almodóvar ، وفى
 وشقة Almudévar ، أو يكون فى الاسم
 إحياء بالتفاؤل مثل «المُظْفَر» ، وهو مانراه
 فى الحصن المسمى Almudáfar فى وشقة ،
 و Almudéfar فى طركونة .

ويرتبط بمهام الدفاع بناء الأبراج ، وكانت
تبنى فى مواقع متقدمة من الحدود ، ووظيفتها
المراقبة وإنذار الخطوط الخلفية بأى بادرة لهجوم
العدو . ولاتكاد تخلو منطقة فى إسبانيا من
برج يحتفظ باسمه العربى أو مترجم إلى
الإسبانية فى صيغة torre . ومن أجمل نماذج
هذه الأبراج العربية التى مازالت محتفظة
بعمارتها القديمة «برج الذهب» المطل على
الوادي الكبير فى إشبيلية ، وقد أنشأه عامل
المدينة إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن
فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) ، وهو يدعى الآن
La Torre del Oro ترجمة عن اسمه
العربى .

واحتفظت بعض المواضع باسم «برج»
العربى ، منها Borge فى مالقة ، و Burch
فى لاردة ، و Alborge فى سرقسطة ، وفى
صيغة التصغير «البريجة» نجد Alboreya
فى بلنسية و Alborayet فى ميورقة
و Alborache فى بلنسية و Alborax
فى البسيط . ونجد اللفظ فى صيغة الجمع
مُعَرَفاً : Alborox فى طليطلة . وقد يأتى
لفظ البرج مضافاً كما نرى فى Borjabad
(برج عباد) فى سُرْبَة ، و Bujalaró (برج

هارون) فى وادى الحجارة ، و Bujaraloz
(برج العروس) فى سرقسطة ، و Bujalance
(برج الحنش) فى قرطبة ، و Bujarrabal
(برج الرض) فى وادى الحجارة ، و Bujasot
(برج السد ، والسُّد بضم السين مثل السُّد
بفتحها أى خزان المياه) . وكانت الأبراج التى
تبنى خارج أسوار المدينة تسمى «البرانية»
Torres Albarranas ، وقد شاعت هذه
التسمية خاصة فى غرب الأندلس ومن أمثلتها
ما نجده فى قصرش وبطليوس .

وكانت الأبراج أو القلاع التى تبنى على
الخطوط الدفاعية المتقدمة تدعى «الطلائع»
Atalayas ، ولاتكاد تخلو محافظة فى
إسبانيا من مواضع تحمل هذا الاسم . ويصور
الطابع الحربى لهذه المنشآت أن بعضها سُمي
«العسكر» مثل البلدة التى لاتزال تحمل هذا
الاسم Alasquer فى بلنسية ، وقد انتقلت
إحدى مشتقات هذا الاسم إلى إسبانيا
المسيحية ، إذ نجد فى محافظة ليون بلدة تدعى
Almázcara (المعسكرة) . والطريف أن
الجغرافى الإدريسى يذكر أن هذا الاسم نفسه
يطلق على بلدة فى المغرب الأوسط بين تنس

وتلمسان ، وهى قائمة حتى الآن باسمها محرفا إلى «مسكرة» .

وكان لكثير من هذه المنشآت طابع خاص هو مزيج من الصيغتين العسكرية والدينية ، إذ كان يقيم فيها عدد من المتطوعين الزهاد أو المتصوفة برسم الجهاد ، وكانت تدعى الروابط (جمع رابطة) . وفى المصادر الأندلسية كثير من أخبار هذه الروابط وأخبار المجاهدين فيها وماكانوا يضطلعون به من حسن البلاء فى الدفاع عن الثغور الإسلامية ومعاونة الجيوش النظامية ، وكانت حياة هؤلاء مزيجا من التعب وعمارة الأرض المحيطة بحصونهم والمساهمة الفعالة فى المعارك . وكانت مجريط (مدريد) من أهم تلك المراكز الدفاعية التى يتردد عليها المتطوعون المحتسبون من سائر أنحاء الأندلس بل ومن المغرب العربى أيضا ، وقد أشرنا فى كتابنا عن «مدريد العربية» إلى اثنين من فضلاء المغاربة وفدا عليها خلال القرن الرابع الهجرى برسم الرباط هما جساس الزاهد السجلماسى (من سجلماسة فى أقصى جنوب المغرب) وأبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسى الذى توفى بعد ذلك فى بلدة فاس سنة ٣٥٧ (٩٦٧) وما زال

ضريحه فى «باب الجديد» بفاس من المزارات المشهورة (٢٤) .

وانتشرت تلك الروابط فى كل أنحاء إسبانيا وعرفت باسمها العربى فى صور متعددة : Rábida فى ولبة وسلمنكة ، Rávita فى غرناطة وجيان ومالقة ، Rápita فى لاردة وطركونة . وقد كان لفظ الرباط ومشتقاته والأعلام الجغرافية المرتبطة به موضوعا أفردته بالدراسة فى كتاب كامل المستشرق الإشبانى خايمى أوليفر أسين (٢٥) .

الجبال والمرتفعات والكهوف :

لم يترك المسلمون موقعا فيما عمروه من شبه الجزيرة إلا مهرؤه بتوقيعهم متمثلا فى اسم عربى لا يزال علما عليه حتى اليوم . حتى المرتفعات والمواقع الجبلية الوعرة حمل كثير منها تلك الأسماء . ونذكر فيما يلى أمثلة عليها :

من الطبيعى أن تكثر هذه الأسماء فى المناطق الجنوبية والشرقية من شبه الجزيرة حيث كان للمسلمين وجود أطول أمدا ، ومع ذلك فلم تخل المناطق الواقعة فى أقصى الشمال من تلك الأسماء العربية ، بل نراها حتى فى مواضع لم يقدر فيها للمسلمين وجود فعلى . وقد رأينا

من قبل كيف أطلق المسلمون اسم «جبل الثلج» على سلسلة الجبال الممتدة إلى جنوبي غرناطة بينها وبين المرية ، وهو الاسم الذي ترجم إلى الإسبانية في صورة Sierra Nevada . وأعلى قمة في هذه السلسلة هو الذي يدعى «مولاي الحسن» (Mulacén) وهو اسم مركب مختصر من «مولاي أبي الحسن» ، وأبو الحسن هي كنية أحد سلاطين غرناطة من بني الأحمر في آخر عهدها الإسلامي ، وهو على بن سعد الملقب بالغالب بالله . وبلغ ارتفاع هذا الجبل ٣٤٨١ متراً ، وهو أعلى قمة في جبال شبه الجزيرة كلها .

وهناك العديد من الجبال يتألف كل منها من لفظ جبل منسوباً أو مضافاً إلى لفظ آخر ، منها جبل طارق Gibraltar ، وجبل العيون Gibrleón في ولبة ، وجبل فاروق (Gibralfaro) في مالقة وجبل الكحل (Jabalcol) الممتد بين غرناطة وبسطة (Baza) ، وجبل كنثة Jabalquinto في جيان (وهو اسم مُهَجَّن من لفظ جبل العربي ولفظ Quinto اللاتيني الأصل ويعنى الخامس) ، وجبل عمرو Jabalambre في تيروال وجبلي بياء النسبة Jabali . وفي

مالقة عدد من سلاسل الجبال تحمل إحداها اسم «الحامة Alhama» ، وأخرى اسم عبد العزيز Abdalajis ، وثالثة ممتدة بين مالقة وغرناطة تدعى Almijsara ومن الواضح من بنية الاسم أنه عربي ولو أننا لم نهتد إلى أصله . وفي المرية جبل يدعى ميمون Maimón ، وآخر يدعى Almagro وهو مأخوذ من اللفظ العربي المغرة الذي يعنى الطين الأحمر ، إشارة إلى لونه . وإلى غربي إشبيلية سلسلة تمتد منها إلى ولبة تدعى الشرف Aljarafe ، ويصفها ابن عبد المنعم الحميري بأنها على مسافة أربعين ميلاً كلها في ظل شجر الزيتون (٢٦) . وفي قádiz عدة سلاسل منها جبال جزولة (قبيلة بربرية) Los Gazules وطاحونة Tahona والمنارة Almenara ومدينة ابن السليم Grazalema . وفي مرسية جبل عربي Arabi وجبل طيبة Taibilla وسلسلة جبال Mazarrón ويلوح أنه اسم عربي وإن لم نتحقق من أصله . وبين البسيط وبلنسية جبل يدعى المنصف Almansa (وهو يعنى على حد قول ياقوت وسط الطريق وبه سمي أحد المواضع في الجزيرة العربية) (٢٧) وباسم هذا

الجبل دعيت إحدى قرى البسيط . وفى جنوبى المدينة الملكية تمتد سلسلتا جبال المعدن Almadén (وسميت بذلك لما فيها من مناجم) والكدية Alcudia أى الربوة . وفى تيروال تقوم جبال «بنى رزين» وتقع على سفوحها المدينة التى تحمل نفس الاسم Albarracin وكانت عاصمة مملكة صغيرة من ممالك الطوائف تدعى سهلة بنى رزين وهى منسوبة إلى أسرة بربرية الأصل من قبيلة هواره . وفى أقصى الشمال تنحدر عدة سلاسل من جبال البرتات (البيرينيه) منها جبال القاضى Sierra del Cadi ما بين لاردة وجرنده . وفى محافظة قصرناش تقوم سلسلة جبال وادى لب Guadalupe التى يتسنىها جبل شاهق الارتفاع (١٥٥٨ مترا) يدعى «رأس العربى Cabeza del Moro» . ولم يكن أصل هذه السلسلة معروفا حتى كشف لى نص قمت بنشره للمؤرخ القرطبى ابن حيان أن هذه الجبال منسوبة فى الحقيقة لأحد الشوار على إمارة بنى أمية فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) ويدعى على بن لب (٢٨) . ويقرب مدينة آبله فى الهضبة الوسطى - وآبله مدينة لم تخضع للمسلمين إلا على نحو عابر - جبل شاهق يدعى المنصور

Almanzor . ولا شك فى أن السبب فى تسمية هذا الجبل باسم المنصور بن أبى عامر أكثر حكام المسلمين حملات على إسبانيا المسيحية هو ما علق بأذهان المنطقة من ذكريات الغزوة الهائلة التى دمر فيها المنصور مدينة آبله فى سنة ٣٨٤ (٩٩٤) (٢٩) .

ويكثر فى جغرافية إسبانيا استخدام لفظ الكدية Alcudia فى صيغته العربية وهو يعنى الأرض الغليظة المرتفعة ، فهناك أكثر من عشرة مواضع تحمل هذا الاسم وكثير منها يطلق على مدن واقعة على مرتفعات عالية .

وكثير من أسماء الجبال العربية هو فى الأصل وصف لهيئة هذه المعالم أو لونها أو سماتها المميزة ، مثل الخابية Alfabia وهى سلسلة جبال تقع شمالى مدينة بلمة عاصمة جزيرة ميورقة Palma de Mallorca وهى تخترق الجزيرة من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى . والخابية هى الجرة الضخمة ، فلعلهم شبهوا بها تلك الجبال . والفخار Alfacar اسم جبال وإقليم وقربة تقع إلى شرقى مدينة غرناطة ، ويرجع أصل التسمية إلى تميزها بنوع من الطفل تصنع منه الأواني الفخارية . وقريبا من تيروال يقوم جبل يدعى الحمراء Alfambra وذلك لأنه من مادة طفلية حمراء .

ومدينة مجريط (مدريد) تقع على السفح الجنوبي لسلسلة الجبال المعروفة باسم وادى الرمل Sierra de Guadarrama ، وكان هذا الاسم يطلق أيضا على نهير متفرع من نهر تاجه ، وكان هناك من يخلط بينه وبين النهر الصغير الذى يخترق مجريط والذى يدعى الآن «نهر التفاح» Rio Manzanares ، وظل هذا الخلط حتى القرن السادس عشر ، ولكن الثابت أنه نهير آخر ينبع من سلسلة الجبال المذكورة . والتسمية قديمة إذ إننا نرى الاسم مذكورا بمناسبة بعض الأحداث الواقعة فى عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر ولاية الأندلس فى عهد الخلافة الأموية فى المشرق ، فى نحو سنة ١٣٢ (٧٥٠). (٣٠) وقد كان الاسم فى لغة أهل الأندلس الدارجة بفتح الميم ، وهو مابقى فى النطق الإشباني الحالى بعد حذف اللام الأخيرة .

وهناك عدد من الألفاظ التى تتعلق دلالتها بالجبال بقيت أعلاما على عدد من المواضع مثل الغار Algar وهو شائع فى أنحاء كثيرة : فى قادس ولقنت ووادى الحجارة وميورقة وبلنسية . ونجد اللفظ مؤنثا (Algara) فى أبيت Oviedo فى أقصى الشمال .

ويوجد اللفظ فى صيغة «الغورة» Algora فى وادى الحجارة ، وفى صيغة التصغير «الغُورُ» Alguaire فى لاردة .

واستخدم لفظ «العقاب» بمعنى التلال أو المرتفعات ، وهو جمع عَقَبَة . ولكنه لم يدخل إلى اللغة الإسبانية إلا مترجما فى صورة Navas ، وأشهر المواضع حاملة هذا الاسم Las Navas de Tolosa الذى دارت فيه المعركة الهائلة «العقاب» سنة ٦٠٩ (١٢١٢) والذى انهزمت فيه جيوش الخليفة الموحدى محمد الناصر أمام ائتلاف مسيحي ، وأدت هذه الهزيمة إلى سقوط معظم الحواضر الأندلسية .

الانهار والعيون والآبار :

الذى يطالع المصادر العربية التى تصف الأندلس يتصور أن هذه البلاد كانت جنة الله فى أرضه ، إذ يكثر فى هذه الأوصاف الحديث عن السهول الخضراء والمزارع الخصيبة والحدائق الغناء ، وما يتردد فى أشعار الأندلسيين من التمدح بما تميزت به بلادهم من طبيعة ساحرة ، مثلما نجد فى قول ابن خفاجة الشُّقْرى :

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظل وأشجار وأنهار

ما جنة الخلد إلا فى بلادكم

وهـذه كنت لو خُـيرت أختار

لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً

فليس تدخل بعد الجنة النار (٣١)

غير أن الحقيقة الجغرافية تسجل غير ذلك ،
فشبه جزيرة إيبيريا إذا قورنت بغيرها من البلاد
الأوربية هى أكثر أقطار القارة جفافا وأقلها
مياها وأحفلها بالصحارى القاحلة والأراضى
المجدبة . ومع ذلك فإن أبيات ابن خفاجة وغيره
من واصفى الأندلس لم تصدر عن فراغ ، بل
كانت تصورا صادقا معبرا عن حقيقة
حضارية ، وهى أن هذه الطبيعة التى كانت
مشاهدها تبهر الأبصار ، ومجاليتها تفعم
الأنوف بطيب نفحاتها إنما هى ثمرة لجهد بشرى
كبير قام به الأندلسيون فى تعهد أرضها وحسن
استخدام مواردها المائية بأقصى قدرة يمكن أن
تتفتق عنها عبقرية الإنسان .

وقد وهب الله شبه الجزيرة خمسة أنهار
كبيرة واحد منها يصب فى البحر المتوسط وهو
نهر إبرة وأربعة فى المحيط الأطلسى هى دويره
وتاجه ووادى آنة والوادى الكبير . غير أن هذه
الأنهار قليلة المياه بسبب قلة المطر وتبخر نسبة

كبيرة منها خلال فصل الصيف الطويل . ولهذا
فيعتمد جزء كبير من شبة الجزيرة على المطر
فى الزراعة .

وكان المسلمون خلال القرون الأربعة الأولى
من تاريخ الأندلس يملكون مسعظم أحواض
الأنهار الخمسة ، وما بين أواخر القرن الخامس
الهجرى وأوائل السادس فقدوا ماكانوا يملكونه
من أحواض الأنهار الثلاثة الأولى : إبرة ودويره
وتاجه وحتى منتصف القرن السابع فقدوا أيضا
ماكان لهم فى حوضى النهرين الأخيرين .
وبدلنا هذا على أن نصيب المسلمين من مياه
الأنهار الكبرى كان قليلا ، غير أنهم عرفوا
كيف يعتصرون من هذه المياه كل ماتحتوى عليه
من طاقة ، كذلك ألجأتهم الحاجة إلى البحث
عن موارد مائية فى باطن الأرض ، فكانت
لديهم قدرة هائلة على استنباط المياه الجوفية
والانتفاع منها إلى أقصى حد ، وهكذا
استطاعوا أن يحولوا مالمديهم من أرض قليلة
العطاء بطبيعتها إلى حقول عامرة ورياض
تشفجر بالخير ، وتموج بالزروع والغراسات
والثمار .

ولعل أوضح دليل على ذلك أن كثيرا من
الألفاظ المتعلقة بالمياه وبطرق استنباطها

واستخدامها من رى وشق قنوات وإنشاء سدود ومستودعات - كل ذلك مما أصبح من ذخيرة اللغة الإسبانية إنما هو من أصول عربية . وبقي عدد كبير من هذه الألفاظ يطلق على مواضع كثيرة فى البلاد .

وكما فعل العرب بالنسبة لأسماء المدن الكبيرة المنشأة من قبل ، فإنهم تركوا الأنهار الثلاثة الكبرى الأولى بأسمائها الإيبيرية أو الرومانية القديمة : الإبره والدويره والتاجه . أما النهران الباقيان فقد لحق اسميهما بعض التغيير ، فنهر آنه (الذى كان اسمه اللاتينى Ana Fluvium) احتفظ بالجزء الثانى من اسمه ولكن الجزء الأول استبدل به لفظ «وادی» ، والوادی فى اصطلاح الأندلسيين يطلق فى الغالب على النهر ، فأصبح وادی آنه ، وانتقل بهذه الصيغة المزدوجة إلى اللغة الإسبانية فى صورة Guadiana . وأما النهر الخامس الذى يجرى فى أقصى الجنوب فقد كان اسمه Baetis وعرفه العرب باسم بيطى ، ولكنهم اتخذوا بعد ذلك له اسما عربيا خالصا هو «الوادی الكبير» وورث الإسبان عنهم هذا الاسم إذ يدعى الآن Guadalquivir .

«الوادی» فى جغرافية إسبانيا :

رأينا لفظ الوادی ماثلا فى اسمى اثنين من كبار أنهار إسبانيا مما بقى من التراث الأندلسى . على أن هذا اللفظ قد دخل أيضا فى عدد هائل من المعالم الجغرافية الإسبانية كثير منها أنهار صغرى أو نهيرات وإن كان بعضها مدنا وقرى تقع على ضفاف تلك المجارى المائية . وقد اهتم بتتبع لفظ «الوادی» على الجغرافية الإسبانية العالم البحاثه إلياس تيريس فى دراسة قيمة (٣٢) . فأحصى من هذه الأسماء أربعمئة وأربعة وستين اسما نصفها يبدأ باسم «وادی» العربى . ولا يتسع المجال هنا للحديث عن هذه الأسماء ودلالاتها ، وإنما يكفى أن نعرض بعضها مضافا إلى ألفاظ ذات دلالات مختلفة بعضها نسبة إلى اسم علم أو طائفة أو مهنة ، وبعضها صفات لما يتميز به الموضع من لون بعينه أو بما يكثر حوله من نبات أو حيوان . فمن هذه الأسماء :

- وادی سلیط Guadacelete واسمه الحالى Guazalet وهو يقع على مقربة من طليطلة إلى جنوبها الغربى ، علما على نهير متفرع من نهر تاجه El Tajo وعلى ضفاف هذا النهر ، وقد كان مسرحا لأحداث حربية

مذكورة فى المصادر الأندلسية ، منها معركة وقعت فى منتصف القرن الثانى الهجرى بين العرب بقيادة الوالى عبد الملك بن قطن والبربر ، وفى عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن وبين أهل طليطلة الشائرين على سلطة الإمارة فى سنة ٨٥٤/٢٤٠ ويبدو أن لفظ سليط الذى ينسب إليه هذا الوادى اسم علم (٣٣) . وللعالم الشاعر الأندلسى المشهور عباس بن فرناس - صاحب محاولة الطيران المعروفة - قصيدة فى تهنئة الأمير محمد بانتصاره فى هذه المعركة وفيها يصف الموقع بأنه وادٍ يحف به جبلان عاليان :

بكى جبلا وادى سليطٍ فأعـولا

على النفر العُبدانِ والعصبة الغلف (٣٤)

- وادى لبـ Guadalupe ، وهو يطلق على عدة مواضع ، فى قصرش وبطليوس وطليطلة والمرية ، ولكن أشهر هذه المواضع هو الأول الذى تحمله بلدة على مقربة من لقرشان Logrosán فى محافظة قصرش Cáceres ، وفيه مشهد كبير يتعبد له كثير من أهل إسبانيا وينسب إلى من يسمونها «عذراء وادى لب» وقد انتقل التعبد لها إلى

أمريكا ، فأصبح أهل المكسيك يعدونها راعية لبلادهم . وقد كان العلماء الذين درسوا هذا الاسم مثل البرتغالى دافيد لوس والألماني تسايبولد والإسباني أسين بلاثيوس يعتقدون أن لفظ لب الذى أضيف إلى الوادى يعنى «الذئب الإسباني» lobo (من اللاتينية lupus) ، وقد كان الأندلسيون المسلمون يعرفون هذا الحيوان باسمه الإسباني «لب» وتسمى به كثير منهم ، غير أن نص «المقتبس» لابن حيان الذى قمنا بتحقيقه دلنا على أن هذا الموضع يدين باسمه لشخصية أحد الشوار ويدعى على بن لبّ كان فى غرب الأندلس حليفاً لابن مروان الجليقى زعيم مولدى الغرب فى أيام الأمير محمد ومنتشئ مدينة بطليوس ، وذلك خلال السنوات المنحصرة بين ٢٦١ و ٢٧٦ (٨٧٥ - ٨٩٠) .

- وادى سلمة Guatizalema ، اسم نهر صغير ينبع فى إقليم وشقة Huesca ويتجه جنوبا حتى يصب فى نهر Alcanadre (وهو نهر آخر يحمل اسما عربيا : القناطر) من فروع نهر إبره ، وهو منسوب إلى أسرة كانت تحكم مدينة وشقة وهم بنو سلمة الذين ينتمون

إلى قبيلة تجيب العربية ، وكانوا قد نزلوا هذه المنطقة من أقصى شمال إسبانيا في السنوات الأولى للفتح العربى (٣٦) .

- وادى الكلبين Guadacabrillas ، وقد اختصر الاسم مؤخرا إلى Cabrilla ، وهو نهير يصب فى الوادى الكبير على مقربة من بلدة تحمل أيضا اسما عربيا هى المدور Almodóvar del Rio ، ويجوار هذا النهر دارت معركة ضارية انتصر فيها عبدالرحمن الداخل «صقر قريش» على الشوار عليه من اليمنية ، وإلى هذه القبائل القحطانية ينتمى الكلبيون الذين حمل ذلك الوادى اسمهم ، فبنو كلب بن وبرة هم أحد بطون قبيلة قضاة . وإليهم تنتسب أسرة بنى أبى عبدة الذين منحوا دولة بنى أمية عددا من أكفأ الوزراء والقواد ، ومنهم كان بنو جهور أصحاب قرطبة فى عهد ملوك الطوائف (٣٧) .

- وادى البربر Guadalbarbo ، نهير ينبع شمالى قرطبة ثم يلتقى بنهر كزنة Rio Cuzna ، وهناك نهير آخر بنفس الاسم يصب فى الوادى الكبير بالقرب من قرية تدعى القليعة Alcolea ، ويبدو أنه هو الموضع الذى ذكره ابن حيان فى معرض حديثه فى أخبار سنة

٣١٧ (٩٣٠) من استجلاب الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر لفصائل من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، وقد جلب هؤلاء معهم جرائد من عتاق الخيل قاموا باستنتاجها فى وادى البربر المذكور (٣٨) .

- وادى النساء Guadalmesi ، نهير ينبع من جبال الجزيرة الخضراء فى محافظة قادس ويخترق إقليم طريف ويصب فى مضيق جبل طارق . ولم تفدنا المصادر بسبب هذه التسمية إلا أنها تسجل مواضع بالاسم نفسه فى المشرق (خراسان) وفى الشمال الإفريقى (الجزائر) (٣٩) .

- وادى القُـزازين Guadalcacin أو Guadalcazacin نهير يجرى فى إقليم أركش Arcos de la Frontera ، ويصب فى نهـر وادى لكـه Guadalete ، وهو يدعى أيضا باسم آخر من أصل عربى : مرج الزيت Majaceite ، ويبدو أن نسبته إلى القزازين ترجع إلى كثرة من كانوا يزاولون فى حوضه تربية دودة القز أى الحرير (٤٠) .

- وادى السباع Guadacebas ، نهير يجرى فى محافظة جيان ، ويصب فى الوادى

الكبير على مقربة من حصن التراب -Izna toraf . وقد جرى الأندلسيون على أن يطلقوا لفظ السباع على الذئب (٤١) .

- وادى الرمك Guadarranque ، نهر يجرى فى محافظة قادس ومنبعه فى جبال شمالة Jimena ويصب فى خليج الجزيرة الخضراء ، ويسميه الحميرى «وادى البحر» ، أما اسمه الأول فهو منسوب إلى الرمك ، جمع رمكة (بفتح الميم) ومعناها الفرس ، غير أن الأندلسيين فى لغتهم الدارجة كانوا يسكنون الميم فى صيغة الجمع ، ويبدو أن هذا الموضع كان صالحا لاستنتاج الأفراس الفارهة (٤٢) .

- وادى الرمان Guadarromán ، نهر ينبع على مقربة من مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر خارج قرطبة ، ويصب فى الوادى الكبير . ويذكر ابن حيان أنه كانت فى هذا الموضع «منية» (يعنى قصرا ريفيا تحفه الحدائق) بناها الفصحى دُرّى وأهداها للحكم المستنصر . ونحن نجد الاسم مختصرا فى صيغة Guarromán علما على بلدة فى منطقة لاكارولينا فى محافظة جيان . وواضح أن فى الاسمين إشارة إلى شجر الرمان الذى عنى به الأندلسيون (٤٣) . وبهذه المناسبة يذكر

أن عبد الرحمن الداخل حينما بنى منية الرصافة فى شمالى قرطبة جلب طرائف من الرصافة المنسوبة إلى جده هشام فى أرض الجزيرة بالمشرق ، ومن هذه الطرائف رمان فاخر لذيد الطعم ، وكان من جلسائه رجل من أهل الأردن هو سفر بن عبيد الكلاعى ، فأخذ من هذا الرمان شيئا عالج غرسه وتنقيله فى موضع سكناه بقربة من قرى مالقه ، حتى أثمر وأينع وأغرب فى الجودة ، ثم انتشر هذا النوع ، واستوسع الناس فى غراسه ، ولزمته النسبة إلى مستنبطه فأصبح يدعى «الرمان السُقرى» ومازال حتى الآن يدعى فى الإسبانية بنفس اسمه العربى فى صيغة Zafari ، كما ينسب إلى سفر هذا نوع من التين الملقى الذى يضرب بجودته المثل (٤٤) .

- وادى المنصور Guadalmanzor أو المنصورة Almanzora ، نهر يجرى فى محافظة المربة وتقع على ضفته بلدتا برشانة Purchena وبيرة Vera على مقربة من مصبه فى البحر المتوسط . واسما المنصور والمنصورة شائعان فى جغرافية الأندلس علمين على عديد من المواضع ، وإطلاقه ضرب من التفاؤل بالنصر (٤٥) .

ومن أول هذه الألفاظ «العين» الذي تحمله مواضع كثيرة ، منها Ahin فى قشتاليون ، وهى قرية تدين باسمها لعين ذات ماء غزير تروى به المنطقة كلها وتدير خمسة أرحاء لطحن القمح^(٤٩) . وهناك قرية فى طليطلة تحمل هذا الاسم فى صيغة Ain على مقربة من ضفة نهر تاجه ، وقرية أخرى فى «البسيط» باسم Ayna^(٥٠) وقد يأتى اسم العين مضافا كما نرى فى «عين الدمع» فى غرناطة ، ويقول عنه الشقندى فى رسالته فى فضل الأندلس إنه «من عجيب مواضعها ... وهو جبل فيه الرياضات والبساتين^(٥١) ، وقد بقى اسمه حتى الآن فى صورة Ainadamar ، ومن الذكريات الحزينة المرتبطة به أنه هو الذى نفذ فيه حكم الإعدام على الشاعر الغرناطى المشهور فيذيريكو غرسية لوركا . وقد يرد اسم العين لا بلفظها وإنما بصفة من صفاتها ، فى مالقة قرية تدعى Cútar ، وفى غرناطة Alcútar وهو لفظ «الكوثر» تمدحا بعذوبة مائها . وقد يستخدم اللفظ فى صيغة الجمع ، كما نرى فى قرية بطليطلة تدعى «العيون» Aloyon ، وفى جبل من جبال ولبة يدعى «جبل العيون» Gibrleón .

ومن الألفاظ المتعلقة بالماء «الساقية» Acequia ، وهو يعنى القناة وبه تسمى قرية فى غرناطة و «القناة» Alcaná ، وبه تسمى قرية فى جزيرة ميورقة ، و Alcanar فى طركونة . وكذلك «البركة» Alberca ، وهو علم على العسديد من المواضع : فى لقنت ومرسية وكونكة وآبله وسلمنكة .

وكان الأندلسيون يستخدمون فى الرى «الناعورة» وهى التى تقابل مايعرف فى مصر بالساقية ، سميت بذلك لما تحدثه من صوت ، وقد دخل هذا اللفظ إلى الإسبانية فى صورة Anoria وبه تسمى قريتان فى المربة والبسيط ، وفى قرطبة Añora ، و Nora فى قرى عديدة بالمربة و غرناطة و Nora فى قصرش ولاردة وليون وأبيط ، و Ñora فى غرناطة ومرسية .

ومن هذه الألفاظ السانية ، ومعناه فى اللغة الدابة التى تحمل الماء ، ولكن الأندلسيين استخدموه بمعنى الناعورة ، وقد أصبح علما جغرافيا على كثير من قرى إسبانيا فى صور متعددة : Sinia, Senia, Azaña, Aceña

وبرع الأندلسيون فى استنباط المياه من الآبار ، ومن هنا بقى لفظا «البير» و «الجب» فى كثير من الأعلام الجغرافية . نذكر منها Biar (وهو جمع بير فى الأندلسية الدارجة) فى لقنت ، و Viar فى بطليوس وإشبيلية ، و Albires فى ليون (وهو اللفظ العربى ، أضيفت له لاحقة الجمع فى الإسبانية) . ومن فروع نهر تاجة فى المنطقة التى توجد فيها مجرى فرع يدعى Ajabir وأصله العربى «فج البير» .

أما لفظ «الجب» فقد اتخذ فى الإسبانية أكثر من صيغة منها Alcibi, Alchup, Aljube, Algibe وقد أصبحت هذه الصيغ أعلاما جغرافية على أكثر من عشرة مواضع فى مختلف محافظات إسبانيا .

وبنى الأندلسيون عددا كبيرا من السدود التى كان الهدف منها تخزين المياه ، وكان لفظ «السّد» ينطق لديهم بضم السين وبهذا الضبط انتقل إلى الإسبانية فى صيغة Azud ، وبه يدعى خزان يوجد الآن فى طركونة ، وكذلك فى صيغة Azut فى لقنت . وكانوا يطلقون على مستودعات الماء لفظ «الصهريج» وقد انتقل هذا اللفظ إلى الإسبانية فى صور متعددة ، من بينها Safareitg وبه تدعى قرية فى لاردة .

والأنبوب الذى يصرف به الماء الزائد على الحاجة كان يدعى «الميزاب» (وهو بالإسبانية Mizep) وهو علم على قرية مندثرة فى لقنت ، أو «البلاعة» (Albalá) وهو اسم قرية فى قصرش .

ومن أكثر منشآت المسلمين فى الأندلس القناطر . ومن هنا كثر استعمال لفظ القنطرة Alcántara علما جغرافيا فى العديد من الأنحاء : فى قصرش وقادس وبلنسية ، وبصيغة التصغير العربية Alconétar ، وموضع يدعى «قنطرة محمود» فى قصرش ، وبصيغة التصغير الإسبانية Alcantarilla فى البسيط وكونكة ومالقة ومرسية وطليلة ، وبصيغة الجمع : القناطر Alcanadre فى لوجرونيو .

والموضع المنخفض الذى يتخلف فيه الماء يدعى فى العربية «الغدير» ، وقد بقى هذا الاسم علما جغرافيا فى صيغة الجمع «الغُدُر» Algodor فى قرطبة وطليلة وقصرش ولفظ Algodre فى سمورة .

وتنتشر فى شبه الجزيرة عيون المياه المعدنية الساخنة ، وهى التى تدعى الحمّات (جمع حمة

وحامة) وقد عرف الأندلسيون كيف ينتفعون من هذه العيون فى الاستشفاء ، وانتقل لفظ «الحامة» Alhama إلى كثير من الأعلام الجغرافية ، فتسمت به مدن وقرى فى المرية وغرناطة ومرسية وسرقسطة وسرية والبسيط . وهناك عيون مائية فى مدينة بسطة Baza تدعى Alcribite وهو لفظ الكبريت العربى إشارة إلى المياه الكبريتية التى تنبعث من هذه العيون . وفى سرقسطة قرية تدعى Alfamén وهو تحريف للفظ «الحمام» إشارة إلى عيونها الساخنة . وفى المرية قرية تدعى Alfaguara الفوارة ، أى العين التى تفور بالماء .

ولفظ «الدِّيماس» يعنى الحمام والمكان المظلم وبه سمى سجن بناه الحجاج بن يوسف الثقفى . وقد أطلق هذا اللفظ فى الأندلس على صهاريج المياه التى تبني على العيون الساخنة ، وقد أصبح هذا الاسم علما على عدد من المواضع فى صيغ مختلفة : Adamuz فى قرطبة ، و Ademuz فى بلنسية ، و Daimuz (منكرا) فى غرناطة ، و Daymús فى وشقة .

والألفاظ المتعلقة بالنشاط الزراعى وبأنواع الشجر والنبات قد اتخذت سبيلها أيضا إلى أن

تصبح أعلاما جغرافية . ومن أكثرها شيوعا لفظ «المنية» الذى يعنى البيت الريفى الذى تحيط به الحدائق . وهو لفظ أطلق على كثير من القرى والمدن فى مصر ، فقد أحصى ياقوت فى معجمه أحد عشر موقعا فى دلتا مصر وصعيدها بهذا الاسم ، من أشهرها منية ابن الخصيب ممدوح أبى نواس (وهى عاصمة المحافظة التى تدعى المنيا فى الصعيد) ومنية غمر التى تحرف اسمها إلى ميت غمر ، وكل القرى التى تبدأ فى مصر بلفظ ميت إنما تحرفت أسماؤها عن المنية . أما الأندلس فقد كانت ضواحي قرطبة على عهد بنى أمية تحفل بهذه المنى ، ومن أشهرها منية الرصافة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل فى شمالى قرطبة ، وقد اندثرت بعد ذلك وإن كان اسمها باقيا حتى اليوم La Ruzafa ، ومنية الرصافة فى بلنسية التى أنشأها عبد الله بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالبلنسى ، ومازال اسمها حتى اليوم علما على حى من أكبر أحياء المدينة ، وإليها ينسب شاعر مشهور من وصفى الطبيعة يدعى محمد بن غالب الرصافى . ولفظ «المنية» يطلق اليوم فى صورتيه, Almunia Almuña على عدد من القرى والمدن

الصغيرة فى بلنسية وسرقسطة ووشقة ،
وكذلك فى أبيـــط Oviedo
وبونتفيدرا Pontevedra فى أقصى شمال
إسبانيا .

ومن هذه الألفاظ «القرية» التى انتقلت إلى
إسبانيا فى صور متعددة : Alcaria فى
قادس ومالقة وجزيرة ميورقة ، و Alqueria
فى عدد كبير من قرى الجنوب والشرق وجزر
البليار ، و Alcarria فى وادى الحجارة . وقد
أشرنا من قبل إلى لفظ «الضيعة» الذى قدر له
كذلك انتشار عظيم .

ومنها لفظ الغيضة أى المكان ذو الشجر
الملتف ، وهو بصورة Algaida اسم لقرى فى
قادس وجزر البليار ، وفى صيغة الجميع
Algayad اسم لسلسلة جبال فى لقنت .
وكان الأندلسيون يطلقون على البستان اسم
الجنة ، ومن هنا نجد فى بلنسية التى كانت
مشهورة برياضها وحدائقها قرية باسم الجنات
Alginet ومن أشهر معالم غرناطة جنة
العريف El Generalife بجوار قصر
الحمراء .

واشتهرت الأندلس بكرومها ومن هنا أصبح
لفظ الدالية ومعناه شجرة العنب علما على

أكثر من موضع فى صورة Adalia فى سمورة
وبلد وليد . والطرفاء هو منبت شجر العضاء ،
وبه سميت قرية فى طليطلة Atarfa ،
والشُعراء هى الأجمة والعشب الكثيف الملتف ،
وقد أطلق هذا الاسم فى صورة Jara على نحو
عشرة قرى فى جنوبى شبه الجزيرة ووسطها
وشرقيها . وكانت الأندلس ومازالت مشهورة
بزيتونها ، ومن هنا سميت بعض القرى فى
طليطلة وقصرناش باسم Aceituno مذكرا
ومؤثنا ، وكذلك شجر الخروب الذى بقى اسمه
منكرا فى صورة Garrobo علما على قرى
فى مالقة والمرية وإشبيلية ومرسية وبطليوس ،
ومعرفا فى صورة Algarrobo فى مالقة .
ومن المعروف أن العرب أدخلوا إلى شبه الجزيرة
زراعة القطن ، وانعكس ذلك على اسم قرية فى
قادس تدعى Algodonales أى مزارع
القطن . وكذلك القنب الذى بقى اسمه علما
على قرية فى سرية تدعى Alconaba .

وهناك مواضع تحمل أسماء ثمار أو أزهار
عربية الأصول منها قرى فى تيروال وجيان
وطليطلة تدعى Allozar أى شجر اللوز ،
وقرية فى المرية تدعى Ambercoque أى
البرقوق . ويستوقف النظر هنا أن حرف

التعريف العربى قد استبدلت فيه اللام بالميم ،
وهذه لغة يمنية معروفة ، ويتفق ذلك مع
مايسجله ابن حزم من أن النازلين بوادى بجانة
Pechina الذى تقع فيه المرية كانوا من بنى
أسلم بن زيد وهم بطن من قبيلة حمير
اليمنية (٥٣) . ومن أسماء الأزهار «الريحان»
الذى سميت به قرية فى غرناطة هى
Arrayán ، و «الدُّقلى» وبه سميت قرية فى
ميورقة Defla .

ومما يتعلق بالنشاط الزراعى أيضا لفظ
«المدرس» أى المكان الذى يُدرّس فيه القمح ،
وهو علم على قرية بطليطلة تدعى
Almadraz ، وكذلك لفظ الخراصين ومعناه
الذين يخرصون (أى يقدرّون) المحصول الزراعى
بالنظر المجرد وهو اسم علم على قرية فى
بلنسية فى صورة Alfarrasí . وكذلك لفظ
Almásara, Almázara وهو من العربية
المعصرة ، أى مكان عصر الزيت أو العنب ،
وبهذين الاسمين توجد قريتان إحداهما فى
بلنسية والأخرى فى محافظة نبرة Navarra
فى أقصى الشمال . ويوجد اسم «معصر»
منسوبا إلى بعض الأعلام مثل

Mazarambroz : معصر عمسروس
فى طليطلة .

ومن الألفاظ المتصلة بالمهن والحرف
والمنتهية بعلامة جمع المذكر السالم
Alfajarin فى سرقسطة ، وهى تعنى
«الحجّارين» و Albaicín ، وهو من أهم
أحياء غرناطة وكان حى الطبقة العاملة فى
المدينة ، وهو بالعربية حى البيازين أى باعة
البزاة المستخدمة فى الصيد ، وكذلك الحى
الذى مازال يحمل اسمه العربى Zacatín أى
حى السقّاطين وهم باعة سقط المتاع ، أى
الأثاث القديم والثياب المستعملة وما إلى ذلك .
وكانت صناعة الفخار والخزف مما اشتهرت به
كثير من المدن الأندلسية ، ومنها مجريط
وطليطلة وبعض قرى غرناطة ، ولهذا فقد وجدنا
لفظ الفخار علما على اسم قرية غرناطية تدعى
Alfacar ، واختصر اللفظ إلى Alfara ،
Alfar ، فأصبح علما على عدد من المواضع
فى بلنسية وطركونة وبرشلونة وجرندة
Gerona . ومما يتصل بهذا العمل لفظ
Adobas, Adobes وهما صيغتان انتقلتتا
من لفظ الطوب العربى ، ويطلقان على قريتين
فى وادى الحجارة وتيروال .

ومن الألفاظ المرتبطة بالصناعة لفظ «القُرق» وهو لاتينى الأصل (quercus) ومعناه شجر الفلين ، وكان الأندلسيون يستخدمون هذه المادة فى صناعة الأحذية فكانوا يسمون الخفاف «الأقراق» (جمع قرق) والمشتغلين بصناعتها (القراقين) . وهذا الشجر كثير فى إسبانيا وبه سميت قرى عديدة بصيغ مختلفة منها Alcornoque, Alburquerque, (أبو القرق) وكلتاها فى بطليوس .

ونذكر فى النهاية ثلاثة أعلام جغرافية مرتبطة بألوان أخرى من النشاط الحيوى ، أولها Almadén (المعدن) وبه يسمى أكثر من موضع : فى المدينة الملكية وكان موضعها على عهد المسلمين يدعى بفحص البلوط Valle de los Pedroches (لكثرة هذا الشجر فيه) وإلى جنوبى هذه البلدة توجد سلسلة الجبال التى تحمل الاسم نفسه Sierra de Almadén وسميت البلدة والجبال بذلك لغناها بالمعادن ، ولهذا فقد كثرت فيها المناجم واشتغل أهلها بالصناعات المعدنية ، وهناك بلدة تقع إلى الشمال الغربى من إشبيلية تدعى Almadén de la Plata أى معدن الفضة

كانت معروفة بمناجمها التى يستخرج منها هذا المعدن النفيس . وفى أقصى الغرب وعلى مصب نهر التاجة فى المحيط الأطلسى تقع مدينة الأشبونة Lisboa عاصمة البرتغال وعلى ضفة النهر المقابلة كان يوجد حصن Almada وهو صيغة أخرى للفظ المعدن ، ويقول ابن عبد المنعم الحميرى إنه سمي بذلك «لأنه عند هيجان البحر يقذف بالذهب التبر هناك فإذا كان الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به إلى انقضاء الشتاء وهو من عجائب الأرض» (٥٤) .

والعلم الثانى La Malá وهو اسم قرية فى جنوبى غرناطة ، وأصله العربى الملاحه ، سميت بذلك لما كان فيها من معدن الملح الذى كان أهلها يقومون باستخلاصه . وإلى هذه القرية ينتمى المؤرخ أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى مؤلف « تاريخ علماء البيرة » (والبيرة كانت حاضرة الإقليم قبل أن يتحول عمرانها إلى غرناطة) (٥٥) .

والعلم الثالث هو Almadraba وهو اسم يطلق على عدة قرى ساحلية فى المرية ولقنت وميورقة ، وأصله العربى «المضربة» ،

وهو مصطلح أندلسى يعنى نوعا من الشباك الخاصة التى تستخدم فى صيد حيتان التُّنْ (بالإسبانية atún) (٥٦) . ومازال صيد هذه الحيتان يجرى على نفس النهج الذى كان يصاد بها على عهد المسلمين .

دلالة الاعلام الجغرافية ذات الاصول العربية :

رأينا فى الصفحات السابقة نماذج من أسماء أنواع من المعالم الجغرافية التى مازالت تحمل هويتها العربية ، وهى ليست إلا عددا ضئيلا عرضناه من بين مئات بل آلاف من تلك الأسماء ، وكان هدفنا من عرضها هو التمثيل لا الحصر . وقد رأينا كيف انتشرت هذه الأسماء على جغرافية إسبانيا كلها سواء على معالمها الطبيعية من جبال وسهول ووديان وأنهار وعيون وكهوف ، أو على ما أبدعته يد الإنسان الأندلسى من مدن وقرى وقلاع وبروج وقنوات وسدود . والواقع أن هذه الأسماء ليست مجرد ألفاظ لغوية انتقلت من لغة إلى لغة ، وإنما هى مرآة لما تم على أرض شبه الجزيرة عبر عدة قرون من منجزات حضارية ، فهى كما رأينا تصور مدى الجهد الذى بذله الإنسان الأندلسى على تلك الرقعة المقتطعة من

القارة الأوربية فى سائر مجالات الحياة من زراعة وصناعة وحرف ونشاط بحرى عرف فيه كيف يستثمر موارد البلاد على خير صورة ممكنة ، وأورث الأندلسيون إسبان اليوم كل ماتفتقت عنه عبقريتهم من خبرات فكان ذلك منطلقا لهذا الشعب إلى استكشاف العالم الأمريكى الجديد الذى أصبح امتدادا حضاريا وثقافيا لشعبى شبه الجزيرة : إسبانيا والبرتغال .

لقد قدم الفاتحون العرب إلى شبه الجزيرة وهى أرض واسعة مترامية الأطراف ، ولكنها ذات موارد طبيعية فقيرة ، أكثرها جبال وأراضٍ صحراوية قاحلة ، ولكن شعبها كان ورشا لحضارتين متقدمتين : الفينيقية والرومانية ، غير أن القوط ورثة الحضارة الأخيرة كانوا شعبا أقرب إلى البداوة والخشونة ، فلم يضيفوا شيئا إلى ماورثوه ، بل تخلفت البلاد فى ظلهم ، وقل عدد السكان بصورة ملحوظة ، وكانوا بطبيعتهم مترفعين على أهل البلاد ، فعاشوا فى عزلة عنه ، وقنعوا حتى بعد ما نالوا شيئا من الرقى والتحضر فى أواخر عهدهم بالحياة على التراث الرومانى فى المدن الكبرى معرضين عمن استثمار المساحات

الواسعة من الريف أو عاجزين عن استثمارها بحكم مستواهم الحضارى المحدود . ثم قدم الفاتحون العرب مسلحين بقيم دينية وفكرية جديدة ، بعيدة عن العنصرية والتعبد بالتفوق العرقى الذى كان من سمات الحضارة الرومانية ثم القوطية من قبل . بل كانوا بفضل هدى الإسلام حملة رسالة تدعو إلى التسامح وحسن التعامل مع الشعوب التى وفدوا عليها ، فلم يكرهوا أحدا على اعتناق دينهم ولا على اصطناع لغتهم ، وكان سلوكهم مع أهل البلاد كسلوكهم مع كل الأمصار التى فتحوها من قبل قائما على المساواة وحسن الجوار ، ولهذا فإنهم سرعان ما امتزجوا بأهل البلاد وشاطروهم حياتهم ، وآتت هذه السياسة ثمرتها ، فإذا بأهل البلاد يقبلون على الإسلام طواعية ويتقبلون تلك الثقافة الجديدة التى أتى بها الفاتحون بكل ما احتوته من قيم . ومنذ اللحظات الأولى يتحول هؤلاء المحاربون الأشداء الذين قدموا تحت راية الإسلام إلى مزارعين وصناع وأهل حرف منساحين فى الريف والقرى مطبقين ما حملوه معهم من الشرق من خبرة فى تعمير هذه الأرض الجديدة التى أصبحت وطنهم الثانى . ونتج عن هذا

الامتزاج السريع الذى تم بين الفاتحين من عرب وبربر وموالٍ بأهل البلاد تولد شعب جديد هو الذى نسميه الشعب الأندلسى حاملا كل مميزات تلك العناصر المختلفة التى انصهرت فى بوتقة شبه الجزيرة . وإذا بهذا الشعب يتكشف عن ذكاء متوقد وقدرة هائلة على العمل الجاد والحركة الدائبة فى سائر المجالات الحضارية ، وكأن الفتح العربى قد ولد فيه طاقة جديدة أقبل بها على الحياة فى ثقة وتفاؤل وعزيمة ماضية .

وكان هذا الشعب على وعى بأنه فى إسلامه وعرويته - والعروبة هنا مفهوم ثقافى أكثر مما هو مفهوم عرقى عنصرى - إنما هو امتداد للمشرق العربى ، ولذلك فقد أقبل أبناؤه منذ الجيل الأول على الرحلة إلى الشرق أولا لأداء فريضة الحج ثم للتزود من الثقافة العربية فى أصولها ومراكزها . والذى يطالع معاجم التراجم يروعه هذا العدد الهائل من الأندلسيين الذين كانوا يتجشمون مشاق الرحلة الطويلة مترددين على الحواضر الشرقية وما حفلت به من مجالس العلم ، وكانت هذه الرحلات مثيرة لروح المغامرة وحب الاستطلاع ، وهما أساس لكل نشاط فكرى مشمر للحضارة . ويعود

هؤلاء الراحلون إلى بلادهم لكي يودعوا أرضهم كل ما جمعوه من خبرات يُنمونها جيلا بعد جيل . على أنهم لم يكونوا مجرد ناقلين أو مقلدين ، بل سرعان ما قدموا لنا نتاجا فكريا وحضاريا فيه كل سمات الأصالة وإن كان في إطار الحضارة العربية الإسلامية .

ولهذا فإننا نتفق مع ما نادى به عدد من الباحثين المعاصرين الإسبان والأمريكيين مؤخرا من أمثال أميريكو كاسترو Américo Castro وخوان جوتيسولو Juan Goitisoló وفرانسيسكو بيانوييا Francisco Villanueva وجيمس مونرو James Monroe من أن إعراب إسبانيا عن هويتها وذاتيتها المستقلة لم يبدأ إلا بظهور «الأندلس» على مسرح التاريخ ، أي ابتداءً من الوجود العربي الإسلامي على أرض شبه الجزيرة .

والذي عرضناه في الصفحات السابقة من الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية ليس إلا شاهدا على هذه الحقيقة . فقد قدم العرب إلى هذه البلاد ، فرأوا فيها مدنا قائمة ، فلم يهدموا شيئا منها ولم يغيروا من معالمها ولا أسمائها ، بل عملوا على تنميتها وزيادة

عمرانها ، ولكن عملهم الأساسي كان الامتداد في الريف وتعمير ما كان مهملا من أرضها واستثمار مواردها واعتصار كل ما يمكن أن يستخرجوه منها ، وهكذا حولوها إلى أرقى بلد في القارة الأوربية ، وأصبحت حضارتهم هي النموذج الذي يحتذى ، ثم قدموا خبراتهم إلى مُساكنيهم - وأعدائهم في الوقت نفسه - من أهل شبه الجزيرة ، بل لم ييخلوا بشمرات علومهم وفنونهم على من جاورهم من شعوب أوروبا فانتفعوا منها في إقامة صرح نهضتهم .

ويلفت النظر في حديثنا عن الأعلام الجغرافية الأندلسية أنه إلى جوار ما رأيناه من مئات المدن والقرى التي استحدثها العرب واحتفظت حتى الآن بأسمائها العربية كانت هناك مدن وقرى أخرى ظلت محتفظة بأسمائها اللاتينية بل إن من منشآتهم ما حمل مثل هذه الأسماء ، كما أن هناك طائفة من الأعلام الجغرافية تتألف من مزيج من اللغتين ، وهي ظاهرة أشرنا إلى ما تمثله من كون المجتمع الأندلسي ثمرة لعملية التفاعل الكبرى التي تمت على أرض شبه الجزيرة بين العناصر العرقية المختلفة ، كما أنها دليل على التسامح الذي

اتسمت به سياسة المسلمين إبان سيادتهم وقوة دولتهم ، فهم لم يحظروا اللغة التي وجدوا أهل البلاد يتعاملون بها ، بل إنهم تعلموها وأدخلوا كثيرا من عناصرها فى لغة خطابهم ، وقد انعكست ظاهرة الازدواج اللغوى هذه حتى على لغة الأدب ، ونتج عنها فن الشعر الملحون أى الزجل الذى يرجع إلى أهل الأندلس فضل ابتكاره ، وكان من م مهدات الطريق إلى هذا الفن ظهور الخرجات العامية وهى خليط من العربية والعجمية أى اللاتينية الدارجة فى الموشحات الأندلسية .

على أن الثقافة الغالبة كانت هى العربية ، وهى التى اصطنعها أهل البلاد ، حتى الأقليتان اللتان ظلتا محتفظتين بديانتيهما فى داخل المجتمع الأندلسى أى النصارى واليهود ، ومن أجل هذا سُمى هؤلاء بالمستعربين Mozárabes ، إذ رأوا أن اللغة العربية بغناها ومرونتها أصلح للتعبير عن ذواتهم . ومن جديد نرى فى أسماء الأعلام الجغرافية ما يمثل هذه الحقيقة ، فقد مرت بنا فى العرض السابق عشرات بل مئات من الأسماء العربية مطلقة على مواضع لم تطأها

أقدام العرب أو كان وجودهم فيها عابرا محدودا لم يتجاوز سنوات قليلة . رأينا ذلك فى أسماء أعلام فى المحافظات الشمالية التى قامت فيها خلال الوجود العربى إمارات أو ممالك مسيحية معادية للأندلس الإسلامية مثل أستوريش Asturias وجليقية Galicia وليون León وكنتبيرة Cantabria وبلاد الباسك (البشكونس) Pais Vasco ونبرة Navarra وقطلونية Cataluña وقشتالة Castilla ، وكانت هذه الأسماء تبدو لأول وهلة لغزا محيرا للباحثين ، على أن تفسير ظاهرتها لم يعد الآن عسيرا بعد تقدم الأبحاث التاريخية واللغوية ، وهو أن معظمها كان مما أطلقه المستعربون الذين عاشوا فى الأندلس متشبعين بالثقافة العربية ثم هاجروا إلى الشمال ليعمروا تلك المناطق التى تولى عنها المسلمون إما إعراضا عنها وإهمالا لشأنها أو على أثر ما وقع عليهم من هزائم اضطروا على أثرها للتسحاب منها . وعلى كل حال فهذا شاهد آخر على عمق التأثير الذى باشرته الحضارة العربية حتى فى الأقاليم الخارجة عن نطاق نفوذهم المباشر .

والذى نسجله فى النهاية هو أن السلطات الإسبانية بعد أن تم لها الاستيلاء على غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) قد صبت على بقية الشعب المسلم أقسى ضروب التنكيل والاضطهاد ، وكان من أقسى ما وقع على هؤلاء الذين اصطلح على تسميتهم بالموريسكيين Moriscos حظر استخدام اللغة العربية وتعقب كتبهم بالإحراق والإبادة ، ومع ذلك فقد بقيت هذه الأسماء العربية أعلاما على المعالم الجغرافية ، وكأنها تسخر من كل مراسيم الحظر ، وتتحدى مصدرها ، ذلك لأنها بقيت شواهد خالدة على عطاء المسلمين الحضارى لأرض شبه الجزيرة ، حتى حينما آل بهم الأمر إلى أن يصبحوا أمة مغلوبة على أمرها محرومة من كل مقومات ثقافتها .

وأخر ما نختم به هذا الحديث شهادة لعلم من أعلام الأدب الإسباني فى عصره الذهبى هو كالديرون دى لباركا Calderón de la Barca (١٦٠٠ - ١٦٨١) ، وهو شاعر ومؤلف مسرحى أثر فى آخر حياته أن ينخرط فى سلك الرهينة وكان قد عاصر فى مقتبل صباه محنة الشعب الموريسكى وقرارات طرد

مئات الآلاف منه بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٤ ، وقد أتت شهادته هذه فى مسرحية شعرية له بعنوان «حب بعد الموت» Amar después de la muerte وفيها يصور الثورة التى قام بها الموريسكيون فى جبال البُشَرَات Las Alpujarras بين سنتى ١٥٦٨ و ١٥٧٠ بعد أن ضيقت السلطات عليهم الخناق حتى ألجأهم اليأس إلى الثورة . وقد أتت هذه الشهادة فى كلمة يتوجه بها أحد قادة هؤلاء الموريسكيين خوان مالك (فقد كانوا يستخدمون أسماء مزدوجة عربية وإسبانية) إلى خوان مندوثا Juan de Mendoza أحد رجالات السلطة :

« سيدى خوان مندوثا ، لتعلم أنه حينما كانت إسبانيا كلها / تحت حكم المسلمين / فقد كان المسيحيون فيها / مختلطين بالعرب تحت جناح التسامح / ولهذا فقد كانوا يدعون / ومازالوا بالمستعربين / وما كان أحدهم ليرى فى ذلك سبة ولا عارا / لأن المحنة التى يتعرض لها الرجال / ترفع من قدرهم وتعظم شأنهم / أكثر مما تسيء إليهم وتحط منهم / وإذا كان القدر قد أدار لنا ظهره / وحط على ظهورنا أثقال الذل والهزيمة / فإننا

من سلالة أولئك الفرسان المسلمين / الذين
لم يكن رجالكم / أعظم منهم فروسية ولا أكثر
شجاعة» .

ثم يضع كالدديرون على لسان خوان دى
مندوثا نفسه هذا الوصف لجبال البشرات وهو
يربها لقائد الجيش الذى قدم لإخماد الثورة :

«استمع إلى ياسيدى / هذه الجبال التى
تراها هناك / كأنها نسر رابض على ذروة
صخرة / هى جبال البشرات / هى حصون
الموريسكيين التى اعتصم بها المسلمون /
والتي يريدون أى يعيدوا منها / حكم دولتهم
البائدة فى إسبانيا / هى جبال وعرة لعلوها
الشاهق / وخشونة مطالعها / ومناعة
مواقعها / حتى إن إخضاعها يعد عملا
مستحيلا / ... وما أكثر ما يخرقها من
وديان / وحقول خصبة / وحدائق جمّة / تجعل
طبيعتها آية فى الجمال / وفى كل مكان تنتشر
فيها القرى / والمدن الصغيرة / التى تقوم على
سفوح الجبال / وما أجمل منظرها عند غروب
الشمس / إذ تبدو بين الخضرة التى تكسو
السفوح / كأنها صخرات بيض / تحدت من

قمة الجبل / ثم توقفت فى منتصف الطريق /
... ولديهم قطعان كبيرة من الماشية / ترى
فى تلك السفوح / ولو أن هؤلاء القوم
لا يتغذون باللحم / بقدر ما يتغذون بالفواكه /
الرطب منها والجاف / أو بالخضر والبقول /
التي مهروا فى زراعتها / فالموريسكيون قوم
لا يحسنون فقط / فلاحه الأرض واستخراج
كنوزها / بل يعرفون كيف يفجرون من
الصخور نفسها / كل نبات طيب / وقد
اشتهروا منذ قديم بالصلاحه / والمهارة
فى الفرس والزراعة / حتى إن ضربات
فؤوسهم / تحمل الخصوبة إلى الصخور
الجرداء!» .

كان هذا حال مسلمى الأندلس إبان ضعفهم
وذلتهم ، فكيف كانوا على عهد قوتهم
وعزتهم ؟ ... ألم يكن ابن حزم على حق
حينما هتف :

فيا درة الصين سحقاً فقد

غنيت بياقوتة الأندلس

محمود على مكى

عضو المجمع

١ - الدهناء؟؟

للأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس

تتخلل جزيرة العرب رمال كثيرة منبثة هنا وهناك ، أكثرها وأغزرها وأطولها امتداداً وأرحبها رقعة (بعد الربع الخالي) هي الدهناء ، تنطلق من عرض الربع الخالي من تحت الأفلاج شرقاً ، وتذهب مشملة آخذة ما بين (الصلب) شرقاً و (العرمة) غرباً ، وهكذا حتى تجتاز (جبل طى) ، ثم تأخذ شطر الغرب فالغرب الجنوبي لتقف قريباً من (تيماء) ، وحينما تذهب مغربة تتعاضم وتتكاثر وتسمق وتتداخل شقائقها ، وهذا ما يسمى بـ (رمل عالج) ..

و (الدهناء) حيناً تتكاوس رمالها وتتداخل وتمحى شقائقها وتعفى طرفها فلا يسار فيها إلا بمعرفة الجهة ولا يقطعها إلا خريت ماهر .. وحيناً تنقاد جبالها وتتواكب شقائقها وتبرز أعلامها .. وهذا يرجع إلى طبيعة تكوينها ورمالها المتحركة فى بعض أجزائها والساكنة فى أجزاء أخرى ، لذا تجدهم يتخذون منها مسارات معلومة وطرقاً لاجبة

تتحاشى عبور متكأوسها ومتداخلها ، أضف إلى ذلك أن الدهناء خالية من المناهل قفر من المياه ، فكانت فى حقها الماضية مضيعة مهلكة ابتلعت الكثير وطوت فى جوفها القوافل والمجتازين .. ولما كانت هجر سابقاً هي الممون الرئيسى لنجد بادية وحاضرة بالمياه والكساء وأكثر مستلزمات الحياة بحكم أنها بلاد زراعية تنتج التمور والحبوب .. إلخ ، كما أنها بلاد صناعية تغزل الصوف والوبر والشعر وتصنعه وتنتج الأدوات الزراعية وتصنع الأقتاب والرحال .. إلخ .. وهى أيضاً باب الجزيرة إلى الهند وشرق جنوبى آسيا بواسطة مرفئها المعروف (العقير) ، لذلك فإن لها طرقاً معروفة تعبر الدهناء من نجد ، فكل جهة من جهاتها الممتدة من الشمال إلى الجنوب لها طريق معروف .. فالعارض وما صاقبه جنوباً وما فوقه غرباً يسلك أهله طريق (مزاليج) الطريق الجنوبى يتزودون بالماء من منهل (أبى جفان) فى طرف (العرمة) الجنوبية ، ثم لاماء أمامهم دون الأحساء وفيه كشب وعرة

ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٣ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٣ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

شاقة تجتازها الرواحل بصعوبة شديدة ، وهي
التي عناها محسن الهزاني في تائيته حينما
وصف الركب الوهمي الذين حملوا رسالته
لصديقه (سعد بن عفالق) في الأحساء ،
هذه الكتب هي (مزعلات) قال :

يسرحن الصبح من جرجا نعام

والعصير منكبات مزعلات

والعتيم القابلة من غير أين

يشرين بروسهن من ما الصراة

يقصد صراة الأحساء .. وسميت (مزعلات)

لأنها تزعل مجتازها أى تغضبه وتحنقه بوعورة
اجتيازها ..

ومزاليج أيضاً هي التي يقصدها عبيد بن
رشيد في قصيدته التي يقول منها :

أقفن بنا مثل القطامع مزاليق

وصارت توالى كل عشر ثمان

العارض المنقاد للخروج لطويق

يالعنبو سكان هاك المكان

عفا الله عنه إنها لا تستحق منه هذا !!

ومزاليج أيضاً هي التي يقصدها الرقاص
بقوله :

هنى من درهمت به فرخة الحرة

معط مزاليج والا معط الجودي

وابعد عن الهاجرى وابعد عن المرة

لو كان ماجا من الأجواد منقود

و (مزاليج) هي العلم البارز الذي سُمى به
حقل النفط الغني الذي كشف في تلك المنطقة
أخيراً ولما يستغل بعد ، ويؤسفنا أن الزحف
على الفصحى بوساطة العناصر الأجنبية التي
تعمل في حقول النفط كشفا واستخراجا
ويقلدهم أشباههم من مواطنينا الذين يعملون
معهم ، يلحقون الألف واللام بهذا العلم
(مزاليج) .. فيقولون : (المزاليج) كما
يلحقونها بعلم (بقيق) ، فيقولون : (البقيق) ،
وغير هذا وذاك من المسميات التي لعبت
العجمة دورها في تحريفها .. وقد نبهنا على
هذا في حينه عند كشف حقل (مزاليج) ولكن
لا حياة لمن تنادى ...

ولى مزاليج من الناحية الشمالية من هذه
الطرق : طريق (مخيط) (وزان مبرد)
يسلكه من يفوز من منهلى (سعد) و(رملان) ،
وسمى مخيطا باسم نقى هنالك في أول الدهناء

غربيها سامق الطول مذروب الرأس كأنه مخيط
وهذا الطريق يلى طريق (خريص) جنوبيه إذا
سلكته ودخلت (الدهناء) فالتفت يمينك ترى
(مخيطا) يسبرك أبرز علم هنالك ..

ويلى (مخيطا) من الناحية الشمالية طريق
(الجودى) ، وسمى بالجودى نسبة إلى منهل
(جودة) الذى يمر به هذا الطريق بعد اجتياز
(الصلب) ، وكان هذا المنهل قديماً يسمى
(يجودة) فحذفت ياؤه أخيراً فصار (جودة)
، وبعد منقطع الرمل من هذا الطريق مما يلى
(الصمان) كانت هناك شجرة طلع كبيرة
تضاف إلى هذه الطريق فيقال :
(طلحة الجودى) .. وإياها عنى (الخلاوى)
فى وصفه لدحل أبى مروة حيث يقول :

عن طلحة الجودى تواقيم روحة

وعليها شمالي النسور يغيب

وعنها مهب الهيف رجم وفيضة

و (حرورى) أن كان الدليل نجيب

ويليه من الشمال (المبيحيص) وهو يمر
بخبرا (الخمة) بالصمان بعد أن يجتاز الدهناء ،
ويليه طريق (المنشرحة) (فام الرمم) ،
(فالهبابية) (فالأجردي) فطريق حاج

البصرة ، ثم طريق حاج الكوفة ، فطريق (لينة) ،
فطريق (جبة) (الجوف) .. وكل هذه فجاج
وسبل تجتاز هذا الذراع الرملى العظيم الذى
ينطلق من الربع الخالى ويذهب مشملاً فمغرباً
فيكون فى نهايته شمالاً (رمل عالج)
أو صحراء النفود الكبرى كما يسميها
المعاصرون ..

والدهناء تضيق فى بعض الأماكن فيبلغ
عرضها ٢٢ كيلاً ، وتتسع فى أماكن أخرى
فيبلغ عرضها ٩٩ كيلاً وربما أكثر .

وطرائق الدهناء هى حبال متواكبة بينها
شق (صرائم) خالية من الرمل تدعى (خببا)
جمع (خبة بكسر الخاء والباء المشددة فتاء) ..
قال عنها فى (بلاد العرب) : (فأول حبل
من الدهناء إلى الحفر) يقال له (خشاخش)
فتقع فى معبر وفيه يقول الراجز :

ليل طويل لك من معبر

ومن حماطين وحبل السرسر

والحماطان حبلان من حبال الدهناء ، وحبل
السرسير أيضاً من حبالها ، وجرعاء العكن
أيضاً حبل منها .. والصرائم التى بين الحبال
لها أسماء .. قال : والدهناء لها سبعة أحبل ..

وإنما تجاز هذه الحبال عرضا ، ولكل جبل منها اسم ، وبين هذه الحبال سهوب من الأرض تدعى (الصرائم) ، بين كل جبلين صريمة ، وبين كل صرمتين جبل .. ومن صرائم الدهناء : (الجردة) ، و (الجريدة) ، و (صريمة العكن) ، و (الصبيغاء) وهى برقاء بمنقطع الهناء إذا جزت الصبيغاء وقعت فى أبرق يقال له (القنفذ) . ثم إذا جزت القنفذ استقبلت أول الصمان (.. اهـ .

ويبدو من قوله : حبل السرسور هو ما يسمى الآن بحبل السرو .. فالأسماء لهذه الحبال قديماً قد دخلها التحريف والتغيير .. فحبال الدهناء المعروفة الآن هى كما يلى : بدءاً من غربيها (أبو الشام) ، و (الحرانى) ، و (عمر) ، و (رويكب) ، و (السرو) ، و (جهام) ، و (جهيم) ، و (عريق الدحول) ..

والدهناء: تعتبر من أخصب مراع العرب ومراتهم حتى أنهم قالوا إذا أخصبت الدهناء استوعبت كافة العرب ، وإذا لم تخصب فإنهم فى فقر إلى زيادة إخصاب .. (قال فى اللسان وهى الدهناء سبعة أحبل فى عرضها بين كل جبلين شقيقة وطولها من حزن (ينسوعة) إلى

رمل (يبرين) وهى قليلة الماء كثيرة الكلا ليس فى بلاد العرب مريع مثلها ، وإذا أخصبت ربعت العرب جمعاء .. وفى حديث صفية ودُحَيَّة : إنما هذه الدهناء مقيد الجمل هو الموضع المعروف ببلاد تميم) ..

ونباتات الدهناء من الشجر هى الأرطى ، والغضا ، والعلندا ، والعوسج ، والعاذر والعشر ، والشمام ، والحمض .. ومن البقول والأعشاب : الثغام ، الخزامى ، والشقارى ، الصفارى ، الصليان ، الضمران ، العرفج ، العقلى ، القليقلان ، النصى ، الحماط ، الشرشر ، الذغلوق ، الريل ، الأرقعة ، الرقوق ، الغريراء ، المكنان ، القفعا ، الحمبصيص ، العضيذ ، الرخيم ، المكر ، الشتيل ، أم ثريب ، البسباس ، المسيكة ، القرنوى ، السبط .. وقد ينبت فى صرائمها - شققها - ما ينبت فى الروض ..

وحضنها الغربى مستقر لسيول الأودية التى تنحدر عليها ، فهناك رياض من أشهر رياض نجد تمتد فى حضن الدهناء كروضة التنهاة وخوابيها تصب فيها أودية (الشوكى) وروافده ، و (العتك) وروافده ، و (الطيرى) وروافده .. وهناك (روضة خريم) وخوابيها

يصب فيها (وادي الثمامة) وروافده .. وهناك
مرايخ (المزيرع) ومدافعه يصب فيها (وادي
الطوقى) وروافده الكثيرة ، أما مرايخ الدهناء
جنوبى خريم فتصب فيها أودية جنوب (العرمة)
(المسعودى) ، و (ثيلان) و (الجافى) ،
وما خلف طريق خريص جنوباً من المغائص
والمرايخ تصب فيها أودية (العرمة) الجنوبية
(عشيران) ، و (الحلال) الجنوبي ، و (الحلال)
الشمالى و (أبو سدير) ، وغيرها .. ورياض
(البجادية) ، (والسهباء) ، و (التوضحية)
أسفل الخرج تصب فيها أودية (العارض)
كلها : وادي (حنيفة) وروافده ، وأودية
(عُلَيَّة) ، (نساح) ، و (بلاجين) ،
و (العين) ، و (تمير) ، (ماوان) ،
و (أثيلان) ، و (أبوسحرا) ، و (الوسط) ،
وأودية جنوبى الخرج (برك) ورواقده ،
و (العقيمى) وروافده ، و (الثليماء) ..
ومن الشمال أودية (نخش العرمة)
الجنوبية ، و (الترايى) ، و (الحنية) .. كل
هذه الأودية تستقر فى (البجادية) و
(التوضحية) فى حوض الدهناء من تحت الخرج
.. وهناك أودية (البياض) من تحت

(الأفلاج) ، وأودية (الحرشة) ، كلها تستقر
فى مرايخ ومدافع فى حوض الدهناء الجنوبى
تحت الأفلاج . ومن الشمال هنالك روضة
(حيرى العصل) ينصب فيها (وادي العصل)
وهناك أيضاً مغائص تصب فيها سيول
(القرشع) قرشع طاسان ، وهكذا .. فلست ترى
منظراً أبدع ولا أمتع من هذه الرياض إذا
أخصبت وازدانت وازدهرت وتفتح نوارها وغنت
أطيافها ، تطل عليها الدهناء بحمرتها الذهبية
ومتد غربها الأودية بطلوحها وغدرها ومحانيها
وتطرق هذا وذلك صبا نجد صباحا فيفوج
عبيرها ويعبق شذاها .

فيما سائلى عن نجد أو عن رياضه

فديتك هذا بعض ما فى ريا نجد
وفى الدهناء أعلام بارزة وصوى مشهورة
تغنى بها الشعراء وسرى ذكرها على السنة
الرواة ، واستوعبها السفر والأدلاء وسط هذا
البحر المتدافعة أواذيه من الرمال ، بها يعرفون
الطرق ، ويصفون المنازل ، ويحددون الاتجاه
وأمكنة الضوال ..

وقد سبق لنا شئ من ذلك عن (مزاليج) ،
و (مزعلات) .. هنالك تل قريب من مزاليج
يسمى (حومل) بارز معروف مما حدى

ببعض الباحثين أن يرى أن امرأ القيس في
معلقته يقصده :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول وحومل

يرى أن (سقط اللوى) هو منعرج الدهناء
هنالك ، وأن الدخول هو ما يسمى (الدخلى)
شعب من شعاب (النخش) جنوبى (العرمة)
يسيل على (التوضحية) ، وحومل هو هذا
التل الذى ذكرنا .. و (توضح) المذكورة فى
البيت الثانى هى روضة (التوضحية) هذه ..
ومع وجاهة ما ذكر هنا إلا أن القرائن ومسار
بناء القصيدة ومنازل آل امرئ القيس وبقية
الأعلام التى ذكرها مقرونة بهذه الأعلام الآتفة
الذكر ، وغير ذلك مما يحتاج إلى بسط فى
الكلام ليس هذا موضعه .. كل ذلك لا يجعلنا
نطمئن إلى هذا القول ، ولعل لنا عودة إلى
إشباع هذا الموضوع فى بحث مستقبل ..

ومن أعلام الدهناء (رجم الشويعر) علم
بارز على طريق (مزاليج) ، يعرفه السفر تمام
المعرفة ، وفيه يقول ناصر الهزانى يصف ركباً
من قصيدة يمدح بها أحمد السديرى أمير
الأحساء آنذاك :

لهن من ديرة بنى زيد مسراح

وتلقى لهن رجم الشويعر مصابيح

ومن أعلامها أيضاً (دليل) نقى من
أنقية الدهناء البارزة مقابل لمنهل (سعد)
بكسر السين وإسكان العين فдал ، ويضرب
بهما المثل فى قرب أحدهما من الآخر فيقال :
(يا قرب سعد من دليل) فالذى على المنهل
يشاهد دليلاً ، والذى فوق (دليل) يشاهد من
على المنهل ، ويقع (دليل) شمال شرق
(سعد) مخرج السماك الأعزل - النسر -
وطريق المنطقة الشرقية - طريق خريص - يأتى
من بينهما ، وقد أخذ هذا المثل عبد الله
بن محمد الصبى المعروف (بمبيلش) ، فقال
من قصيدة حربية يمدح بها الملك عبد العزيز :

لو صلاح الناس فى غارب الجوزا بداه

ما يذل من المخاوف ومن ربه ذليل

هو عمود الدين ما شاف من فتق رفاه

كنه المهدي وياقرب سعد من دليل

ومن أعلامها (خريم) بضم الخاء وفتح
الراء فياء ساكنة فميم ، من أطول أنقية
الدهناء ، يرى من أمكنة بعيدة وإليه تضاف
الروضة المشهورة من رياض العرمة ، فيقال :
(روضة خريم) ، وهو يقع شرقيها من الدهناء ...

ومن الأعلام أيضا (الجلالية) (زيارة
متلمخة) كبيرة تقع شرقي بلد (رماح) بميل
قليل إلى الجنوب ، وفيها جرت وقعة بين قبيلة
الدواسر وقبيلة سبيع ، قال فيها شاعر سبيع :

ذيب ياللى عوى عند الجلالية

ابتجع بالعشا من قوم بسام

ومن أعلامها (السبيية) بالسین المفتوحة
المشددة والباء المكسورة والياء المكسورة
المشددة فتاء مربوطة .. (زيارة) من (زبائر)
الدهناء شرقيها قريبة من (حزوى) ، وبها
جرت وقعة للإمام تركى بن عبد الله على بنى
خالد سنة ١٢٤٥ هـ لم تقم بعدها لبنى خالد
قائمة ، ومنها احتل الإمام تركى (الأحساء)
.. وهذا الاسم (السبيية) قديم ذكرها غيلان
ذو الرمة فى شعره قال :

وقد جعلوا السبيية عن يمين

مقاد المهر وانتجعوا الرمالا

ومن أعلامها (حزوى) بضم الحاء وإسكان
الزاي فواو مفتوحة فألف مقصورة ، (زيارة)
أيضا من (زبائر) الدهناء مشهورة فى أسفلها
مما يلى (معقلا) علم بارز هنالك ، قال عنها
الأزهري : هى جبل من حبال الدهناء مررت به ..

وقال محمد بن أدريس بن أبى حفصة :
(حزوى) من رمال الدهناء .. قال عنها بعض
الأعراب :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بجمهور حزوى حيث ربتنى أهلى

وصوت شمال زعزعت بعد هجعة

آلاء وأسباطاً وأرطى من الحبل
أحب إلينا من صنياح دجاجة

وديك وصوت الريح فى سعف النخل

وقال أعرابى آخر :

لئن طلن أيام بحزوى لقد أتت

على ليال بالعقيق قصار

وأنشد ابن أبى حفصة لذى الرمة :

خليلى عوجا من صدور الرواحل

بجمهور حزوى فابكيا فى المنازل

لعل انحدار الدمع يعقب راحة

إلى القلب أو يشفى نجى البلابل

وهنالك (حزوى) أخرى باليمامة بحذاء
قرية بنى سدوس لآل معمر الآن ، أميرها الرجل

الفاضل محمد بن فيصل بن معمر ..
وهناك (حزوى) ثلاثة بعالية نجد ومن
أعلامها (الأعيجم) تصغير أعجم جبل بارز
يلتقى فيه السروان (مثنى سرو) ، وهما جبلان
معروفان من جبال الدهناء .. وفى (الاعيجم)
يقول الشاعر (نزار السهلى) فى محبوبته :

صاحبى مانوى طارى المحدار

راكد والأعيجم مدا هيله

صاحبى يحسبن شدتى مختار

مقفى بالحسايف أنا أخيله

و (نزار) هذا هو الذى يقصده الشاعر
المعروف (دبيان عن عساف) يقوله :

صاحبى شد مع ناقلين الكار

مع فريق على ابعدوا داره

مع فريق الجمالين يانصار

من يجينى من العذب بأخباره

شبه وضى زعوج على القهار

فى نهار المواريد دجاره

حایل ما بعد عاودت لحوار

من مغاتير الأجواد سنجاره

ومن أعلامها (البزىخا) بضم الباء وفتح
الزاي وإسكان الياء فخاء مفتوحة فألف ..
تصغير بزخاء ، والتسمية تفيد الضخامة
والبروز .. وهذه (زبارة) من (زبائر)
الدهناء الكبيرة المطلّة على (قرشع طاسان)
ومرتفع (الدجاني) و (القاعية) جنوبى
(نقى الجمل) فى (حومة النقيان) ، وهى
التي ذكرها الشاعر الشعبى السبيعي أبو ذيب
يصف وقعة بين قومه وبين الظفير ويفتخر
بقومه ، قال :

قطعاننا مارددت بالكداد

تلقى لهن حول (البزىخا) معازيب

حنا ذبابة مقررعات التوادي

إلى ركبنا فوق عوج المصاليب

ومن أعلامها (حومة النقيان) ، أى
مجتمع الانقاء ، وفى هذه المنطقة تنبث أنقية
الدهناء هنا وهناك حتى وكأنها خيام ذهبية
مبثوثة ، وبعضها علم مسمى وله ذكر على
أسنة الرواة ، وبعضها نكرة لا يعرف له اسم
.. فمن المعروفة (نقى الجمل) وهو من أبرزها
وأشهرها ، ويقال إنه هو الذى أوصى ذو الرمة
أن يدفن فيه فدفن ..

وفى حومة النقيان يقول محمد بن على
بن صقية أمير حليفة سابقاً :

حموها من (الوفرا) إلى (حومة النقيان)
إلى (المستوى) و (السر) و (طويق) يرعونه
مداهيل تلعات المها شرد الغزلان

ثلاث غدن بالزين عن كل مزبونه
ومن أبرزها وأشهرها (نقى المطوع) ، وهو
طالب علم من أهل (أشيقر) بالوشم علق حب
فتاة أفضى به إلى الوجد والوله والغرام
فتزوجها وهي لم تكن من طبقة نسبا على ما
درج عليه عرب ذلك الزمان من حماسة للنسب
يفضى إلى القتل ، فكشف أمره وهددته
العشيرة بالقتل إذا لم يطلقها فأبى وحملوه
معهم فى قافلة ذاهبة للامتيار من إحدى مدن
ساحل الخليج العربى وقصدهم اغتياله إذا
وصلوا الدهناء ، وقد عرف قصدهم ، وحينما ،
وصلوا الدهناء وقد اصطادوا ظبيا أخذ من دمه
فى فنجان ، وجعل يذيب لواعج حزنه وفيض
صبايته فى شعر يكتبه بالدم فى ثوبه حتى إذا
أفرغها قصيدة طويلة شاكية باكية أسلم روحه
لبارئها فدفن فى هذا النقى .. يرحمه الله ..

أما القصيدة فمنها :

الأقفى جزى الأقفى ولاخير فى فتى
يتبع هوى من لا يريد هواه
من باعنا بالهجر بعناه بالنيا
ومن جذ حبلى ما وصلت رشاه
أخذ هذا المعنى (الشريف بركات) ، فقال :
قلته على بيت قديم سمعته
على مثل ما قال (التميمي) لصحابه
إذا الخل وراك الصدود فـوـره
صدود ولو كانت جزايل وهابيه
يقصد بقول (التميمي) : الأقفى جزى
الأقفى فى البيتين المتقدمين (مطوَّع) أشيقر ..
ومن أعلامها (حرابة) بكسر الحاء وفتح الراء
والباء فتاء مربوطة .. نقى طويل مذروب فى
نهاية الدهناء من شرق مما يلى (الحتاييف) ،
تراه من بعد كأنه رمح ، ويعنيه الشاعر
الشعبى المفوه (حنيف بن سعيدان) فى
قصيدته التى يمدح بها (الدوشان) ، قال منها :
كزوا لهم من عقب الأمطار عساس
وتباشروا بالصلب كشر شرابه
وقاد السلف واستجنبوا قب الأفراس
وحطوا (جنيح) شدة من (حرايه)

ومن أعلامها (الدويدات) جمع دويد ،
وهى أنقية حمر متجاورة علامة فارقة فى
المنطقة ، وهن فى موضعين من الدهناء فى
(السرو) وفى (جهام) ، وبالمناسبة فقد
حدثنى أحدهم قال : كنت مع ثلاثة من أبناء
الملك عبد العزيز - رحمه الله - خرجوا من
مخيمه فى خريم للقنص ، ولما جاءوا عند
(الدويدات) تعطلت سيارتهم فبعثوا محدثى
راجلا للمخيم من أجل إسعافهم ، وكانوا آنذاك
صغاراً .. قال : فوصلت المخيم بعد لآى وتعبد
ونصب فوجدت الملك عبد العزيز على أحر من
الجمر فاستدعانى وأخذ خبرى ، وقال هل هم
فى (دويدات السرو) وإلا فى (دويدات
جهام) ؟ قال : فبهت لأننى لا أعرف هذه من
هذه فنهرنى فتلعثمت وقلت فيهن كلهن
فضحك وانصرف عنى وأمر بإسعافهم فى الحال
.. قلت رحمك الله يا عبد العزيز فقد قتلت
أرض الجزيرة معرفة واستيعاباً تجوبها غازياً أو
مسافراً أو متفقداً حتى عرفتك وعرفتها فلم
يخف عليك منها شبر .. ومن أعلامها أيضاً
(نقى سبيت) ، وهو من أبرز أنقية الدهناء
وأشهرها ، ولا نعلم من هو سبيت هذا الذى
أضيف إليه هذا النقى .

ويطول بنا الدرب لو ذهبنا نعدد أعلام
الدهناء وما لها من مناسبات ، ولكن يكفى أن
نسرد ما تيسر لنا منها سرداً .. فمنها (نقى
التنهاء) ، (البدرية) ، و (الكناسية) ،

و (أوتاد) ، و (الشاوية) ، و (جوصياح) ،
و (جوجهام) ، و (الطويسة) ،
و (سريهيدة) ، و (أم رقية) ، و (السنافية) ،
و (كنهري) ، و (الهدب) ، و (حرورى) ،
و (عدامة دغيم) ، و (الحصانة) ،
و (اليتيمة) .. إلخ .

ويتخذ العرب الدهناء ملاذاً عن الأعداء
المغيرين ينطوون فى كثبانها ومتداخلاتها ،
ويجدون فيها ملجأ لهم يحصنهم من أعدائهم
.. أغار قوم على آخرين وكان المغار عليهم فى
(الضمان) مما يلى (الدهناء) ، وقبل أن
يفاجئوا المغاز عليهم وجد المغيرون شخصاً منهم
فاعتقلوه لثلا ينذر قومه ، وبعثوا بعين منهم
كأنه ضيف ليستجلى خبر القوم ويكشف
عدتهم واستعدادهم قبل أن يغيروا عليهم ..
ولما هم هذا العين بالذهاب قال للمعتقل : إنى
ذاهب إلى أهلك ضيفاً فماذا توصينى به لهم
.. قال قل لهم إن الأرض مجرودة فليعروا
جملى الأصهب ويركبوا ناقتى الحمراء حتى
آتيهم .. وكان فى هذا الرمز لهم أكبر نذير ..
فالجراد هو العدو المغير ، والجمل الأصهب هو
الصمان ، والناقة الحمراء هى الدهناء ..
فبادروا بركوب الدهناء وأخفق المغيرون مما
كادوا أن ينالوه .. ولقد تغنى الشعراء بالدهناء
وقالوا فيها كثيراً نكتطف من ذلك ما تسنى لنا :

قال أعشى همدان يصف لصوصاً :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم

ويرجعن من (دارين) بجر الحقائب

على حين ألهى الناس جل أمورهم

فندلا زريق المال ندل الثعالب

وقال أعرابي حبس بحجر اليمامة :

هل الباب مفروج فانظر نظرة

بعين قلت حجرا فطال احتمامها

ألا حبذا الدهنا وطيب ترابها

وأرض خلاء يصدح الليل هامها

ونص المهارى العشيات والضحي

إلى بقروحي العيون كلامها

وقال كثير :

كأن عدو ليا زهاء حمولها

غدت ترقى الدهنابه والدهالك

وقال آخر :

جازت القور والمخارم أمأ

ثم مالت لجانب الدهناء

وقالت العيوف بنت مسعود أخى ذى الرمة :

خليلى قوما فارفعا الطرف وانظرا

لصاحب شوق منظرا متراخيا

عسى أن نرى والله ما شاء فاعل

باكثبة الدهنا من الحى باديا

وإن حال عرض الرمل والبعد دونهم

فقد يطلب الإنسان ما ليس رائيا

يرى الله أن القلب أضحي ضميره

لما قابل الروحاء والعرج قاليا

وقال ذو الرمة :

حنت إلى نعم الدهناء فقلت لها

أمى (هلالا) على التوفيق والرشد

الواهب المائة الجرجور حانية

على الرباع إذا ماضن بالسبد

وقال أيضاً

غراء أنسة تبدو بمعلقة

إلى سويقة حتى تحفر الحفرا

تشتو إلى عجمة (الدهناء) ومربعها

روض يناصرى أعالي ميثة العفرا

وهكذا يكثرون من ذكرها ، ويحنون إلى

أجارعها ووعاسها وشقائقها وصرائمها ..

وأخيراً فإن الدهناء (بنية) تمد وتقصر

على خلاف بين البصريين والكوفيين فى ذلك ..

هذا هو حديث (الدهناء) وقد شاهدتُ

أعلامها وجبتُ سهولها وسهوبها ووقفت فيها

وقفات المتأمل وما أبرئ نفسى ،

عبد الله بن محمد بن خميس

عضو المجمع المراسل

من السعودية

الجغرافيا فى رسائل إخوان الصفا (★)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .
سنعرض فى هذه الورقة لطبيعة الجماعة المسماة بإخوان الصفا ، ولما تضمنته
رسائلهم من معارف جغرافية ، ولما اتسم به إنتاجهم فى هذا المجال من سمات .

- ١ -

(ب) ومن قائل « إنهم جماعة تحلوا
بالزهد فى الدنيا والمحبة والأمانة
والصدق والوفاء » منكر أن تكون
لهم أهداف سياسية ترمى إلى قلب
السلطة أو المساس بالدين (٢) .

(ج) ومن قائل : إنهم كانوا « يريدون
قلب النظام السياسى المسيطر على
العالم الإسلامى يومئذ ، وهم
يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام
العقلى المسيطر على حياة
المسلمين » (٣) .

(د) وربما أثر بعض الباحثين أن ينسب
إليهم كل الأوصاف المحتملة فيقول:
« إن إخوان الصفا علويون ،
وباطنيون ، وإسماعيليون ،
ومعتزلة ، وفيثاغوريون ،
وأفلوطينيون ، ومجوس » (٤) .

فأما الإخوان فهم جماعة فكرية ، غير
معلنة التكوين أو الأهداف ، قامت بالبصرة
حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وكان لها
فرع فى بغداد ، توفق بين العقل والنقل وتمزج
الدين بالفلسفة ، أو هى تحاول وضع فلسفة
ذات صيغة دينية ، فى إطار من المعارف
المتنوعة التى زخرت بها البيئة الثقافية
حينذاك.

ونظرا للطابع السرى الغامض الذى أضفوه
على أنفسهم ومذهبهم فقد حار الباحثون فى
تحديد هويتهم الفكرية وأهدافهم الحقيقية التى
يمكن أن تستخلص من رسائلهم :

(أ) فمن قائل إن هدفهم إنما هو تثقيف
الأمة وتهذيبها بعد أن عجزت
الشريعة فى نظرهم عن أداء
المهمة .. وليست لهم أية غاية
أخرى (١) .

(*) بحث ألقى فى المؤتمر السنوى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٩٥ م .

(هـ) وكان جولد تسيهر قد أشار إلى علاقتهم بالإسماعيلية ، واشتد في الحكم على هؤلاء إذ قال : « بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية ، تلك التي بنت عليها جماعة إخوان الصفا البصرية فلسفتها الدينية . . واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدّها تطرفاً » (٥) وكان قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن الإسماعيلية استخدمت النظريات الأفلاطونية « لكي تنفذ إلى صميم الديانة الإسلامية ، وتعمل على تعديل أحكامها وعقائدها ، وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعاً ستروا وراءه برامجهم الهدامة ، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير » (٥) .

(هـ) ويبدو أن هذه الإشارة - التي أكدها دييور أيضاً (٦) قد وجهت البحوث الغربية وجهة مثمرة ، حتى إن كراتشكوفسكى يقول بعد بضعة عقود : « وضع في الأعوام العشرة

الآخيرة ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنها (أى جماعة إخوان الصفا) قريبة من دوائر الإسماعيلية وتنتصر لمذهبهم » (٧) .

وإذا كان على أن أضيف شيئاً - بحكم تخصصي - فإننى أؤكد أن إخوان الصفا ليسوا إلا مجموعة من دعاة الإسماعيلية « المكاسرين » الذين يمهّدون البيئة العقلية لمبادئ المذهب ، وأن من يقرأ الرسائل وبخاصة « الرسالة الجامعة » سيجد أسس العقيدة الإسماعيلية وتفصيلها في غاية من الوضوح (٨) . على نحو لا يدع مجالاً للشك كما قرر المستشرق كراتشكوفسكى .

وتلك حقيقة لا ينكرها الكتاب الإسماعيليون أنفسهم في الوقت الحاضر (٩) .

وأياً ما كان الاتجاه الفكرى لإخوان الصفا فإن رسائلهم تعد موسوعة شاملة لمعارف عصرهم ، مصوغة في أسلوب سهل ميسر ، يناسب عامة المثقفين حينذاك ، قدمت فيه المعارف الدينية الإسلامية في صياغة باطنية تأويلية ، ممزوجة بالفلسفة اليونانية مع إثارة لاتجاهات الفيثاغورية والأفلاطونية المحدثّة ، وهذا ما يؤكده جولد تسيهر قائلاً : « قد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق وذلك عن طريق إخوان الصفا ،

على حين كادت فلسفة المدرسة الأرسططاليسية لا تثمر إلا في جو صناعي هيأه لها الأمراء» (١٠).

وهذه الموسوعة ، التي يعتبرها أحد الباحثين (١١) « الموسوعة الفكرية الأولى في تاريخ البشرية » ، تتكون من اثنتين وخمسين رسالة ، وتنقسم إلى أربعة أقسام : القسم الأول للعلوم الرياضية والمنطقية - كأنه تمهيد منهجي للفلسفة على الطريقة الفيثاغورية الأفلاطونية - في أربع عشرة رسالة .

والثاني للفلسفة الطبيعية في سبع عشرة رسالة . والثالث للميتافيزيقا وعلم النفس في عشر رسائل . والأخير للتصوف والتنجيم والسحر في إحدى عشرة رسالة .

وتتسم الرسائل بسمات عامة ، لا ينبغي أن تغيب عن ذهن القارئ لها حتى يقدرها تقديرا موضوعيا . من هذه السمات :

١ - أنها عمل موسوعي يلخص علوم العصر ومعارفه بضرب من التبسيط ، وليس كتابها من العلماء الأفذاذ كالرازي أو الجاحظ ، ولا الفلاسفة المبدعين كالكندي أو الفارابي .

٢ - أن كتابها بحكم تأثرهم بالأفلاطونية المحدثه وميولهم المذهبية الإسماعيلية يؤمنون بتأثير الأجرام السماوية العلوية على الظواهر الطبيعية والأوضاع الإنسانية ، كما ألمح إلى ذلك ديبور .

٣ - أن الميول الإسماعيلية لكتابها لم تحل دون العرض الموضوعي في كثير من الأحيان ، وبخاصة عندما لا يسمح الموضوع بتضمينات أو إحياءات مذهبية ، وهناك مؤلفون معاصرون من الإسماعيلية يكتبون بموضوعية وروح علمية كأبي حاتم الرازي في كتابيه « الزينة - وأعلام البنوة » كما نبه إلى ذلك أستاذنا الدكتور إبراهيم بيومي مذكور (١٢) .

٤ - أنها لم تبرأ - بحكم الطابع الغنوصي - لها من نزعة تلفيقية - كما ذكره ديبور أيضا بمحاولتها الجمع المتعسف بين عقائد الأديان المختلفة ومذاهب الفلسفة المتباينة على نحو لا يرضى دينا ولا فلسفة ، حتى اضطر بطرس البستاني في مقدمته للرسائل أن يقرر بأن « كلامهم على يسوع أنه عن ميمنة عرش الرب قد قرب مثواه كما يقرب ابن الأب ، ينطبق على العقيدة المسيحية لا على العقيدة الإسلامية (١٢) » وأنه « مدعاة للشك في إسلامهم » (١٣) .

٥ - أن كتابها مالوا إلى أسلوب رمزي للتخفيف من وقع انتقاداتهم لمذاهب أهل السنة وللمظالم السائدة في عصرهم وقلدوا في ذلك أسلوب كليلة ودمنة ، على نحو يشهد لهم بالبراعة ويدعو دارسى الأدب العربى إلى تناول هذه الناحية المبتوثة فى رسائلهم بالدراسة الجادة .

٦ - أن كتاب الرسائل وإن حاولوا إبداء موقف معتدل بين الفلسفة والدين ، بل اشترطوا تعليم الدين فيمن يشتغل بها : « .. فأما من قد تعلم علم الشريعة ، وعرف أحكام الدين ، وتحقق أمر الناموس ، فإن نظره فى علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيده فى علم الدين تحقّقاً ، وفى أمر المعاد استبصاراً » (١٤) إنهم وإن حاولوا ذلك ، قد كانوا فى كثير من الأحيان يعدلون إلى جانب الفلسفة والتأويلات المذهبية المتطرفة ، مما يجعل حكم أبى حيان عليهم فى هذا الشأن حكماً غير جائز : « إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . » (١٥)

ولعلنا الآن نستطيع أن نتناول الجانب الجغرافى من الرسائل بالتلخيص ، ثم بالتعليق والتقويم بإذن الله .

- ٢ -

أفرد إخوان الصفا للجغرافيا رسالة خاصة من رسائلهم هى « الرسالة الرابعة » من القسم الأول الخاص بالعلوم الرياضية والمنطقية ، متوسطة بين الرسالة المختصة بالفلك والرسالة المختصة بالموسيقى . وهذا فى حد ذاته قد يوحى بالطابع العام لفكرهم الجغرافى ، وأنه من جهة يربط بين الأرض والسماء ، والجغرافيا والفلك والعلم والدين كما يهتم بالأعداد وأسرارها والحروف وخصائصها ، أى أنهم معنيون بالجغرافيا الفلكية الرياضية (١٦) ، ويعتبرون ذلك - مع المنطق - تمهيداً للدراسة الفلسفية : وفى الطبيعة والميتافيزيقا . وناحية شكلية أخرى وهى إشارتهم تسمية العلم - لأول مرة فى التراث الجغرافى العربى (١٧) - باسمه القديم معرباً « جغرافيا » مع تفسيره بالعربية « يعنى صورة الأرض والأقاليم » (١٨) ، وكان من قبلهم يؤثر ترجمته بصورة الأرض أو تقويم البلدان أو غير ذلك ،

وهذه سمة غالبية على طريقتهم مع أكثر المصطلحات المنطقية وبعض المصطلحات الأخرى ، مما قد يوحى برغبتهم فى الإشارة إلى المصدر اليونانى لهذه المعارف ، وتلك ناحية قد نعود إليها فيما بعد .

على أن الرسالة الرابعة المكرسة للجغرافيا ليست هى وحدها المتعلقة بالبحث الجغرافى ، فإن رسائل أخرى فى هذا القسم الأول ، وفى الأقسام الثلاثة الأخرى تحتوى مباحث جغرافية لا يخطئها قارئ الرسائل وقد لا تقل قيمة عما تتضمنه رسالة الجغرافيا من الناحية العلمية .

وسنعرض بإيجاز مضمون (الرسالة الرابعة) ثم نشير فى سرعة إلى بعض المواضع فى الرسائل الأخرى فيما يلى :

(أ) تبدأ الرسالة بالتنبيه إلى أن هدف البحث هو معرفة الوقائع بعلمها صعودا إلى العلة الأولى ، مما يتسق مع منهج «الإخوان» فى ربط العلم بالدين . يلى ذلك بيان أن الأرض هى مركز العالم طبقا للمعارف السائدة زمن التأليف ، وتعليل البحث فى أحوال الأرض بأنها منشؤنا وإليها معادنا ، وأنها منطلقنا إلى عالم البقاء ، ثم إشارة إلى أهم محتويات الرسالة وهى الأقاليم السبعة ، لتعود إلى هدف البحث وأنه الاعتبار : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانه ﴾ (١٩) .

بعد هذه المقدمة يتناول الفصل الأول (صفة الأقاليم وما فى الربع المسكون من الأرض) فيحدد موقع الأرض ، والجهات الست ، وحجم الأرض وطول قطرها ، ومركزها حسب علم الهيئة لا فى التوهم العامى ، ويذكر توالى الأفلاك صعودا من مركز الأرض ، وحادبة الأرض أو تكورها (٢٠) .

تلى ذلك فقرة خاصة بذكر (وقوف الأرض فى وسط الهواء) وفيها تعليل لثباتها فى موقعها بالجذب : جذب القلب لها من جميع جهاتها بالسوية ، أو جذب المركز لجميع أجزائها حسب ثقله من جميع الجهات إلى الوسط أو بالدفع ، وتساوى قوة الدفع من جميع الجهات . ويعد هذا التفسير العلمى يأتى تفسير دينى هو أن الإرادة الإلهية خصت كل جسم حسب عنصره بموقع خاص ، وكل كوكب من الكواكب بموضوع مخصص ، وهو - كما تقول الرسالة .. «أشبه الأقاويل بالحق» (٢١) ربما لأنه يؤكد فكرة المراتب والاصطفاء الإلهى مما يزكى موقف القوم من الإمامة .

وفقرة أخرى فى الفصل نفسه عن (طبقة الأرض وقسمة أرباعها) تُصورها فيه كرة نصفها غاطس فى الماء والنصف الآخر بارز ، وهو ينقسم قسمين أو ربعين بخط الاستواء :

الجنوبى منهما غير مسكون والشمالي هو الربع المسكون من الأرض ، وفيه بحار سبعة فى كلّ عدة جزر ، ويحدد مواقع هذه الأبحر ، بعد أن يقدم رسماً بسيطاً يوضح أقسام الأرض (٢٢) . يليه بيان للجبال فى هذه المنطقة المأهولة . ويختم الفصل ببيان صفة الأقاليم السبعة وأبعادها موضحة بالشكل الذى يسميه مثالا (٢٣) .

ويبدأ الفصل الثانى - كأكثر الفصول - بمناداة القارىء « بالأخ البار الرحيم » والدعاء له ، وهو أسلوب فى التودد إلى القارىء لا بأس به لولا بعض سرف فيه ، ثم تنبيهه إلى أن حدود الأقاليم السبعة ، التى وردت فى ختام الفصل السابق ، إنما هى حدود وهمية - وليست أقساماً طبيعية - وضعها المستكشفون لحدود تلك البلاد ، ومسالكها - وهنا ترد أسماء بعض ملوك الأمم ولامشاحة فى أن للعوامل السياسية أثراً فى الاكتشافات وتقدم المعارف الجغرافية ، ثم يذكر لاقتصارهم على الربع المأهول أسباباً طبيعية قد لا تكون دقيقة ولكنها تلمح إلى أثر العوامل الجغرافية فى التوزيع السكانى على الكرة الأرضية ، منبهاً إلى أنها على اتساعها ليست إلا كالنقطة

فى دائرة الأفلاك الواسعة ، وإن كانت - كما مر بنا آنفاً - هى النقطة المركزية ؛ « وذلك أن فى الفلك ألفا وتسعة وعشرين كوكبا ، أصغر كوكب منها مثل الأرض ثمانى عشرة مرة ، وأكبرها مائة وسبع مرات .. » (٢٤) ، وتلك أرقام وحجوم غير صحيحة الآن ، ولعلها غير دقيقة بمقياس ذلك الزمان ، ولكنها تدعو القارىء - كما ينصحه الإخوان - إلى التفكير فى عظمة الخالق القائل : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ صدق الله العظيم .

أما الفصل الثالث - وهو أطول الفصول ، بل يقرب من نصف حجم الرسالة فإنه يبدأ ، كما انتهى سابقه ، بموعظة للقارىء ألا تشغله مطالب العيش والشهوات والطموحات الدنيوية الزائفة عن « طلب العلم ومعرفة حقائق الأشياء . حتى إذا فنى العمر خرج من هذه الدار جاهلاً ، لم يعرف صورتها ، ولم يفكر فى الآيات التى فى آفاقها ، ولا اعتبر أحوال موجوداتها .. » (٢٥) ، فيكون كواحد من السائحين دخلوا مدينة ملك حكيم عادل أقام لهم الموائد ، ودعاهم إلى لقائه تكريماً وحفاوة وإلى السياحة فى المدينة طلباً للحكمة والمعرفة ، فشغلتهم الموائد عن الاعتبار

بما فى مدينة الملك من الآيات والغرائب ، التى كان من الممكن أن يصيروا برؤيتها «حكماء أخياراً فضلاء»^(٢٦) فيصلون إلى حضرته ، ويستحقون كرامته ، لكنهم خرجوا من مدينته لم ينالوا منها إلا الطعام والشراب .. وهذا لعمري سمو أى سمو بقيمة المعارف الجغرافية وأثرها التربوى والروحى ، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه الصفات «حكماء أخياراً فضلاء» هى مراتب فى الدعوة حسب السن والخبرة عند إخوان الصفا^(٢٧) ، وإذن فهذه دعوة مذهبية ، بل تنظيمية ، مغلفة بالموعظة الروحية ، وقد يشى بذلك دعاؤهم للقارىء : «وفقك الله أيها الأخ البار الرحيم [هذان هما وصفا من يصلح للدعوة]^(٢٨) للسداد ، وهداك للرشاد ، وجميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد ..»^(٢٩) .

وبعد هذه المقدمة الدعوية يحدد الإخوان موضوع الفصل الثالث «نريد أن نذكر الأقاليم السبعة ونبين حدودها طولاً وعرضاً وما فى كل إقليم من المدن الكبار والجبال والأنهار الطوال»^(٣٠) ، ثم يذكرون أن أساس تقسيم هذه النطاقات الهندسية شمالى خط الاستواء المسماة بالأقاليم السبعة إنما هو التفاوت فى طول وقت النهار مشيرين إلى أن ذلك مأخوذ

من كتاب «المجسطى»^(٣١) وهو تصريح بمصدرهم الأساسى وهو المدرسة اليونانية - الإسكندرية .

ثم يبينون أن ما سيوردونه بعد فى هذا الفصل من قوائم المدن والمواضع سيذكر فيه درجة العرض ، والمقصود بها بعد المكان عن خط الاستواء ، ودرجة الطول والمقصود بعده عن أقصى المغرب ، وأن المسافة من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق هى مائة وثمانون درجة كل درجة تسعة عشر فرسخاً ، ثم يذكرون على هذا الأساس كيفية تحديد المواقع على وجه الإجمال .

ترد بعد ذلك أسماء المدن الكبار ، بدءاً بما ليس منها فى الأقاليم السبعة لقربه من خط الاستواء مقرونة كل منها بدرجة طولها معبراً عنها بحساب الجمل : وهى «بشمير من الهند [كذا بالباء] ، جزيرة كوك من الهند ، مدينة الطيب من الهند ، وحضرموت من اليمن ، رعاه من الحبشة ، كوكو من الحبشة»^(٣٢) وربما كان تحديد مواقع هذه المواضع من خط الاستواء كما نعرفه الآن تعوزه الدقة ، غير أن ما يلفت النظر أن هذه الأعلام الجغرافية وأمثالها - مع الأخذ فى الاعتبار آثار التحريف والتصحيح فى المخطوطات والمطبوعات غير المحققة - جديرة بدراسة متخصصة .

ثم يتعرضون للإقليم الأول ، ناسبين إياه إلى زحل ، محددين طوله وعرضه بالأميال والفراسخ ، وتفاوت طول النهار فيه ، فيذكرون أن « في هذا الإقليم من الجبال الطوال نحو عشرين .. وفيه من المدن المعروفة نحو من خمسين ، وابتداء هذا الإقليم من المشرق على شمال جزيرة الياقوت ، فيمر على بلاد الصين مما يلي الجنوب ، ثم على شمال بلد سرنديب ، ثم على وسط بلاد الهند ، ثم يمر على وسط بلاد السند ، ثم يقطع بحر فارس مما يلي الجنوب بلاد عمان [كذا] ، ثم يمر على وسط بلاد الشحر ، ثم يمر على وسط بلاد اليمن ، ثم يقطع بحر القلزم هناك ، ويمر على وسط بلاد الحبشة ، ويقطع نيل مصر هناك ، ثم يمر على بلاد النوبة ، ثم يمر على وسط بلاد البربر وبلاد البوای ، ثم يمر على جنوب بلاد مرطانة ، وينتهي إلى بحر المغرب - بحر الظلمات - وعامة أهل هذه البلاد سود» (٣٣) ثم يوردون بعد ذلك أسماء المدن الكبار في هذا الإقليم مقرونة بدرجات الطول والعرض على النحو المشار إليه آنفا : « مدينة في أقصى الصين ، مدينة في جزيرة الصين ، أسقريار وهي من الصين ، ماسيوبا من الهند ، حارون

من الهند ، سقلی من السند ، عُمان من بلاد العرب [على العين نقطة في طبعة صادرا] ، المید من السند ، مدينة أخرى على البحر ميلا عدن من اليمن ، دنقلة من بلاد نوبة ، كوض وواعلة منه [كذا] ، مملكة الحبشة ، حرمة الكبرى» (٣٤) وإنما أطلت النقل هنا ليكون نموذجا لما يوردونه عن الأقاليم الستة التالية من المواضع ، فهو مماثل لذلك حتى نهاية الفصل ، اللهم إلا في اختلاف أسماء الأماكن ودرجاتها ، ولعل فيما أوردناه كفاية لأن يجذب نظر عالم متخصص فيجعل هذه النصوص من الرسائل موضع دراسة تفصيلية .

ويذكر الفصل التالي - وهو الرابع - اختلاف خواص الأقاليم السبعة ؛ من حيث السكان وأحوالهم ، والحيوان ، والمعادن ، والمناخ ، والتربة ، وموارد المياه ، على وجه الإجمال وينسبه إلى اختلاف طوابع البروج ودرجاتها على آفاق تلك البلاد ، مع الاعتراف بأن ذلك مما يطول شرحه (٣٥) وبعد الإشارة إلى العوامل الطبيعية السابقة المؤثرة في تمدن الربع المسكون من الأرض الذي قيل إنه يحوى ١٧,٠٠٠ مدينة سوى القرى (٣٦) ، يذكرون - جريا على معتقداتهم ، وما شاع في عصرهم ثم أحكام القرانات وما يترتب

عليها من قوة السعود ، وأدوار الأفلاك
الألوف - وهذه إسماعيلية - وما ينشأ عن
ذلك كله من « اعتدال الزمان واستواء
طبيعة الأركان ، ومجىء الأنبياء ، وتواتر
الوحي [كذا] ، وكثرة العلماء ، وعدل
الملوك .. » (٣٧) ثم يذكرون النحوس وما يترتب
عليها من تغيرات طبيعية ونفسية وثقافية
سيئة ، وهكذا يدور الزمان بالبشر قرناً بعد
قرن ، ومن أمة إلى أمة ، ومن بلد إلى بلد .

ويتصل الخطاب في الفصل التالي - وهو
الخامس ، يليه فصل الختام - بين الإخوان
وقارئهم حول تطور الدول وأن لكل دولة
عمرها يبدأ بالنشأة ، ويبلغ النضوج ، ثم ينتهي
إلى الانحطاط والنقصان ، لتنشأ دولة أخرى
وتعلو ، وتراجع الأخرى ، مما يذكرنا نحن
بنظرية ابن خلدون فيما بعد ، وإن كانت طبيعة
التفسير لهذه الظواهر التاريخية مختلفة ،
أما أصحابنا هؤلاء فيفسرونه بأثر الكواكب
واختلاف الظروف الطبيعية وما يترتب عليها
في أوضاع البشر ﴿ وتلك الأيام ندوالها بين
الناس ﴾ .

ثم يأتي فصل الختام مبشراً القراء بقرب
سقوط دولة الشر ، حيث بلغت أوجها ومالت
إلى الشيخوخة والضعف ، مما يصلح وصفاً
لأوضاع الدولة العباسية حين ظهور الرسائل ،

وبدء اختلالها وضعفها ولكن البديل وهو دولة
الخير لن تقوم إلا إذا سبقتها دعوة جامعة « من
قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء ، يجتمعون
على رأى واحد ، .. ودين واحد ، ويعقدون
بينهم عهداً وميثاقاً .. ويكونون كرجل واحد
في جميع أمورهم ، .. فهل لك أيها الأخ
البار الحكيم بأن ترغب في صحبة إخوانك
نصحاء ، وأصدقاء لك أخيار فضلاء .. بأن
تقصد مقصدهم ، وتتخلق بأخلاقهم ،
وتنظر في علومهم ، لتعرف مناهجهم ، وتكون
معهم .. » (٣٨) .

وهكذا تنتهي رسالة « الجغرافيا » بدعوة
واضحة إلى تغيير سياسى بناء على ثورة
ثقافية أو مذهبية ، هي شيعية إسماعيلية في
حقيقتها ، لتغيير الأوضاع السائدة في العالم
الإسلامى ، وفى وقت كانت دولتهم قد ظهرت
في المغرب وأخذت طريقها إلى قلب العالم
الإسلامى عن طريق مصر . مما يؤكد مقالة
ديبور وغيره « إن الفلسفة قد انقلبت على يد
إخوان الصفا إلى أحلام سياسة » (٣٩) .

(ب) إذا كان الغرض السابق لمحتوى
الرسالة المتخصص كافياً لإلقاء
الضوء على طبيعة المعارف

الجغرافية فى رسائل إخوان الصفا ،
فربما جاز لنا أن نشير إشارات
سريعة إلى مواطن أخرى من
الرسائل ذات أهمية خاصة فى هذا
الصدد ، ولئن كانت رسالة
الجغرافيا تهتم بالجوانب الطبيعية
فإن النماذج التالية تبين اهتمام
القوم بالجوانب الأخرى من الفكر
الجغرافى :

١ - فمن ذلك ما تحويه رسالة
«الأسطرونوميا فى علم النجوم» من اهتمام
بتركيب الأفلاك ، وعلاقات الكواكب ، وحركة
البروج .. وسائر مسائل علم الهيئة ، التى
يستدل بها - فى علم الأحكام - على
الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر^(٤٠) ،
ولا ينكر تأثيرها على الأحوال الجغرافية
وآثارها فى الكائنات أثناء حدوثها كما مر بنا
فى رسالة الجغرافيا . وكثير ما تضمه الرسالة
الفلكية يدخل فيما يعرف بالتراث الجغرافى
بالجغرافيا الفلكية ، وهذه ناحية كان الإخوان -
بحكم اتجاههم المذهبى - معنيين بها إلى حد
كبير ، كحركة الكواكب وآثار كل من زحل
والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد والقمر على
أحوال الأرض ، وسائر الكائنات والفسادات
تحت فلك القمر^(٤١) .

٢ - ومن المواضع الهامة أيضا ما
تتضمنه الرسالة الرابعة من المجلد الثانى
الخاص بالقسم الطبيعى ، وهى تتناول الآثار
العلوية أو الظواهر الجوية ، فتدرس آثار حركة
الكواكب على الجو بوجه عام^(٤٢) وتكون
الأبخرة والسحب والبروق والرعود وقوس
قزح^(٤٣) ، ثم يتناول ظواهر الأمطار ،
والشهب ، والمذنبات ، مما يدخل فى ميدان
الجغرافيا الطبيعية^(٤٤) ، مع تعرض فى أثناء
ذلك لبعض الآيات القرآنية وتأويلها على نحو
خاص مما يتعلق بالرجوم والشهب^(٤٥) ، وهى لا
تخلو من مغزى علمى ومذهبى .

٣ - وربما كانت الرسالة الخامسة من
المجلد الثانى - الطبيعيات - الخاصة بتكوين
المعادن ذات أهمية فيما نحن بصددده ، غير أن
الرسالة الثامنة من نفس المجلد هى أكثر أهمية
فهى تتناول مسائل تدخل فى الجغرافيا الحيوية
من أحوال النبات والحيوان^(٤٦) ، واختلاف
حيوان كل جهة عن حيوان الأخرى بسبب البيئة
وغيرها^(٤٧) ، وتصنيف الحيوانات على أساس
مرتبتها من التطور ونوع حركتها ومناطق
وجودها^(٤٨) ، وكذا الطيور وأحوالها المختلفة
التى حظيت بعناية ملحوظة^(٤٩) أيضا ، إلى
آخر ما تتضمنه الرسالة من أدب جغرافى ذى
أهمية موضوعية وتاريخية فى وقت معا .

لعلنا بعد العرض السابق لمعالم ما تحويه « الرسائل » من أدب جغرافى ، نستطيع أن نستخلص سمات عامة لهذا الأدب ، وأن ندلى بكلمة تقييمية حوله ، مع التحفظ الواجب على قارئ غير متخصص مثلى لهذه الموسوعة المعرفية ، حتى ولو استهدى بآراء المتخصصين :

١ - لا ينكر أحد من الباحثين - فى مدى علمى - الأهمية البالغة لإخوان الصفا كظاهرة ثقافية ، وللرسائل التى كتبوها كأثر علمى متميز ، وذلك على مستوى تاريخ الأفكار العلمية والفلسفية والتطور الثقافى العام ، وإن اختلفت كلمتهم فى قيمة هذه الرسائل وما تحويه من مادة علمية من حيث الدقة أو الطابع الإبداعى . وقد يمثل هذا الرأى المزدوج قول كراتشكوفسكى عن الرسائل وأصحابها كمؤرخ للفكر الجغرافى العربى : « .. فيما عدا القسم الخاص بالجغرافيا ، فإن المعطيات الجغرافية تتناثر فى بقية الرسائل وهى لا تخلو من أهمية فى بعض الأحيان رغما من أنها قليلا ما تتميز بالأصالة ... وفى الأعوام العشرة الأخيرة فقط ، عندما وضحت طبيعة علاقتهم بحركة الإسماعيلية أصبح فى حيز الإمكان فهم أفكارهم ، داخل الإطار العام

للقرن العاشر . أما بالنسبة للأدب الجغرافى - وذلك فى مفهومه المستعمل فى هذا الكتاب - فإن هذه الرسائل ترتبط به ارتباطا غير مباشر ، لكنها لا تخلو من أهمية فى تحديد مدى الاهتمام بالجغرافيا ؛ لأنها تمثل أثرا ممتازا فى نطاق التاريخ الثقافى لذلك العصر » (٥٠) .

٢ - أشرنا فيما سبق إلى موقف إخوان الصفا من الفلسفة ، والفلسفة اليونانية بوجه خاص والأفلاطونية المحدثة بوجه أخص ، ويبدو أن هذا الموقف ألقى بظلاله على بحوثهم الجغرافية ومصادرها ، وربما جاز لنا أن نعود مرة أخرى إلى كراتشكوفسكى : « أحاطت رسائلهم بجميع المعارف التى كانت سائدة فى ذلك العصر .. مع جنوح إلى المذهب اليونانى ، واختيار المادة عندهم يتخذ طابعا انتقائيا ملحوظا ، فالأساس عندهم هو الثقافة اليونانية والعلم اليونانى ، ولكن يبصر لديهم بوضوح أيضا نفوذ الثنائية الغنوصية .. وفى صلتهم بالعلم اليونانى .. فإن أرسطو كان يأتى عندهم فى المرتبة الثانية عند مقارنته بهرمس وسقراط وأفلاطون وفيثاغورس .. » (٥١) ، وقد مر بنا فيما نقلناه من نصوصهم إحالتهم قارئ الرسائل على بطليموس ، على أنه من المعروف أن لنظرية الفيض الأفلاطونية أثرا بالغاً فى العقائد الإسماعيلية سبق الإلماح إليه .

٣ - أيا كانت قيمة الرسائل من الناحيتين العلمية والفلسفية فقد مارست تأثيرا واضحا على معاصريهم وعلى العصور التالية ، وفى الفصل الهام الذى كتبه ديبور عن الفلسفة والعلم عند إخوان الصفا أثبت تأثيرهم حتى على خصومهم من أهل السنة (٥٢) ؛ وهذا ما يشاركه فيه باحثون آخرون (٥٣) . ويبدو أن شهرة الجماعة قد تجاوزت « بسرعة فائقة حدود موطنهم .. بل حدود الأدب العربى بمعناه الضيق . فمنذ نهاية القرن العاشر نشر تعاليمهم بالأندلس مسلمة المجرى (إقليدس الأندلس) . وفى القرن الثالث عشر وقع تحت تأثيرهم الكاتب السريانى يعقوب بن ساويرس .. وفى القرن الرابع عشر نقلت رسائلهم إلى الفارسية فى دولة تيمور . كما أن أجزاء متفرقة منها وجدت طريقها إلى أوربا الوسيطة . ويرجع الفضل فى تعريف الدوائر العلمية المعاصرة بهم إلى (ديتريتش) الذى أفرد لهم أكثر من عشرين بحثا فى ترجمة وتحليل معظم الرسائل ... (٥٤) وينوه بعض الباحثين بأثرهم على بعض البحوث الجغرافية عن المسلمين ، كالجغرافيا الحيوية والجغرافيا الطبيعية بالإضافة إلى الجغرافيا الإقليمية (٥٥) .

٤ - وأخيرا ، فإن جغرافيا إخوان الصفا لا تخلو من مسحة مذهبية ظاهرة ، سواء فى التفسيرات غير العلمية لأثر الكواكب التى ربما ترجع إلى نظرية الفيض الأفلاطونية أو ما يشبهها من عقائد إسماعيلية (٥٦) ، أو فى الطابع الدعوى الذى يتخلل الرسائل وتوظف من أجله المعارف العلمية (٥٧) ، أو فى عنايتهم بما يدخل فى باب الجغرافيا الثقافية أو الدينية كالاختلافات الواقعة بين الأديان المختلفة ، وبين طوائف المسلمين «ومنها اختلاف فى ألفاظ التنزيل كالذى بين القراء ، ومنها اختلاف فى المعانى كالذى بين المفسرين ، ومنها اختلاف فى أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية كالذى بين المقلدين [= أهل السنة] والمستبصرين [=الإسماعيلية] ، فيها اختلاف فى الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذى بين الشيعة ، ومنها اختلاف فى أحكام الشريعة وسنن الدين كالذى بين الفقهاء...» (٥٨) وهو تقسيم جيد لهذه الأوضاع فى عصرهم بصرف النظر فى تطبيقه ، وقد نجد محاولة شبيهة بذلك بل أكثر تفصيلا عند المقدسى (٥٩) المعاصر لكتاب «الرسائل» ، وتلك ناحية هامة نحن فى أمس الحاجة إليها فى دراسة أحوالنا العقلية مع تحديثها حيناً بعد حين .

لكننى إن كنت قد بلغت بعضاً مما حددته
من أهداف فى مطلع هذا البحث فإننى أعترف
بأنى لم أحقق مطمحاً شخصياً كان ضمن
دوافعى إلى القيام به وهو معرفة «الجزر
الاثنا عشر» التى قسم الإسماعيلية العالم
إليها فى تنظيماتهم لمؤسسة الدعوة التى
فاقت تنظيم أقوى الدول المعاصرة
لشئون دعايتها ، كما يقرر أحد أكبر

الخبراء فى الموضوع ، وهو المرحوم الدكتور
محمد كامل حسين ، الذى قال: «تحديد الجزائر
لم يزل سراً لم يستطع الباحثون الوصول
إليه»^(٦٠) ، وذكر أن محاولة إيفانوف فى هذا
الصدد لم تنته إلى شىء محدد^(٦١) . وربما كان
فى ذلك بعض العزاء لى شخصياً .
وآخر دعوانا - على كل حال - أن الحمد لله
رب العالمين .

حسن الشافعى
عضو المجمع

الاعلام الجغرافية عند الطهطاوى

للأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى

أولاد : الإطار العام :

١ - تعد كتب رفاة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢) - رائد الفكر العربى الحديث - مصدرا مهما لتعرف قضايا اللغة العربية فى بداية النهضة الحديثة فى عدد كبير من المجالات . إن مؤلفاته ومترجماته وتعليقاته تقدم لنا مادة وفيرة لبحث الاعلام الجغرافية من الجوانب اللغوية والمعرفية المختلفة . ويركز هذا البحث على هذا الموضوع فى ضوء ثلاثة كتب للطهطاوى ، أقدمها « قلائد الفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » (القاهرة ١٢٤٨ هـ - ١٨٣٢ م) نصه المترجم من الفرنسية إلى العربية فى ١١٢ صفحة وألف له الطهطاوى سابقة مطولة فى مائة وخمس صفحات ، تضم معلومات عن البلدان والشعوب . وكان الطهطاوى على وعى بأنه فى مرحلة تحول لغوى مهمة صنع هذه الصفحات وحدد عمله فيها بأنه « شرح الكلمات الغربية التى توجد فى كتاب قلائد الفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر ، مرتبة على حروف المعجم مضبوطة حسب الإمكان ومفسرة على الوجه الأتم سواء كانت أسماء بلدان أو أشخاص أو أشياء .

ولما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية فلم ترتب إلى الآن فى كتب اللغة العربية ، وكان يتوقف فهم هذا الكتاب عليها عربنا بأسهل ما يمكن التلفظ به على وجه التقريب ، حتى إنه يمكن أن تصير على مدى (فى الأصل : مدا) الأيام دخيلة فى لغتنا كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية » (ص ٢) ، وهنا نجد وعى الطهطاوى بأهمية معرفة الألفاظ التى وصف أكثرها بأنه دخيل ومعرب وضرورتها لفهم الكتب الحديثة جعل من واجبه أن يحصرها ويشرحها .

كان الطهطاوى مدركا فى الوقت نفسه لطبيعة عمله اللغوى فى هذا المجال ، فهو يقوم لبنه فى صرح معجم العربية عبر القرون من خلال إضافات مهمة ، كتب الطهطاوى : ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب ترجم لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك ، فإن هذا يفيد التسهيل على الطلاب وبه تحصل

ألقى هذا البحث فى الجلسة العاشرة بتاريخ ٤ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٤ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » (٢) .
وهذه الفكرة ظلت أمام الطهطاوى فى عدد من كتبه ، فهو مدرك لكونه فى مرحلة جديدة فى تاريخ العربية ، وأن إكمال المعاجم العربية بالجديد يمكن أن يتم من خلال حصر الألفاظ المستحدثة تمهيدا لعمل معجم شامل لها أطلق عليه الطهطاوى اسم « قاموس » وهى الكلمة التى استقرت بعد ذلك إلى جانب كلمة معجم تسمية لهذا النوع اللغوى من الأعمال المرجعية.
٢ - يمثل البعد الجغرافى أهمية خاصة فى مقدمة كتاب « تخلص الإبريز فى تلخيص باريز » (القاهرة ١٨٣٤) للطهطاوى إلى جانب البعد التاريخى الحضارى والبعد المتصل بتاريخ العلم ، خصص الطهطاوى الباب الثالث من المقدمة « فى ذكر وضع البلاد الإفرنجية ونسبتها إلى غيرها من البلاد » (طبعة حجازى ص ١٥٣) ، وهنا نجد صفحات تضم معلومات جغرافية عن القارات ، ويسمىها الطهطاوى الأقسام (ص ١٥٣ - ١٥٧) وفى سياق تفصيل المعلومات عن فرنسا نجد الطهطاوى يشرح بعبارة عدد من الأعلام الجغرافية شرحا مفصلا من الجوانب اللغوية إلى جانب تدوينه لمئات الأعلام الجغرافية حتى إن الكشف المعجمى الذى أضيف فى أحدث

الطبقات يضم أكثر من خمسمائة علم جغرافى وردت فى صفحات الكتاب .

٣ - ترتبط ريادة الطهطاوى فى الجغرافيا بترجمته لكتاب كبير ، هو « الجغرافية العمومية » تأليف ملطرن ، وهو عمل كبير ذو أهمية فى دراسة الأعلام الجغرافية من الناحية اللغوية . ولما كان الكتاب قد تناول الكشف والقارات والدول والنظم والأصول التاريخية وغير ذلك فقد وردت به آلاف الأعلام الجغرافية والأسماء المختلفة لأماكن كثيرة على مدى القرون . وهذه المادة لها أهميتها فى التاريخ اللغوى ، وعلى وجه الخصوص من ناحية المعرفة بالاسم العربى والمقابل الأوروبى وكذلك من ناحية المعرفة بالاسم القديم والاسم الجديد مما يفيد - أيضا - فى جانب من علم اللغة ، وهو تاريخ المفردات العربية أو بعبارة أكثر تحديدا : التاريخ اللغوى للأعلام الجغرافية .

ثانياً: التأصيل التاريخى للأعلام الجغرافية :

١ - اهتم الطهطاوى بالتأصيل العربى لعدد من الأعلام الجغرافية التى لها ذكر فى التراث . نجد أمثلة لهذا كله فى أسماء الأماكن فى الأقطار العربية والبلاد المعروفة للعرب . يرد الطهطاوى الأعلام الجغرافية إلى

صيغها العربية في التدوين بغض النظر عن صيغها الأوربية وليس ثمة مشكلة عنده في رد الأسماء إلى صيغها العربية المألوفة : حلب ، حماة ، بغداد ، تونس ، عكا (تخلص ٢٠٠) ، صور (تخلص ١٤٥) . أما المناطق التي كانت معروفة للعرب ، ومنها أرمينية (تخلص ١٥٤) ، الهند (تخلص ١٥٥) ، قبرص (تخلص ١٥٤) ، جاوة (تخلص ١٥٩) ، فقد ذكرها الطهطاوى بأسمائها المألوفة في التراث العربى .

٢ - التاصيل العربى لأسماء الأماكن فى الأندلس وصقلية ،

شغل الطهطاوى بذكر الأعلام الجغرافية فى الأندلس وصقلية اعتمادا على الصيغتين العربية والأوربية . اسم صقلية ذكر بثلاث صيغ : صقالية ، صقلية ، صقلية ، إلى جانب النص على أنها فى وقت الطهطاوى « شهيرة باسم «سيسيليا» بالمهملتين أو المعجمتين المكسورتين » (قلائد ٥٨) ، أما مدينة غرناطة فقد ذكرت بصفتين ، هما الاسم العربى «غرناطة» بتحريك الغين ، وبصيغة أخرى تقوم على أساس قاعدة تجنب البداية بصامتتين ، فى

مقابل Granada نجد : إغرناطة ، ويذكر فى شرحه معنى الكلمة : « وهى معربة من لغة إسبانيا عن إغرناطة التى معناها رمانة » (قلائد المفاخرة) ، وثمة أعلام للأماكن لها صيغة عربية واحدة اعتمدها الطهطاوى إشبيلية أو أشبيلية (تخلص الإبريز) .

٣ - التاصيل العربى لأسماء الأماكن فى أقاليم أسيا والمحيط الهندى ،

تشكل الأسماء فى جنوب شرقى أسيا موضوعا عنى به الطهطاوى ، وعن جزيرة سومطرا كتب : « وفى الكتب العربية يقال لها سبرمة بضم السين المهملة وسكون الموحدة وفتح الراء والميم فتاء تأنيث ، وقال بعضهم إنها مسماة فى كتب العربية سمندر بفتح السين والميم وسكون النون وفتح الدال فراء ، والظاهر جزيرة سمندر هى ما يسمى عند الإفرنج مدا غشقار بجزائر إفريقية » (قلائد ٥٤) ، أما الجزر التى عرفها الرحالة والتجار العرب فحاول الطهطاوى رد أسمائها إلى صيغتها العربية عن اسم جزيرة سيلان كتب : « ثم إن بعض الإفرنج جعل هذه الجزيرة هى المشهورة فى كتب العربية باسم جزيرة سرنديب (قلائد ٥٥) .

٤ - تأصيل أسماء الأماكن فى القارة الأوربية :

أصل الطهطاوى عددا من الأعلام الأوربية من ذلك اسم باريس « ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الأطراف والحواشى » (تخلص الإبريز ١٩٦) . وذكر الطهطاوى فى تأصيل كلمة « أولمبية » أنها « نسبة إلى أولمبيا مدينة من مدن الموراكان اليونان يعلنون بقربها كل خمس سنوات لعبا مخصوصا » (قلائد المفاخر ١٣) .

ثالثا : القضايا الصوتية :

١ - طريقة الضبط :

اعتمد الطهطاوى العرف القديم فى الضبط بتسمية الحروف وحرركاتها أو سكونها ، وعند تعدد صيغ الاسم يكتفى بضبط الصيغة المختارة أبريزلة بسكون الموحدة وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فزاي مكسورة فتاء تأنيث ، ويقال أيضا أبريزلة وأبرزيل بفتح الراء » (قلائد ٢) .

٢ - الاعتماد على النطق الفرنسى :

أكثر اعتماد الطهطاوى بالنسبة للأعلام الجغرافية فى أوربا والعالم الجديد على الصيغة الفرنسية لها . كتب لندرة Londrès ، ولم

يعتمد الصيغة الإنجليزية London واسم الإقليم الألمانى Schwaben نقل على أنه سوابيا بضم السين المهملة فواو بعدها ألف ، وقد يقال صوابيا أو صوابة بالصاد المهملة إقليم من أقاليم ألمانيا « وكل هذه الصيغ لا تبدأ بالشين الألمانية ، بل قامت على أساس الصيغة الفرنسية لعلم جغرافى ألمانى ، وكذلك اسم الشعب : ألمان وليس Deutsch وكذلك ريوجانيز (تخلص ١٥٧) .

٣ - تجنب البداية بصوتين صامتتين :

البنية المقطعية للعربية تجعلها تتجنب البداية بصامتتين على عكس لغات أخرى ، منها الفرنسية حيث يجوز بدء المقطع بصامتتين ، كان الطهطاوى يحول هذا النمط إلى العربية باحدى طريقتين إضافة همزة وحركة قبل الصامت الأول أو إدخال حركة بين الصامت الأول والثانى :

- إبريزيل Brésil ... (قلائد ٢)

- إغرناطة .. Granada .. (قلائد ٥)

- فرانس France (تخلص ١٦١ ، ١٧٦)

- برونسة ... Provence (قلائد ٢٧)

رابعاً : تدوين الأصوات الأجنبية بالحروف العربية :

١ - تدوين صوت Q / C / K

هذا الصوت نقله السريان إلى القاف تجنباً لمشكلة الصورتين الصوتيتين للكاف في السريانية ، فكانت صورتها الصوتية بعد أية حركة قصيرة أو طويلة تجعلها خاء ، وكان الحل المنشود يجعل تدوين صوت K / بحرف القاف العربية ، وقد استمر هذا العرف وأفاد منه الطهطاوى إلى حد بعيد ، وذلك مثل : موسقو (قلائد المفاخر ٢) ، قلقوطا (قلائد المفاخر ٧١) أو قيانوسية (تخلص الإبريز ٥١٤) قورسقة (تخلص الإبريز ١٨٠) ، نوبرق (تخلص الإبريز ١٥٧) ، ولكن ثمة أمثلة لتدوين هذا الصوت بالكاف العربية : أمريكة (قلائد المفاخر ٢) ، (بلاد) مكسيك (تخلص الإبريز ١٥٧) . وهذا العرف الجديد بدأ محدوداً عند الطهطاوى ثم استقر بعد ذلك .

٢ - تدوين صوت T :

هذا الصوت نقله السريان إلى حرف الطاء العربية تجنباً لمشكلة الصورتين لصوتين للتاء السريانية ، كانت صورتها الصوتية بعد الحركات تجعلها ثاء ، وتجنباً لذلك تم نقلها

طاء ، وقد استمر هذا العرف عند الطهطاوى في تدوين الأعلام الجغرافية : إيطاليا Italia ، طسكانة Toscana .

٣ - تدوين صوت G :

هذا الصوت نقله السريان إلى الغين تجنباً للخلط بين الجيم الاحتكاكية العربية الشمالية والجيم الشديدة العربية الجنوبية . ومن أمثلة استخدام هذا النظام عند الطهطاوى : البرتوغال (قلائد ٣٥) ، غرونلند (قلائد ٧) . ولكن هذا النقل لم يكن مطرداً ، فقد استمر عنده تدوين ذلك الصوت بالكاف (اختصاراً للكاف الفارسية) في أمثلة أشهرها : إنكلترا وكذلك غينا ، كينا (قلائد ٦٤) . أما الكلمات التي نجد فيها حرف الجيم فقد نطقها الطهطاوى جيما فرنسية احتكاكية مثل (que) Germani ® جرمانية (قلائد ٦) .

٤ - تدوين صوت V :

هذا الصوت الشفوي المجهور لا يوجد في العربية وقد أفاد الفرس والترک من حرف الواو العربية لتدوين هذا الصوت ، واستمر ذلك العرف عند الطهطاوى : بتاوبا Batavia† (تخلص ١٥٧) ، بولوية Bolevia (تخلص ١٥٦) ، وكذلك البلوار Boulevards

٥ - تدوين صوت P :

كان الطهطاوى أول كاتب عربى حديث يحاول تقنين تدوين هذا الصوت الشفوى المهموس بالحروف العربية ، وجعل لذلك حرف الياء المثلثة ويسمىها الياء الفارسية ، ولذلك نجد عنده ذلك التدوين فى (أوربا) وقد ضبط هذا الاسم « بضم الهمزة بعدها واو ساكنة فراء مضمومة ، فياء فارسية بعدها ألف » (قلائد الفاخر ص ١٠) ، ونجد هذا التدوين فى الأعلام الجغرافية : البروسيا (قلائد ١٠) ، يابونيا (أى اليابان ، قلائد ١١) أولبيا (قلائد ١٣) ، وشبيه بهذا من خارج مجال الأعلام الجغرافية بابا رومة (قلائد الفاخر ١١) ، وقد اهتم الطهطاوى بطباعة هذا الحرف بالياء الفارسية أو الياء المثلثة ، وكأنها كانت قد أصبحت حرفا مستقلا فى صندوق الطباعة العربية .

٦ - تدوين الحركات القصار :

الحركات القصار فى الفرنسية لم يعبر عنها عندما نقلت بحروف عربية ، أصبحت الدلالة على الحركات القصيرة الأوربية مرتبطة

بالفتحة أو الضمة أو الكسرة فى العربية :
نرمانديا Normandie (تخلص ١٧٧) ،
مسينة (تخلص ١٧٩ ، ١٨١) ، اسكربال
Escorial (ملطبرون ١ / ١٤٣) .

خامسا : القضايا المعجمية :

١- المصادر غير العربية للأعلام الجغرافية :

أفاد الطهطاوى من عدد كبير من الأعلام الجغرافية ذات الأصول الفارسية والتركية :
قابولستان (قلائد الفاخر ٦) ، وكذلك :
ويلوجستان ، عجمستان (قلائد الفاخر ١١)
ومنه أيضا : إفرنجستان (تخلص الإبريز
١٥٤ ، ١٦٦) ، وإلى جانب أسماء الأعلام المتدولة فى العربية والتركية والفارسية نجد الطهطاوى يستقى أسماء الأماكن الأخرى من لغات أوربية ، اعتمد الطهطاوى الصيغة الفرنسية لعدد كبير من أسماء الأعلام ، من ذلك اسم أكبر دولة فى العالم الجديد :
إيتازونيا أو إيتازونى (قلائد الفاخر ١٤) ،
ويتضح من ضبطه للكلمة أنه يفضل الصيغة الأخيرة الأقرب إلى الصيغة الفرنسية
Etats unis ، وقدم فى سياق الشرح أنها

« دولة مركبة من عدة أقاليم مجتمعة » وبعض
أعلام الأماكن معتمد على الصيغة الإيطالية ،
من ذلك الأسماء : إيطاليا Italia
سردانيا Sardinia طسكانة Toscana ،
نابولي Napoli .

٢ - تعدد صيغ الاسم الواحد :

التعدد فى صيغ الاسم الواحد ظاهرة تكرر
فى عدد كبير من الأعلام الجغرافية « عن
مدينة باريس كتب الطهطاوى : تسمى عند
الفرنسيين بارى ... ثم إن العرب والترك
ونحوهم يكتبون باريس أو بريس أو باريز ،
وربما قالوا فارس (تخليص الإبريز ص ١٩٥)
وبعض أسماء الأماكن مكتوب على نحو
متعدد الصيغة ، فى مادة : أسوج : « وربما
سميت بلاد السويد أو بلاد سويج أو بلاد
أسويجة (قلائد المفاهر ٥) .

وإلى جانب هذا نجد وحدات معجمية
تكونت على أساس الصيغة الأوربية ، وهى
صيغ نسب ترجع إلى الصيغة الفرنسية ، ثم
تلحق بها ياء النسب العربية ، وبذلك تنشأ
صيغة تحمل نهايتى النسب الفرنسية والعربية ،

ومن ذلك صيغة بارزيانى (تخليص ١٩٥)
المكونة من Paris + ien ثم ياء النسب
العربية . ومثل هذا فى صيغة النسب
بريطانيقية (قلائد ٨) المكونة من
Britannique ثم ياء النسب العربية ، وفى
المثاليين نجد النهاية الفرنسية ثم النهاية
العربية . ومن ذلك أيضا : الأطنطيقى
Atlantique (تخليص ٥١٥) ، وهكذا
اعتمدت هذه الكلمات على الصيغة الأوربية
كاملة ثم أضيفت إليها ياء النسب العربية .

وبعد ، فإن من أهم ما يمكن عمله فى مجال
التاريخ اللغوى للأعلام الجغرافية جمع كل
أسماء الأماكن المذكورة فى كتابات رواد
النهضة الحديثة ، مع كل الجوانب اللغوية
الخاصة بالتدوين والتأصيل والدلالة وغير
اللغوية الخاصة بالموقع والتاريخ والشعوب وغير
ذلك مماورد فى كتاباتهم وترجماتهم وتعليقاتهم
هذا كله فى سبيل إعداد معجم لغوى تاريخى
للأعلام الجغرافية ، تتعدد مصادره بين المعاجم
العربية العامة وكتب الجغرافيين وكتب الرحالة
والمؤلفات والمترجمات الحديثة .

محمود فهمى حجازى

الخبير بالمجمع

السودان

مفهومه ، حدوده ، وأسماءه ، وعواصمه ، ولغاته

للأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله

أصالة السودان

السودان كغيره من كثير من بلاد العالم إليها من طمى كما هو الشأن فى مصر التى
ذو تاريخ طويل إن لم نقل أطول من نزح إليها سكّانها من الخارج طمعاً فى
غيره وأقدم ، كما كان يتبنّى ذلك ديودوروس الاستقرار ، ورغبة فى الاستفادة من خصوصيتها
Diodorur (١) الذى وصف سكان السودان والاستثمار لأماكنها (٥) .
بأنهم أولُ الخلق على ظهر الأرض (٢) .
وأهل السودان هم أهل حضارة عريقة كانت
تجرى مجرى النيل (٣) ، عليها دلت الآثار ،
وبها اعترف المنصفون من العلماء الكبار (٤) ،
علمًا بأن بلادهم لم يُكوّنْها النيل بما يحمل مرضاته مما جعلهم على مر العصور هداة

ألقى هذا البحث فى الجلسة العاشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٤ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٤ من
أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

- ١ - مؤرخ إغريقى عاش وكتب فى القرن الأول قبل الميلاد .
- ٢ - تاريخ السودان بلندورص ١٧ / ٤٠ ، ورابع الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ز .
- ٣ - بلاد النوبة فى العصور الوسطى لمؤلفه بسبل . شني طبع ١٩٥٤ م
- ٤ - السودان بلاد الرقى والحضارة والدين للبروفسير حسن الشيخ الفاتح .
- ٥ - تاريخ السودان لندور المهدى ص ٤٠
- ٦ - مرت الأديان فى كل العهود بمراحل :

أولها : دور العقيدة النقية التى نادى بها سيدنا آدم أبو البشر عليه السلام ، وهى دين الفطرة التى فطر الله
الناس عليها .

الدور الثانى : دور الرموز والطقوس ، وهو دور وُضعت فيه الحقائق خلف الستور والحجب لكى تظل الاسم
تحت تأثير السرية الكهنوتية ، وسيطرة الكهنة والمتاجرين بقضايا الدين .

الدور الثالث : هو دور الفترة أو طور امتوز الدينى وظهور الشرك ، فى ضروبه ودروبه الخفية المستترة
والظاهرة الواضحة .

الدور الرابع : هو دور التجديد وهو الدور الذى يجدد أمه وفيه لكل أمة نذير سواء أكان نبيا فقط
أو نبياً رسولاً .

الدور الخامس والأخير : هو دور الصّحوة وهو الدور الذى سبق ختم الرسالات ولم يبق للأمم فيه خيرٌ إلا
بالتأسى بالمجددين وسلوك نهج الصالحين (راجع عن بعض ماذكر من أطوار كتاب أثر العقيدة فى منهج الفن الإسلامى
لمصطفى عبده) طبع دار الأشواق ببيروت سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

لغيرهم^(٧) ، وإن اختلف كنه تلك الهداية باختلاف التيارات الفكرية ، والأديان ، والأهواء ، والثقافات التي وردت عليه .

وقد عرف السودانيون كذلك التجارة الدولية^(٨) ، وعرفوا القوانين واستنوها ، وعملوا بها وحكموها في مختلف شئونهم^(٩) وعرفوا الصناعات المختلفة التي تدلُّ على التقدم المطرد في المستوى الحضارى وارتفاع مستوى المعيشة مثل الأقمشة والمنسوجات وأدوات الزينة والزجاج وأطباق الذهب والفضة والنحاس والأسلحة - وعرفوا أيضاً وحدة اللغة وتبنوا خلال فترة معينة الهيروغليفية منها والإغريقية والقبطية والهندية ، وأشاعوها لدى غيرهم^(١٠) ، وبنوا القصور وأشادوا

الأهرامات التي بدأت بداية طبيعية في كبوشيه ومروى وكريمة ، والكرو ثم تدرجت إلى أن تمثّلت في الهرم الأكبر الذي يُعتبر امتداداً لأرض النوبة ، وجزءاً من أجزاء الوطن خلال الحقبة السابقة للبعثة المحمدية^(١١) .. وعرف السودانيون كذلك المعابد وشيّدوا لها المباني في مروى والكرو وصاونقا وصرص وبوهين ، وغيرها^(١٢) ، وأنشأوا لأنفسهم حكومة قومية في القرن الثامن قبل الميلاد^(١٣) .

وكانت بعض القبائل التي تقطن السودان قد اختارت عمداً ضفاف الأنهار لها سكناً ليُسّر الحياة الإنسانية بجواره ، علماً بأنه لما كان الطقس بتلك الأماكن وغيرها حاراً ، فقد اسودّت بشرتهم ، أو احترقت^(١٤) فوصفهم كتاب العرب بالسودانيين^(١٥) ،

٧ - التصوف في السودان لحسن الفاتح نشر كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم سنة ١٩٨٧ م .

٨ - الموانى السودانية ص ٦

٩ - تاريخ السودان ص ٤٠

١٠ - تاريخ السودان ص ٥٠ / ٤٠ ، والفهرست لابن النديم ص ٢٨ والموانى ص ٥٨ .

١١ - أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ص ٤٦ / ٤٧ ، خرائط رقم ٣١ / ٣٠ / ٢٩ (صورة مرفقة) .

١٢ - تاريخ السودان لشقير ص ١٦

١٣ - تأريخ السودان ص ٧ ، والمسالك والممالك ص ٥

١٤ - مقدمة ابن خلدون ، هذا ومع أن لونهم إلى السمرة الشديدة أقرب فقد عدّهم أهل التاريخ من الجنس الأبيض راجع الجواهر الحسان في تأريخ الحبشان لأحمد الحفنى ص . (و) طبع بولاق . مصر سنة ١٣٢١ هـ

١٥ - السودان جمع أسود (لسان العرب المجلد ص ٢٢٤ طبع ١٩٥٥ م)

- أو الأحباش (١٦) ، وأطلق اليونانيون عليهم
لفظ الأثيوبيين (١٧) ، وسمّاهم العبرانيون
بالكوشيين (١٨) .. وهى أوصاف أربعة ذات
مفهوم واحد وهو السواد أو الوجه المحترق .
- مفهوم لفظ (السودان) عند العرب :**
- لقد كان السودان حسب مفهومه
الحالى - يضم فيما مضى أجناسا من البشر
وأشتاتا من القبائل (١٩) وهو بحكم مجاورته
للجزيرة العربية كان معروفاً لدى سكانها
ومشهوراً بين أبنائها . وكان الاسم الذى يطلق
عليه لا يندرج عن تسمية المحل باسم الحال
والباس القطر ثوب السكان .
- وللتدليل على ذلك ، أذكر ما جاء فى
كتابات المؤلفين فى الفترة ما بين
(٢٥٥ هـ / ٨٦١ م - ٢٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .
- ١ - الجاحظ :
- كتب الجاحظ المتوفى (سنة ٣٢٥ هـ /
٨٦٨ م) رسالة أسماها (فخر السودان على
البيضان) تحدّث فيها عما للأول من فضائل
ومزايا وما للآخرين من رذائل وخطايا ونحن
الآن لايهمنا مناصرة الجاحظ أو مناكفته بمقدار
ما يهمنا هذا العنوان الذى أطلقه على رسالته ،
وتلك المقارنة التى عقدها بين السودان
والبيضان .. فعنوان الرسالة وما جاء فيها مما
يفيده - لا يمكننا أن نفهم منه إلا أحد الأمور
الآتية :
- ١ - إمّا أنه أراد الاسمية من لفظى
السودان والبيضان ، فيصحّ الأول ويبطل الثانى
، إذ لا بلد تُسمّى بهذا الاسم .
- ٢ - وإمّا أنه لم يرد الاسمية من كليهما -

١٦ - حبش يحبش إذا اسود : قال فى اللسان الحبش جنس من السودان سموا بذلك لاسود ادهم وقيل هذه الجماعة
أيّا كانوا لأنهم إذا تجمعوا اسودوا وقال أيضاً ناقة حبشية شديدة السواد . قال فى الطراز المنقوش . محاسن الحبش
لعلاء الدين محمد بن عبد الباقي المدنى المؤلف سنة ٩٩١ هـ . يرجع نسب جميع أجناس الحبش إلى (حبش) بن
كوش بن حام بن نوح عليه السلام ولذا تلحق بهم ياء النسب عند الإضافة فيقال حبشى وحبشية نسبة إلى جدهم حبش
المذكور .

١٧ - إثيوبيا لفظ يونانى معناه الوجه المحترق .

١٨ - نسبة إلى كوش التى تعنى فى العربية الأسود راجع الفصائل اللغوية للدكتور محمود فهمى حجازى ص ١٩
بحث مقدم من لجنة اللهجات والدراسات اللغوية إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية الدورة ٥٨ / وراجع مقالا للدكتور
جعفر ميرغنى عن تذوق الجمال الأخضر نشر بجريدة السودان الحديث بتاريخ الثلاثاء ١٢ يوليو ١٩٩٤ م
١٩ - مقال للأستاذ العالم أحمد سليمان المحامى بعنوان القول الحق عن أصل سيدنا موسى عليه السلام .

وهو عبث لا يليق بكاتب عاды ، بله من هم
فى مثل مستواه العلمى والأدبى .

٣ - وإما أنه أراد الاسمية من لفظ
السودان دون البيضان فتفوت المقابلة وتذهب
المقارنة ، وهو إنما كتب الرسالة من أجلها وساق
الحديث لتدعيمها ، بدليل أنه ضمن الرسالة من
الاستشهادات ما يأتى :

(السودان أكثر من البيضان ، والصخر
أكثر من الوحل ، والرمل أكثر من التراب والماء
المالح ، أكثر من العذاب) . (٢٠)

فإن لم يكن يعنى المقارنة ويقصد المقابلة ،
فما قصده ؟ وإلام ترمى كتابته ؟

٤ - وإما أنه أراد بها الوصفية وهدفَ بهما
إليها ، وهو ما نزع استنادا على سبق من نص
، واعتمادا على ما يعقب ذلك من مثل قوله
(مناقب السودان أن لقمان الحكيم منهم)
(٢١) وقوله : (وكذلك البيضان منكم
لا يكادون ينشطون لطلب النسل من الزنجيات

٢٠ - الجاحظ : فخر السودان على البيضان ص ٥٥

٢١ - فخر السودان على البيضان ص ٥٥

٢٢ - الجاحظ فخر السودان على البيضان ص ٧٤

٢٣ - نفسه ص ٧٢

٢٤ - نفسه ص ٧٦

والزنجية أيضاً من الزنج أسرع لقاحاً منها من
الأبيض) (٢٢) وقوله (فإن كان اسم
السود قد وقع علينا فتحن السودان الخُلص ،
والعرب أشباه الخُلص) وقوله : (ومنا العرب
لا من البيضان تقرب ألوانهم من ألواننا ،
والهند أسمر ألوانا من العرب وهم من
السودان . (٢٤)

ب - ابن واضح :

كتب ابن واضح (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ /
٧٩٧ م) تحت عنوان (ممالك الحبشة
والسودان) ما يلى : (وكان له حام بن نوح ،
قصدا عند تفرق ولد نوح من أرض بابل إلى
المغرب فجاوزوا عبر الفرات إلى مسقط الشمس
وافترق ولد كوش بن حام - وهم الحبشة
والسودان لما عبروا نيل مصر فرقتين) .

النص صريح إذن فى أن المقصود بلفظ
السودان ليس البلد وإنما ساكنوها والمعمرون لها
إذ أن الأرض ليست أحد أبناء كوش ، كما

أنها ليست مما يعبر النيل ، ولا مما يفترق
فرقتين لجمودهما .

ج - ابن الفقيه :

كتب ابن الفقيه (المتوفى سنة ٢٩٠ هـ /
٩٠٣ م) ما يأتى : (وأرض السودان مسيرة
سبع سنين) . (٢٦)

والسودان فى هذا النص مضاف إلى
الأرض .. وإضافته للأرض تعنى مغايرته لها
إذ لا بد بين المضاف والمضاف إليه من تغاير ،
وإلا كانا شيئا واحدا .. وما دامت كتب اللغة،
تفسر الأرض بغير التقسيم الذى تفسر به
السودان فذلك يفيد تغايرهما ، كما يقود
بالتالى إلى ما ندعّيه إذ لا معنى فيها
للسودان غير أنه جمع أسود (٢٧) .

د - الفارسي الكرخي :

كتب الفارسي الكرخي (المتوفى سنة
٢٩٨ هـ / ٩١١ م) ما يأتى : غير أن بعض
السودان المقارين لهذه الممالك يرجعون إلى
ديانة وريضة وحكم (٢٨) .

وبعض السودان المشار إليهم فى هذا النص
والموسومون بأنهم أصحاب ديانة وريضة وحكم
لا يمكن أن يكونوا غير من نعتيهم نحن ، بدليل
أنه قال عنهم فيما بعد : (وما بين برارى
السودان والبحر المحيط فى الجنوب
فقفر خراب) (٢٩) وقال : (فإن بلد السودان
الذى فى أقصى المغرب على البحر المحيط ،
بلد مكتفٍ ليس بينه وبين شىء من الممالك
اتصال وبلغنى أن طول أرضهم نحواً من
سبعمئة فرسخ فى نحوها ، غير أنها من البحر
إلى ظهر الوحات أطول من عرضها) (٣٠) .

أتراه يعنى بالسودان هذه الأرض التى
رسمت حدودها اتفاقية سنة ١٨٩٩ م / ١٣١٧ هـ
وهى أرض أبعد ما تكون عن المحيط ، وعن
تلك المساحة ؟ .. أم تراه يعنى بها أرضا غير
هذه ، وليس فى النص ما يعين ذلك بل إن فى
النص ما ينفى إرادته شيئا من ذلك ، فلقد
أضاف كاتبه لفظ السودان إلى بلد ، وإلى
برارى والإضافة تعنى المغايرة كما قلنا ،

٢٥ - ابن واضح : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٥٥

٢٦ - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٥٩

٢٧ - لسان العرب المجلد الثالث طبع بيروت سنة ١٩٥٥ م ص ٢٢٤

٢٨ - الفارسي : المسالك والممالك ص (٥)

٢٩ - المسالك والممالك ص ٧

٣٠ - المسالك والممالك ص ١٠ ، ١١

وإلا كان شيئاً واحداً بمعنى بلد بلد ، ويرارى
برارى ، أو بمعنى السودان السودان وهذا
ما ليس مقصوداً مما يؤدي إلى صحة الدعوى
التي سقنا من أجلها الحديث .

هـ - ابن خرداذبة :

كتب ابن خرداذبة (المتوفى
سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م) ما يلى : (ومن
سكن على النيل فيما هم ولد حام ، السودان ،
وبربر ، وأقباط مصر ، وأحزامه) (٣١) فهو
هنا قد جعل السودان ، كما جعل الأقباط أحد
أولاد حام ، وأولاد حام ليسوا أرضاً .. فإن كنا
نصر مع ذلك على أنه أراد الأرض لا الشعب
فليكن أقباط مصر كذلك أرضاً ، وهذا
ما لا يقبله أحد .

و - الطبرى :

كتب الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ /
٩٢٢ م) ما يلى : (وبالمغرب من السودان
البجة والنوبة ، وأهل غانا الغافر ، وبينوب ،
وود عيسى ، والقروية ، ويكسوم ، ومكاره
وأكرم ، والخمس) (٣٢) .

٣١ - ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٢

٣٢ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٥٢

٣٣ - المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣٨٣

لقد حافظ الطبرى كما ترى - على عطف
سكان المغرب بالواو ، ولم يستثن من ذلك غير
غانة فإنه قال عنها : وأهل غانة .. واستثناؤه
لغانة دون غيرها دليل على مخالفة غانة
لغيرها فى الإطلاق ، ومادامت غانه اسماً
لأرض ، فالبجة والنوبة ، وغيرهم ليسوا كذلك
وهؤلاء أصناف السودان والمكوثون له ، وإذا
ما علمنا أن الصنف لا يخالف أصله أمكننا أن
نجزم بأن السودان هنا ليس اسماً للأرض وإنما
هو اسم لسكان أفريقيا ، أو المغرب كما فى
هذا النص .

ز - المسعودى :

كتب المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ /
٩٥٦ م) ما يأتى : (ووراء علوة أمة عظيمة
من السودان) (٣٣) .. وكتب أيضاً تحت
عنوان ذكر أمم السودان ، وأنسابهم واختلاف
أجناسهم وأنواعهم ، وتباينهم فى ديارهم
وأخبار ملوكهم ، ما يأتى : (ولما تفرق ولد نوح
فى الأرض ، صار ولد كوش بن نعمان نحو

المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا فصارت منهم طائفة مقيمين بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج ، وصار فريق نحو المغرب ، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة ، والكانم ، ومركة وكوكو ، وغانة ، وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم (٣٤) .. وقال : (وكذلك علة تكوّن السودان فى بعض البقاع من الأرض دون البعض ، وتفلفل شعورهم ، وغير ذلك من مشهور أوصافهم) (٣٥) ...

ففى النصوص السابقة تردد ذكر السودان غير ما مرة ، ففى الأول اعتبره نوعاً تتفرع منه الأمم وتتشعب من تحته الأنواع وهذا عين ما جاء فى النص الثانى وعنوانه .. وفى الأخير عده كذلك وبدأ يتكلم عن مراكز تجمععه وعلة تفلفل شعره ، وكل ذلك يعنى أنه إنما أراد الوصفية من اللفظ ولم يلتفت قط إلى ما يمكن أن يتحملة اللفظ فى مستقبل أيامه من اسمية للقطر .

وقد كرر المسعودى نفس المعنى فى

كتاب آخر له فقال (فيخرج من هذه البطيخة نيل مصر فيقطع السودان) (٨٣) .. هذا وقد سبق أن ذكرنا ما يجب أن يكون بين المتضايين من تغاير فلا نعيد شيئاً ذكرناه .

ج - البشارى :

كتب البشارى (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) مايلى : (وأما أرض السودان فإنها تُتأخم هذه الأقاليم ومصر من الجنوب) (٨٤) والبشارى كسابقه المسعودى لا يفهم من السودان إلا خلاف ما يفهمه من الأرض بدليل إضافته هذه إلى تلك .

ط - ابن حوقل :

كتب ابن حوقل (المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) مايلى : (غير أن بعض السودان المقارين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة وحكم (٨٥) وهو رأى سبق أن قاله الفارسى ، وناقشناه فيه ، فلا نرى سبباً لإعادة الحديث عنه (٨٦) ، غير أننا نُضيف أن متابعة ابن حوقل للفارسى فيه بالرغم من تأخره فى الزمن

٣٤ - نفسه ج ٤ ص ١-٢

٣٥ - نفسه ج ٤ ص ٨-٩

٨٣ - مروج الذهب ص ٥١

٨٤ - البشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص (٢٤١) .

بالنسبة إليه تؤكد لنا أن اللفظ كان ما يزال يحتفظ بمفهومه اللغوي حتى عهد هذا المؤرخ المذكور .

ي - ابن النديم :

كتب ابن النديم (المتوفى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) تحت عنوان الكلام على السودان مايلي : (فأما أجناس السودان من النوبة والبجة ، والزغاوة ، والأشنان ، والبربر وأصناف الزنج ، سوى الشند فإنهم يكتبون بالهندية للمجاورة) (٨٧) .

هذا وعودة ابن النديم للتفصيل بعد الإجمال تؤكد لنا بأنه إنما يقصد من السودان هذا الوصف الذي كان يطلق على الشعب لا الاسم الذي أطلق فيما بعد على الأرض .

ك - ابن حزم :

كتب ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) مايلي : (ثم أسلمت البجة وبقيت النوبة والحبشة خاصة دون سائر السودان منهم نصارى وهم الأكثر) (٨٨) .

فاستثناء ابن حزم لسائر السودان عمن ذكر ممن أسلم ، يفيد أن مالم يُسلم من جنس هؤلاء وإلا لو كان أرضاً لما استقام المعنى إذ الأرض لا يتصور منها إسلام أو عدم إسلام حتى يصح لنا إدخالها أو إخراجها ممن أسلموا .

ل - صاعد بن أحمد :

كتب صاعد بن أحمد (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م) بعد أن عدد ثلاثاً من أمم العالم القديمة مايلي : والأمة الرابعة القبط ، وهم أهل مصر وأهل الجنوب وهم أصناف السودان من الحبشة ، والنوبة والزنج « وظنه » (٨٩) وغيرهم من أهل المغرب وهم البرابر ومن اتصل إلى بحر إقيانس الغربى والمحيط (٩٠) وقال : ومنهم من كان ساكناً قريباً من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور فى الجنوب ، فطول مقارنة الشمس لسمت رؤسهم أسخن هواءهم وسخن جلودهم

٨٥ - ابن حوقل : صورة الأرض القسم الأول .

٨٦ - راجع ماتقدم .

٨٧ - ابن النديم : الفهرست ص ٢٨

٨٨ - ابن حزم : جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى ص ٣٤٥

٨٩ - مابين القوسين زيادة تجدها فى ص ٩ من طبقات الأمم .

٩٠ - صاعد بن أحمد : طبقات الأمم ص ٧

فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاطهم
محرقة ، فاسودت ألوانهم وتفلقلت شعورهم
... مثل من كان من السودان ساكنًا بأقصى
الحبشة والنوبة والزنج وغيرها (٩١) .

وبعد فهذا أنت ترى صاعداً الأندلسي
قد فرّع أصناف السودان من عموم لفظ
الأقباط ، وتفريعه له منه دليل على مماثلته له
فيه ، إذ لا يُفرّع الشيء إلا بما : يماثله ، ..
فإذا أضفنا إلى ذلك أنه عاد ففرّع الحبش
والنوبة وغيرهم من أصناف السودان أمكننا أن
نجهر بأن لفظ السودان هنا لفظ عام ، ووصف
شامل لكل سكان الجنوب المشار إليهم في
النص .. يؤيد ذلك أنه في النص الثاني بدأ في
تعليل هذه الصفة التي تميزهم والقاسم المشترك
الذي يجمعهم .. وهذا الصنيع منه يؤكد أن
مفهوم اللفظ عنده كان ما يزال عند أصل
وضعه ، وإلا فلماذا اختار توجيه الحديث هذه
الوجهة المخصوصة .

م - ياقوت الحموي :

كتب ياقوت الحموي (المتوفى
سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) ما يلي : وخلفهم
أمة أخرى من السودان تدعى تكنة (٩٢) ..
ولفظ (من) المستعمل في (من السودان)
يفيد التبعية ، والأمة لا تكون بعضاً من أرض
، وإنما من بشر السواد وصفهم .

ن - أبو الفداء :

كتب أبو الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ /
١٣٣١ م) تحت عنوان ذكر اسم أمم السودان
ما يلي : فمن أعظم أممهم الحبش وبلادهم تقابل
الحجاز ومن أسمائهم أيضاً : النوبة ، والبجا ،
والدمادم ، والزنج والتكرور (٩٣) .. دلالة
العنوان على إثبات دعوانا واضحة ، ولكن مع
ذلك سأضيف : أن قوله (وبلادهم) التي
أضاف فيها اللفظ إلى الضمير العائد على
السودان ، وذلك يدفع بدعوانا قوية إلى سنة
٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م وهي سنة وفاة هذا المؤرخ
المذكور .

٩١ - ابن النديم : الفهرست ص ٢٨ .

٩٢ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٣ .

س- ابن الفرات :

كتب ابن الفرات (المتوفى سنة ٨٠٧ هـ /

١٤٠٥ م) ما يلي : ثم غزاها (أى النوبة)

كافور الأخشيدي وكان أكثر جيشه السودان

فقال الشاعر :

ولما غزا كافور دنقله غدا

بجيش كطول الأرض فى مثل عرضها

وقال أيضا :

غزا الأسود السودان فى رونق الضحى

ولما التقى الجيشان أظلمت الأرض

ثم غزاها الأمير ناصر الدولة بن حمدان ،

وكبس السودان ، ونهب جيشه (٩٤) . فهذه

الأغلبية التى كان السبب فيها السودان ،

وذلك الجيش الذى قابل كافورا مدافعا عن

أرضه ، وذلك السودان الذى تعرض لغزو ناصر

الدولة - لا يمكن أن يكون أرضا ، وإنما بشر

يدافع عن حقه فى الحياة الحرة ويمد العون لكل

مستنصر به .

ع- القلقشندى :

كتب القلقشندى (المتوفى سنة ٨١٤ هـ /

١٤١١ م) ما يلي : والمقصود الآن الكلام على

ماعد ذلك وهو بلاد السودان (٩٥) .. وقال :

وقاعدتهم سواكن وهى بليدة للسودان .. (٩٦)

وقال : وفى غربى دنقلة وشماليتها مدنها

المذكورة فى الكتب .. وقال الإدريسي : وهى

غربى النيل على ضفته وشرب أهلها منه ..

وقال : وأولها سودان ، ولكنهم أحسن السودان

وجوها وأجملهم شكلا ... (٩٧) فمن هؤلاء

السودان الذين عناهم القلقشندى ؟ .. أليسوا

هم أهل الأرض وسكان (سواكن) وأصحاب

البلاد ؟ .. فإن لم يكونوا كذلك فكيف يصح

للقلقشندى وصفهم بجمال الوجه وكيف

يُستساغ منه إحلالهم لبعض أراضي

إفريقيا ؟ !

ف- المقرئى :

كتب المقرئى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ /

١٤٤٢ م) نصوا تَضَمَّنَتْ ما يلي :

٩٤ - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

٩٥ - القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٣ .

٩٦ - القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٤ .

٩٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ - القسم الثالث ص ٧٥٠ .

يايوم دنقلة ويوم عبيدها

من كل ناحية وكل مكان

من كل نوبى يقول لأخته

نوحى فقد سَكُوا قفا السودان

ويضيف .. إننا إذا ابتدأنا فى بلاد السودان

من الغرب فأول مانجد فيه من المدن التى

للسودان العراة المهملين (٩٨) .

أكان السودان الذين سَك قفاهم أرضًا ؟

وإذا صحَّ فما معنى وصف المقريزى للأرض

بالعرى والإهمال ، والأرض ليست مما تُوصف

بذلك ، ثم كيف يُضيف أرضًا إلى أرض فى

قوله بلاد السودان ؟ ..

الأمر على كل حال لا يستقيم إلا بجعل

السودان وصفًا لهذا الشعب وهذا ما ندعيه

نحن .

ص - ابن الوردى :

كتب ابن الوردى (المتوفى سنة ٨٦١ هـ /

١٤٥٧ م) تحت عنوان أمم السودان ما يلى :

ق - ابن تغرى :

كتب ابن تغرى (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ /

١٤٦٩ م) ما يلى : ثم أرسل عبد الله

(وهم من ولد حام .. وعن جالينوس

اختصاصهم بعشر خصال منها تفلقل الشعور ،

وسواد اللون ، فمن أعظم أمهم الحبش .. ومن

أمهم الزنج أشدهم سواداً (٩٩) .

فى هذا النص - كما هو واضح - اعتبر ابن

الوردى السودان من أولاد حام ، والأرض

ليست مما يُنسب إلى حام على أنها من أبنائه ،

ثم إنها لا تختص بعشر خصال ، من بينها

تفلقل الشعر والسواد ، مما يدل على أنه إنما

قصد بالسودان الشعب لاغيره .

يؤيد ذلك أنه قال فى كتاب آخر عنهم :

ومدينتهم العظمى دنقلة .. وأهلها أحسن

السودان وجوهاً (١٠٠) .. أترى يحق له وصف

وجوهم بالجمال وهو لا يقصدهم وإنما يقصد

أرضهم .

٩٨ - المقريزى : الإلمام بأخبار مَنْ بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٢١ .

٩٩ - ابن الوردى : تأريخ ابن الوردى ج ١ ص ٨٤ .

١٠٠ - ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٤٦ .

جيشًا إلى السودان فغنموا وظفروا ،
وعادوا (١٠١) .. وقال : فعند ذلك تيقنت
السودان أن المدد لا ينقطع عنهم من وجهة
الشمال فصمّوا على محاربتهم ، ودنوا إليهم
في أمم لا تحصى ، فلما نظر محمد إلى
السودان التي أقبلت عليه ، انتزع جميع ما
كان في رقاب عساكره من الأجراس فعلقها في
أعناق خيوله .. (١٠٢) وأضاف : ثم حمل
بعساكره على السودان .. حتى خيّل للسودان
أن السماء انطبقت على الأرض (١٠٣) .

لا أخالني في حاجة لأن أدلل أن ابن تغرى
بالرغم من تأخره في الزمن على كل من سبقوه ،
ظل مفهوم اللفظ عنده ثابتًا غير متغير ،
إذ أن كتابته تدلّ على ذلك ، واستعمال اللفظ
يكشف مدلوله عنده ، فهو قد اعتبر السودان
أمة تُرسل الجيوش لمحاربتها ، وقملاً الزكائب من
غنائمها ، وهو حينما تكلم عن تلك الأمة
نفسها وصف إخراجها عن قتال الدخلاء ثم
تصميمها على محاربتهم ، وجمع المقاتلين
للوقوف في مواجهتهم ، ومعلوم أنه لا يحجم

عن القتال أو يفكر فيه من ليس بعاقل ..
أضف إلى ذلك أن زعيم خصومهم حين انتزع
الأجراس من رقاب عساكره ، فعلقها على
خيولهم بهت السودان لهذا الاضطراب المفاجيء
وتلك الزعزعة التي أملت بصفوفهم ولا يُدعر من
شيء ويخاف منه - إلا من كان يملك الشعور
الذي يملأ عليه ذلك والأرض ليست مما يشعر
حتى يمكن أن نفترض أنه إنما قصدها بذلك .

حدود السودان اللغوية

كان من الطبيعي وقد اتسع مفهوم السودان
عند الأوائل فشمل كل أسود - أن تتسع كذلك
حدوده فتشمل كل بلد يقطنه السودان سواء
أكان ذلك في داخل إفريقيا ، أم خارجها .. بل
إن كثرة السود وانتشارهم في أقطار العالم
جعل بعض المؤرخين العرب يوسع رقعة حدود
السودان بما يشمل الهند والسند والصين ،
وغيرها .. وبالع آخرون فجعلوا حدود السودان
مسيرة سبع سنين ، وقارن هذا البعض بين حدود
السودان وحدود مصر ، فجعل الأخيرة جزءاً
واحداً من ستين جزءاً من الأولى وكأنه بذلك

١٠١ - ابن تغرى : النجوم الزاهرة في مصر والقاهرة ج ١ ص ٢٦٦ .

١٠٢ - نفسه ج ٢ ص ٢٩٨ .

١٠٣ - نفس المرجع والصفحة .

قصر مصر على الأماكن التي يقطنها غير السود من السكان ، على أنه إن كان هذا أو ذاك فلا شك أن حدود السودان سابقاً ، لم تكن مقصورة على الحدود الحالية التي حددتها اتفاقية سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩ م ، ولا على تلك التي كانت في عصر إسماعيل ، والتي حدد الدكتور محمد صبرى رقعتها بما يشمل إريتريا والصومال بشقييه وأوغنده وجزءاً كبيراً من الكونغو (١٠٤) .

مصر ، وأرض مصر جزء من ستين جزءاً من أرض السودان ، وأرض السودان جزء من ستين جزءاً من الأرض (١٠٥) .

أترى ماذا يعنى ابن الفقيه بما كتب ؟ . أمامنا بعض الافتراضات التي يُمكننا عن طريقها تحديد قصده وتبيين غرضه .

١ - الافتراض الأول :

أن يريد الكاتب بما كتب أرض السودان الحالية .. وهذا غير مستقيم للأسباب الآتية :

أ / إن الماء لا ينبع من أرض السودان حسب حدودها الحالية ، وإنما ينبع من بحيرتي (فكتوريا) (١٠٦) (وتانا) (١٠٧) اللتين تقعان خارج حدود السودان الحالية . وحتى يتضح للقارىء مفهوم المؤرخين الأوائل عن حدود السودان فسأورد فيما يلى بعض النصوص التي توضح المراد .

يقول ابن الفقيه : وأرض السودان مسيرة سبع سنين ، فما فضل عنهم من مائها صار إلى ب / إن أرض مصر ليست جزءاً من ستين

١٠٤ - انظر أطلس الإمبراطورية السودانية للدكتور محمد صبرى خريطة رقم (١) وراجع عن الاتفاقيات الخاصة بالحدود ، الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ٢٨/٢٩ .

١٠٥ - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٥٩ .

١٠٦ - تعتبر بحيرة فكتوريا أكبر بحيرات الدنيا إذ تبلغ مساحتها ٦٩٠٠ كم . ٢ (٦٨٢٨ ميلاً مربعاً) ويعلو سطحها على سطح البحر بنحو ١١٣٥ متراً وكانت قبلاً تسمى باسم أو كروى Ukerewe وهو اسم لجزيرة منها تتبع تنجانيقا (راجع نهر النيل لمحمد عوض محمد ص ٣٦/٣٨) .

١٠٧ - يبلغ مستوى بحيرة تانا ١٨٤٠ متراً فوق سطح البحر ومساحتها ٣٠٦٠ كم . ٢ . والنيل الأزرق بوجه عام نهر جبلى شديد الانحدار فى كل مجراه من بحيرة تانا إلى الخرطوم .. هذا وحيث إن مستوى بحيرة تانا ١٨٤٠ م ومستوى الخرطوم أقل من ٤٠٠ متر فوق سطح البحر فإن انحدار النهر يبلغ إذن ١٤٤٠ متراً فى مساحته ١٦٢٢ كم ، وأكثر ما يكون هذا الانحدار فى الشطر الأعلى للنهر ما بين منابعه وبين بلدة الروصيرص التي تعلو عن سطح البحر ٤٦٦ متراً وعلى هذا فالانحدار فيما بعد الروصيرص ضعيف (راجع نهر النيل لمحمد عوض محمد ص ١٠٠/١٠٧) .

جزءاً من أرض السودان .. وأرض السودان وإن كانت تفوق أرض مصر مساحة إلا أنها برغم ذلك لا ترتقى إلى تلك المساحة كما لا تدنو تلك إلى هذا المستوى .

ج / إن أرض السودان الحالية ليست جزءاً من ستين جزءاً من الأرض بل هي دون ذلك بكثير .

د / اتساع مساحة السودان مهما بلغت لا يساوى اجتيازها سبع سنين ، ذلك أنه يمكن للشخص أن يعبرها - ولو راجلاً في مدة أقل من ذلك بكثير .

٢ / الافتراض الثانى :

أن يريد الكاتب بما كتب نفس ماأراده معاصره ابن خرداذبة حين قال : ووجدت أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين ، فأرض مصر جزء من أرض السودان ، وأرض السودان جزء واحد من ستين جزءاً من الأرض كلها .

فإن صحَّ هذا وكان المراد بأرض السودان ما يشمل أرض السودان ، والحبش فيكون ابن الفقيه إنما اقتصر فى نصه على كلمة

« السودان » لشمولها لمن هم أشد سواداً كالحبشة ومن هم دونهم من السواد كالأخرين ، إذ السودان كما هو معلوم لفظ أكثر عموماً من لفظ الحبش لا نحصر الأخير وانفراج دائرة الأول .

ولكن حتى هذا القصد لا يخلو من نقد ، ولا يسلم من طعن إذ يمكن تسديد نفس السهام التى أودت ببقاء القصد الأول إليه .

٣ / الافتراض الثالث :

أن يريد الكاتب بما كتب إفريقيا بأسرها والقارة بأجمعها .. وهو وإن كان أوسع دائرة مما ذكرناه إلا أنه ما يزال دون الحقيقة بكثير ، إذ لا تبلغ مساحة هذه القارة مبلغاً يضطر المجتاز لها إلى قضاء سبع سنين بداخلها .

٤- الافتراض الرابع :

أن يريد الكاتب بما كتبه ما أراد الجاحظ حين قال : والسودان يعدون الزنج والحبشة ، وفزان ، وبربر ، والقبط ، والنوبة ، وزغاوة ، والسند ، والهند ، والدبيلا ، والصين ، وما صبيت ، وجزائر البحر ما بين الصين والزنج

مملوءة سودان كسر نديب وكله ، وأمل ، وزايح ،
وجزائرها إلى الهند ، إلى الصين ، إلى كابل ،
وتلك السواحل (١٠٨) .. وكذلك بعض قبائل
العرب (١٠٩) .. وهو قصد نسلّم به واتجاه
نرتضيه لسلامته من الطعن وخلوه مما يُوجب
النقد .

فمفهوم السودان إذن عند العرب يتّسع لكل
ما ذكرنا واسمه يضم جميع ما قلنا لا يختص
ببلد دون بلد ، ولا بمنطقة دون أخرى (١١٠) ،
هذا ولئن اعتقت مصر أخيراً من دائرته وصار
اللفظ مقصوراً على مَنْ يقعون جنوبها ..
فلا يعنى هذا أنّها لم تكن من قبل داخل
حلقته ، إذ السودان كما قلنا كان يشمل فيما
يشمل الأقباط وهم ساكنو مصر ، ومعمرّوها ،
علماً بأنّ اللفظ صارت دائرته تُسقط واحداً إثر

واحد وجزءاً بعد جزء حتى أصبحت أضيق مما
كانت عليه بكثير ، وصار الشعب أقلّ عدداً مما
كان عليه سابقاً .. أحب أن أخلص مما سبق بأن
لفظ السودان والحبش وإثيوبيا وكوش لم
يُستعمل فيما مضى اسماً لسودان وادى النيل
ولاعلماً على هذا القطر المعروف باسم جمهورية
السودان وإنما كان استعمالها محدوداً على
الشعب ومقصوراً عليه .

أسماء السودان

تسمّى السودان خلال تاريخه القديم بأسماء
ذات مدلول غير محدّد أحياناً ، وضيق جداً
أحياناً أخرى .. من ذلك مثلاً :
٢- أرض السود : وهى إشارة إلى من كان
يسكن الأرض من ذوى السحنة السوداء .
وتشمل فيما تشمل أرض النوبة وما يحادها
جنوباً حتى البحر الأحمر . (١١١)

١٠٨ - الجاحظ فخر السودان على البيضان ص ٧٦ .

١٠٩ - الجاحظ فخر السودان على البيضان ص (٧٨) وفى (٧٠) من نفس المرجع يتكلم الجاحظ عن مفهوم السودان عند العرب فيقول : والسود عند العرب فيقول : والسود عند العرب الحضر ويستدل على ذلك بقول شماخ بن ضرار :
وراجت رواجاً من زرود فنازعت * زباله جلبها من الليل أخضرا
ويضيف قال الراجز :

حتى انتضاني الصبح من ليل خضر * مثل انتضاء البطل السيف الذكر
ويقول : وهم يصهرون الحديد أخضر لأنه صلب لأن الأخضر أسود ، وهذا الصنيع من الجاحظ .

١١٠ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٤١ ، ومسالك الممالك ص ١١/١٠ ومختصر كتاب البلدان ص ٦٠/٥٩ ،
والمسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٩٣ ، وفخر السودان على البيضان ص ٧٧ .
١١١ - السودان بين الوصفية والاسمية لحسن الفاتح .

٢- **تانهسو** : أو تانهسو .. ومعناها أيضاً أرض السود (١١٢) ، وهى تشمل كسابقتها السودان الحالى وما جاوره شمالاً حتى نهاية أرض النوبة ، وجنوباً حتى نهاية أرض الحبشة ، على أن مفهومها أحياناً يضيق فينحصر فى الجزء الواقع جنوب مصر مباشرة (١١٣).

٣- **الواوات** : وهى اسم عُنَى به الحال فصار علماً للمحل ، ويقصد به القبائل التى كانت تقطن بين الشلالين الأول والثانى ، وهى المنطقة التى تقع ما بين أسوان ووادى حلفا .. علماً بأن بعض سكان الواوات من النوبيين هاجروا مؤخراً من موطنهم الأصلى واستقروا بإقليمى لاسا وأجوميدر الواقعين حالياً بأرض الحبشة ، وعرف جنسهم بين الأهالى بأجو (أى الأحرار) . (١١٤)

٤- **مازوى** : وهو اسم أريد به الحال فصار علماً على المحل ويقصد به القبائل التى تسكن

بين الشلال الثانى وملتقى النيلين الأزرق والأبيض ، وهى قبائل كانت تمد الجيش المصرى بمختلف الإمدادات فى العصور المختلفة .

٥- **يام** : وهو اسم أريد به كذلك الحال فصار علماً على المحل ويقصد به القبائل التى كانت تسكن بالقرب من مازوى وقد يقصد به البلاد الواقعة غرب بلاد كوش على أن البعض اعتبرها اسماً قديماً لكردفان أو دار فور . (١١٥)

٦- **الازنت والسنحتوت** : وهو اسم أريد به كذلك الحال فأصبح علماً بالغلبة على المحل ، ويقصد به القبائل التى كانت تقطن الجهة الغربية لوادى النيل بين (مازوى) و (يام) جنوباً و (الواوات) شمالاً . (١١٦)

٧- **كوش** : وهولفظ عبرى معناه السواد ، وبه كان يسمّى كوش بن حام أخو مصرام ، وفوط ، ونعمان. وبنوكوش هم سبا ، وحولية ، وسبتة ، ورعمة ، وسبنكا (١١٧) .. وله من الأولاد كذلك ماأتى :

١١٢ - دراسات للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

١١٣ - دراسات فى تاريخ السودان للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

١١٤ - الجواهر الحسان ص ٣ .

١١٥ - دراسات فى تاريخ السودان للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ ونهر النيل لمحمد عوض محمد ص ٧/٦ .

١١٦ - السودان بين الوصفية والاسمية للدكتور حسن الفاتح وهو بحث منشور بمجلة الثقافة السودانية السنة الرابعة العدد

السادس عشر ديسمبر ١٩٨٠ م ص ٥٩/٤٦ .

١١٧ - العهد القديم : سفر التكوين الإصحاح العاشر .

- ١ / نوبة والد أمم النوبة .
- ٢ / زنج والد أمم الزنج ، ووالد برابرة السودان ، وفزان ، وزغاوة .
- ٣ / حبش والد أمم الحبش بجميع أجناسهم (١١٨)
- ورد اسم (كوش) أول ماورد على لوح (بوهين) الذى يرجع تأريخه إلى السنة الثامنة من حكم سيزوستريس .. وجاء فى لوْحَيْنٍ لكاموس : أن بلاد كوش كانت تحت الحكم النوبى ، وأن حاكم النوبة آنذاك كان من القوة والسطوة والمتعة بحيث علا ذكره وارتفع صيته (١١٩)
- أما حدود دولة (كوش) ذات التأريخ العريق فكانت تنفرج وتضيق حسب قوة البلاد وضعفها ، علماً بأنه بينما كانت كوش حتى
- عصر البعثة التوبية تمتد إلى نهاية حدود إفريقيا جنوباً وإلى ما بعد خط ٣٠ شمالاً - كانت مصر تنحصر فيما بين مدار السرطان جنوباً وبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) شمالاً ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) شرقاً ، وخط طول ٣٠ غرباً (١٢٠) وعلى كل فقد كانت (كوش) هى الجارة الجنوبية لمصر وكانت النصوص التواتية كثيراً ما تربط بينها وبين مصر أو (مصرايم) .. وكان على رأس بلاد (كوش) ملك نوبى كان حتى فى عصور ضعف بلاده يعتبر مساوياً لفراعنة مصر (١٢١)
- أما أهل كوش فيرجح البعض أنهم فرع من الكوشيين الساميين (١٢٢) ممن نزحوا من

١١٨ - الجواهر الحسان ص ٣٦ وفيه أن مما يؤكد نسبة الأمم إلى أجدادهم أن ياء النسبة تلحق بهم عند الإضافة فيقال حبشى وحبشية ومثلها نوبى ونوبية ، وزنجى وزنجية .

١١٩ - مصطفى عبده : أثر العقيدة فى منهج الفن الإسلامى ص ٦٦ .

١٢٠ - الدكتور حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ص ٤٤ خريطة رقم ٢٨ صورة مرفقة - طبع القاهرة سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٧ م وراجع نهر النيل لمحمد عوض محمد ص ٦ .

١٢١ - أثر العقيدة فى منهج الفن الإسلامى لمصطفى عبده ص ٦٦ ، وراجع كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب ص ٩١ .

١٢٢ - أ . ل . شلوزر كان هو أول من استخدم تعبير السامية لوصف الشعوب ذات العلاقة بالعبرانيين والتعبير مأخوذ عن اسم سام (شم بالعبرية) ابن نوح وهو الجد المزعوم للعبريين ولأقوام آخر ذكرتهم التوراة ، وتتحدث التوراة عن شعوب انحدرت من سام دون أن تصفها بالسامية (راجع التوراة جاءت من جزيرة العرب (هامش ص ٢٩) .

أراضيهم الأصلية باليمن قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة (أى ثلاثة آلاف وستمئة واثنين وعشرين سنة قبل الهجرة النبوية) واستقروا بأراضي نبتة ومروى بالقرب من سنار (١٢٣) .

٨ - الحبشة : وهو اسم كان يطلق قديماً على جميع القارة الأفريقية باستثناء شريط ساحلى ضعيف لم يكن يتعدى فى أقصى توسع له قبل البعثة النبوية - حدود بنى غازى (سيريناىكا) غرباً وبحر القلزم ومدار السرطان جنوباً (١٢٤)

علماً بأن نفس اللفظ ظل يُطلق إلى ما بعد سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م على كل من النوبة والبجة والدمادم . والزنج والتكرور ، وعن ذلك يقول أبو الفداء فى كتابه المختصر فى أخبار البشر تحت عنوان ذكر اسم أمم السودان ما يلى : فمن أعظم أمم الحبش وبلادهم تقابل الحجاز ومن أسمائهم النوبة ، والبجة ،

والدمادم ، والزنج ، والتكرور (١٢٥) ويقول القزوينى فى كتابه أخبار البلاد مانصه .. البجة بلاد متصلة بأعلى عيذاب فى غرب منه أهلها صنف من الحبش (١٢٦) .

٩ - السودان : لم يكن لفظ السودان معروفاً أو مستخدماً قبل التوسع العربى وانتشار القبائل العربية فى مساحات كبيرة من إفريقية بعيداً عن أوطانهم فى شبه الجزيرة العربية شمال النطاق الصحراوى المعروف باسم الصحراء الأفريقية الكبرى ، وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدل على : أن كلمة (السودان) عربية أصيلة أطلقها العرب على كل الأراضى الأفريقية فيما وراء الصحراء الكبرى جنوباً والتى تمتد من أقصى الغرب الذى يشرف على المحيط الأطلنطى (الظلمات) إلى أقصى الشرق الذى يطل على ساحل البحر الأحمر أو ينتهى عند السفوح المنخفضة الحبشية .

١٢٣ - الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ٦/٥ ، هذا وجاء فى (و) أورد بعض الكتاب أن لفظ (كوش) العبرى كان قد عرب إلى لفظ (كوثه) فى منطقة جيزان أو الأودية الداخلية لشبه الجزيرة العربية وذلك بقلب الشين ثاء وكان نفس الاسم بعد تعريبه معروفاً فى الأماكن المجاورة لخميس مشيط . بمنطقة عسير وببلدة (كوثه) أو (كوش) سكن سيدنا إبراهيم الخليل راجع صفحات ١٨/٢٤/٨٢/٩٤/٢٧٤ من كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب لكمال سليمان الصليبي الطبعة الثالثة نشر مؤسسة الأبحاث العربية - كانون الأول سنة ١٩٨٦ م .

١٢٥ - المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٩٥ .

١٢٦ - أخبار البلاد للقزوينى وجغرافية وتاريخ السودان ص ٣٦٧ .

أما استخدام لفظ السودان للتعبير عن مدلول سياسى وكيان معين يضمّ مساحات معينة فى قلب النيل الأوسط وروافده فلا يرجع إلى أبعد من أوائل القرن التاسع عشر الميلادى بعد ما دخلت هذه المساحات فى نطاق الإمبراطورية المصرية ويعنى ذلك أن التوسع المصرى فى سنة ١٨٢١م أدى إلى استخدام تعبير الأقاليم السودانية للتعبير عن كل المساحات التى خضعت للحكم المصرى .. ومع ذلك فإن كلمة السودان لم تستخدم كتعبير مطلق له مدلوله السياسى للدلالة على الأراضى التى تقع جنوب مصر ولها حدود معينة مرسومة محدودة إلا فى بداية الحكم الثانى سنة ١٨٩٩م / ١٣١٧هـ . (١٢٧)

١٠ - مملكة نوباتيا : ومعناها بلاد النوبة وهو الاسم الرومانى الذى اشتهر به الجزء الشمالى

من السودان لفترة طويلة ، ويضم حوض النيل من أسوان وحتى الشلال الثالث . (١٢٨)
١١ / نبتة : مكانها عند جبل البركل قرب الشلال الرابع ، وهى قتل إحدى عاصمتى إثيوبيا السفلى .

١٢ - مروي : مكانها عند البحراوية فى رأس مروي . (١٢٩)

١٣ - دولة الفونج : أو مملكة سنار .. وقد امتدت شوكتها من الشلال الثالث إلى جبال فازوغلى شمالاً وجنوباً ، ومن سواكن ومصوع على البحر الأحمر إلى النيل الأبيض شرقاً وغرباً ... (١٣٠) هذا وقد دامت هذه المملكة ٣٢٦ عاماً إذ أنشئت فى سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وزالت فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م .
١٤ - مملكة الفور : أو سلطنة الفور . (١٣١)

١٥ - مملكة تغلى : وهو اسم لإحدى ممالك السودان . (١٣٢)

-
- ١٢٧ - الموانىء السودانية للدكتور صلاح الدين الشامى ص ٦/٥ نشر مكتبة مصر طبع دار الطباعة الحديثة سنة ١٩٦١م .
١٢٨ - دراسات فى تاريخ السودان وإفريقيا ج ٢ ص ١١٣ .
١٢٩ - شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠٣ .
١٣٠ - راجع عن تاريخها : شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ٣٨٨/٣٨٠ فما بعدها ، ودراسات فى تاريخ السودان وإفريقيا للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ٤٥ فما بعدها طبع ١٩٨٩م .
١٣١ شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ٤٤١ فما بعدها ودراسات للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .
١٣٢ - دراسات ليوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

١٦ - مملكة المقررة : وكانت تضم المنطقة من الحدود الجنوبية لمملكة نوباتيا وحتى ملتقى النيلين ، والجزء الأعظم من وشمال كردفان .

١٧ - مملكة علوة : وكانت تضم منطقة الجزيرة ومنطقة البطانة شمال وأوسط كردفان ودارفور ، وقد سميت هذه المملكة فى بعض الوثائق القبطية بمملكة الحبشة . (١٣٣)

١٨ - بلاد البوانيت : وهو اسم أطلق على البلاد الواقعة على الساحل الجنوبى للبحر الأحمر (١٣٤) على أنه ما يُذكر هنا أن أهالى هذه البلاد كانوا أقدم من المصريين فى ممارسة الملاحة والاشتغال بالوساطة التجارية فى البحر الأحمر . (١٣٥)

١٩ - المريس : وهو اسم استعمله العرب للدلالة على بلاد السود . (١٣٦)

٢٠ / إثيوبيا : أو إيثيوبس وهو اسم كان يُطلقه اليونانيون على عموم سكان أفريقيا (١٣٧) وعلى الأخص على سكان

ما كان بين النيل الأعلى وصحراء ليبيا وسواحل البحر الأحمر منها - على أن المؤرخ (هومر) عمم إطلاقه على سكان ما بين (ابتداء آخر الشرق) إلى (آخر الغرب) ويستفاد مما كتبه كل من (هيرودث) و (بلين) .. أن اللفظ عند الأول مقصور على سكان النيل الأعلى فقط وهو عند الثانى يطلق على سكان النيل الأوسط والأزرق والنوبة والحبشة .

هذا وقد انقسمت إثيوبيا قديماً إلى قسمين : أحدهما : إثيوبيا العليا التى عرفت فيما بعد بالحبشة ثم إثيوبيا .

ثانيهما : إثيوبيا السفلى وتعرف الآن بالسودان أو بجمهورية السودان .

وكان للأخيرة عاصمتان إحداهما نبتة .. والأخرى مروي .

وقد عاصرت إثيوبيا السفلى كلا من الفراعنة ،

١٣٣ - تاريخ المسيحية ص

١٣٤ - شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ٢٩٩ ونهر النيل ص ٧ .

١٣٥ - موانئ السودان ص ١٥/١٦ .

١٣٦ - دراسات للبروفسير يوسف فضل ج ٢ ص ١١٣ .

والفرس ، والبطالسة ، والرومان ، وبقيت معروفة بهذا الاسم إلى سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م وهى السنة التى زالت فيها دولة الرومان . (١٣٨)

أشهر عواصم السودان :

كانت عاصمة السودان بمفهومه السابق تنتقل من جهة إلى جهة بحسب تنقلات الحكومة (١٣٩) علماً بأن أشهر البلاد التى اتخذت عاصمة قبل البعثة النبوية وبعدها هى :

١ - سوبا : وهى أقدم مدينة بالسودان حتى أنه ليزعم البعض أنها من بناء سبأ بن نوح عليه السلام ويقولون : إن ثمت تشابها بينها وبين سبأ اليمنية من حيث ولاية الملكات على العرش ، ونظام المعابد ، وطريقة العبادة قبل الإسلام الأمر الذى دعاهم إلى أن يقولوا إن تحريفاً ما قد حدث فى الكلمة فحوّلها من سبأ الى سوبا .. على أنه أيّا كان الأمر فإن أهالى

١٣٩ - الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ح .

١٤٠ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ١١١ ، وتاريخ الخرطوم ص ٩ وتاريخ الثقافة ص ٩ .

١٤١ - تاريخ الخرطوم ص ١٠ وجاء فى ص ٥ من نفس الكتاب أن الخرطوم ورثت مجد سوبا وقرى فجعلت عاصمة للسودان الحديث .

١٤٢ - لفظ الخلفايا كان ينصرف إلى إقليم واسع ولم يكن اسم موضع بعينه فى هذه الجهة راجع تاريخ الخرطوم ص ١٧٢ ، أما خلفايا الملوك التى عرفت بهذا الاسم فكانت عاصمة لمشيخة العبدلاب فى أواخر العهد الفونجى .

مملكة النوبة العليا أو علوة اتخذوا من سوبا المذكورة عاصمةً لمملكتهم وعُنوا بها عناية فائقة حتى أنهم أشادوا بها المبانى الجميلة ، والكنائس ، والمعابد الفخمة التى بنيت على طراز نبتا والنقعه ..

هذا وقد ظلت سوبا المذكورة أعلاه عاصمة عامرة حتى خربها الفونج وذهب تدميرها وخرابها مثلاً يجرى على لسان السودانين حتى اليوم (١٤٠)

٢ - قرى : وكانت عاصمة لمشيخة (العبدلاب) .. وقد بلغت أوج مجدها وقوتها فى عهد الشيخ عجيب المنجلك الذى تميز عصره بالفتوحات . (١٤١)

٣ - خلفاية الملوك : وهى العاصمة البديلة (١٤٢) للعاصمة (قرى) وكان قد أنشأها فى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م الشيخ عجيب الثالث ، وظلت عاصمة للعبدلاب حتى مجيء الترك .. وفى عهد الأخيرين تحالف معهم الشايقية

منافسو العبد لآب ومناوئوهم فانتصر لهم الأتراك وأقاموا منهم حامية للشايقية قوامها [٤٠٠] رجل تحت قيادة سنجك منهم فاستسلم لهم دون مقاومة الشيخ ناصر الأمين شيخ العبد لآب على أنه لما قُتِلَ الملك نمر إسماعيل باشا فى العام التالى ، وعمت الثورة الأقاليم الشمالية قام الشيخ الأمين بن الشيخ ناصر الأمين على رأس قوة من أهله وهجم على الحامية وقضى عليها قضاءً مبرماً الأمر الذى أغضب الأتراك فأصابوا العبد لآب وضربوهم دون رحمة وصادروا أراضيهم فى الحلفاية وقرى ، وأقطعوها لحلفائهم الشايقية فازداد بذلك نفوذ الأخيرين وكونوا قوة وعصبية . (١٤٣)

علماً بأن محمد أغا القبوجى باشى كبير الحجاب بالسودان فى عصر محمد على كان قد أحضر أخيراً شيخ العبد لآب ومنحه الأمان وأجلسه فى مكانه حاكماً ومنحه لقب ملك (١٤٤) فظلت حلفاية الملوك لهذا السبب عاصمةً للإقليم واحتفظت بأهميتها لفترة من الزمن طغت فيه خلالها أهمية الخرطوم بحرى عليها فتضاءل دورها وانخفضت مكانتها . (١٤٥)

٤ - مدنى : أو ولد مدنى وقد تم اختيارها عاصمةً للسودان بدلاً عن سنار فى حوالى سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م (١٤٦) بناء على توجيه فى ذلك أصدره محمد على باشا .

٥ - الخرطوم : وقد اختيرت عاصمة للبلاد فى حوالى سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م تنفيذاً لتوجيه فى ذلك أصدره محمد على باشا إلى عثمان بك فى ١٦ / ديسمبر ١٨٢٤م (١٤٧) وقد تلا ذلك بناء معسكر لجيش عثمان بك

١٤٣ - تاريخ الخرطوم للبروفسير محمد إبراهيم أبو سليم ص ١٠/١١ طبع دار الجيل بيروت سنة ١٣٩٩ هـ .

١٤٤ - تاريخ الخرطوم ص ٢١ .

١٤٥ - تاريخ الخرطوم ص ١٧٣ .

١٤٦ - تاريخ الخرطوم ص ٢١/١٦/١٥ .

١٤٧ - تاريخ الخرطوم ص ٢٥ هذا وكانت تقع ضمن حدود السودان بلدة أخرى تحمل نفس الاسم (خرطوم) وهى قرية تابعة لكلايشة تجاه جزيرة دارموت الواقعة على مقربة من المعبد الذى يسميه الأهالى بيت الوالى راجع رحلات بوركهات ص ١٠٦ .

أعقبه عمل جاد فى تعمير الخرطوم تبناه محوبك الذى أطلق اسمه على منطقة الشجرة الواقعة جنوب الخرطوم (١٤٨) ثم جاء خورشيد باشا وحل محل محوبك فعمل على توسيع الخرطوم وكان قد بنى بها مسجداً فى سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ م ، وقام بتوسيعه فى سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م .. (١٤٩) ونقل إليها كل دواوين الحكومة فى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م (١٥٠) على أن الخرطوم تلبث أن أخليت من كل سكانها وهجرت حين سقطت فى يد الدولة المهدية فى سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٥٨ م ، ولم تعد إليها الحياة ويعمها الازدهار إلا بعد احتلال الأوربيين للسودان وقضائهم المبرم على أم درمان واجهة التحدى الأفريقى للتوغل الأوربى ، وذلك فى سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م .

١٦ - أم درمان : وقد عرفت بهذا الاسم فى

عصر العنج السابق لعصر الفونج حيث قالوا إن بنتاً لأحد ملوك العنج كانت تسكن بها ولها ولد اسمته (درمان) فنسبت البلدة إليها وصارت تعرف باسمها الحالى (أم درمان) (١٥١) .. على أنه أيا كان السبب فمن المؤكد أن شأن أم درمان اضمحل بعد عصر الفونج ، حتى لقد صارت حلة صغيرة (١٥٢) أقام بها خورشيد باشا عدة أيام قبل أن يستقر بالخرطوم . (١٥٣)

وفى سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م بدأت أم درمان فى الازدهار بعد أن اختارها الإمام المهدي معسكراً له للهجرة (١٥٤) . وأعاد لها اسم البقعة المباركة الذى سبق أن أطلقه عليها الشيخ أحمد الطيب بن البشير جد الأستاذ / محمد شريف شيخ الإمام المهدي . (١٥٥)

مفضلاً لها بذلك على مدينة الخرطوم ، الأمر

١٤٨ - كان محوبك قد عسكر تحت شجرة عرفت من قبل باسم شجرة النقارة وعرفت فيما بعد باسم شجرة غردون وتجاهل الناس حالياً ما التصق بالشجرة من أسماء وصاروا يطلقون عليها اسم الشجرة فقط تاريخ الخرطوم ص ١٦ / ١٧

١٤٩ - تاريخ الخرطوم ص ١٧ علماً بأن شقير قال فى كتابه عن نفس المسجد ما يلى وضع حجر الأساس لجامعها فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٠ م وسيتم بناؤه فى أواسط السنة الآتية راجع ص ١٣٤٩ جغرافية وتاريخ السودان .

١٥٠ - تاريخ الخرطوم ص ٢٦

١٥١ - تاريخ الخرطوم ص ٨٤

١٥٤ - تاريخ الخرطوم ص ٨٣

١٥٥ - سميت بالبقعة المباركة والبقعة الطاهرة ودار الهجرة ودار الفلاح ومركز الإرشاد وبأمدرامان .. راجع تاريخ الخرطوم ص ٨٥ وراجع مقالا عن أم درمان بين التأصيل والتأهيل للأستاذ الطيب محمد الطيب ، نشر فى جريدة السودان الحديث بالسودان العدد ٩٤٧ بتاريخ الجمعة ١٥ صفر سنة ١٤١٣ هـ / ١٤ / ٨ / ١٩٩٢ م .

الذى سار على منواله فيه الخليفة عبد الله إذ ورد أنه - وفى السنة المذكورة التى توفى فيها الإمام المهدي وأعقبه هو - كان قد أمر القاطنين فى الخرطوم بإخلاء المدينة والانتقال إلى أم درمان ، ولم يستثن من ذلك غير الأشراف الذين كلفهم بطرد من تبقى من أهالى الخرطوم بها . (١٥٦)

ولاهتمام الإمام المهدي وخليفته بأم درمان اختار الأول بها فضاءً واسعاً أحاطه بالشوك ليكون للأمة مسجداً ، وقد استبدل خليفته بالشوك سوراً من الطوب الأحمر وضع أساسه فى يوم الأربعاء ٤ / ربيع الأول سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م وفرغ منه فى يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ م (١٥٧) .

هذا وقد تعرضت أم درمان عاصمة البلاد

لهجمة شرسة من الأوربيين وأعوانهم تسنى للسلح فيها أن ينتصر على القوة والحق فسقطت أم درمان فى صباح الجمعة ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م الموافق ١٣١٦ هـ وتم عقب ذلك تدمير المسجد الجامع وأحيل إلى ساحة لاستعراض الجيوش . (١٥٨)

٧ - الخرطوم بحرى : (١٥٩) وهى مدينة

حديثه النشأة لم يكن لها وجود قبل بداية القرن الرابع عشر الهجرى العشرين الميلادى ، (١٦٠) وقد قامت على جزء من الموضع الذى كان يطلق عليه اسم الحلفايا ، ذلك أن المعروف تأريخيا أن لفظ الحلفايا كان قديماً يطلق على إقليم واسع ، (١٦١) يعم شرق النيل وغربه حتى أنه ليذكر أن الشيخ أبو صالح بن الشيخ أحمد الطيب بن الشيخ البشير حين تحدث الكتاب عن تاريخه وخلافته -

١٥٦ - تأريخ الخرطوم ص ٨١

١٥٧ - تأريخ الخرطوم ص ٩١

١٥٨ - تأريخ الخرطوم ص ١١٤

١٥٩ - تم افتتاح مسجد الخرطوم بحرى يوم الجمعة ١١ / ٣ ، وأقيم الحفل لبناء جامع الخرطوم بحرى فى الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة الثالث من نوفمبر سنة خمسين بعد التسعمائة والألف (١٩٥٠) م وذلك بالقرب من محطة الترام (سابقاً) وأمام المجلس البلدى .

١٦٠ - تأريخ الخرطوم ص ١٧٢

١٦١ - تأريخ الخرطوم ص ١٧٢

١٦٢ - راجع التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ص ١٧١ / ١٧٢ / ١٧٦ / وثيقة رقم ٣ ص ٢٠

بتأريخ ١٦ رجب .

(١٦٢) أشير إلى المنطقة ومكان المسجد الذي هو به بأنه يقع جهة الحلفاية (١٦٣) . وجاء ذلك بوضوح فى الدفتر رقم ١٢٥٧ صادر عرضحالات الداخلية بالوثيقة التركية رقم ٢ ص ٤ بتاريخ ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢ هـ . وبالدفتر رقم ٥٢٩ (معينة عرضحالات) بالوثيقة التركية رقم ٣ صفحة ٢٧٣ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ وبالدفتر رقم ١٢٨٢ هـ بالوثيقة التركية رقم ٣ ص ٢٠ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٨٦ هـ (١٦٤) .

٨ - **دنقلة العجوز** : عاصمة النوبة السفلى .. أو مملكة المقررة وقد فتحها المسلمون فى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م ثم دخلت فى حكم ملوك سنار وكان خاتمة مجدها غزو الشايقية لها فى أواخر القرن الثامن عشر للمسيح أوائل القرن الثالث عشر للهجرة ، وبعده أصبحت يبابا فأخنى عليها الذى أخنى على لُبد .. علما بأن بها مقامات للصحابة أحدها - كما قيل - لسيدنا عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق .. مع أن المذكور مات بمكة أو على بعد عشر أميال منها بموضع يقال له الحبشى وذلك فى

سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م كما ورد ذلك فى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر (١٦٥) .

٩ - **دنقلة الجديدة** : عاصمة مديرية دنقلة وتوصف أحياناً بالجديدة تميزاً لها عن دنقلا القديمة المذكورة وتسمى دنقلا الجديدة أيضاً بالأوردى أو العرضى لأن إسماعيل باشا - بعد احتلال السودان - كان قد اختارها عاصمة للبلاد بدل دنقلة العجوز ووضع فيها أوردبا (أى فيلقاً من العساكر) فأطلق عليها اسم (الأوردى) وحرف إلى العرضى (١٦٦) .

١٠- **بزر** : وكانت عاصمة ذات شهرة وعلى الأخص فى عهد مملكة سنار وبعدها حين الغزو التركى للسودان وكانت مقر كرسى الميرفاب ، وقد سقطت فى يد جيش الإمام المهدي فى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م واحتلها الأوريون وأعوانهم سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م ، وكان قد سكنها الشيخ زين العابدين الأموى الشنقيطى القادري وبها توفى ودفن سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨١٦ م (١٦٧) .

١٦٤ - راجع الوثائق المذكورة مترجمة فى كتاب التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ص ١٧١/١٧٢/١٧٦ / طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م وراجع تأريخ الخرطوم ص ٢٠٤/٤١
١٦٥ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ١٠١/٩٩ والاستيعاب ج ٦ ص ٣٥/٣٤ رقم ١٣٩٤
١٦٦ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ٩٩
١٦٧ - جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠٥

١١ - شندى : وكانت مركز مملكة الجعنيين وذات نشاط تجارى واسع فغدر بها وبأهلها الدفتردار فى فاتحة استعمار متمردى الأتراك للبلاد (١٦٨) .

١٢ - سنار : وهى من أشهر مدن السودان وأقدمها (١٦٩) وكانت مأهولة بالسكان منذ زمن بعيد (١٧٠) .. وقد اتخذها الفونج فى سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م عاصمة لدولتهم فسموا نجمها وذاع صيتها فانتسبَ أو نُسب إليها السكان (١٧١) وقصدها الناس من كل مكان (١٧٢) وأنشئ لطلابها بمصر رواق خاص بهم عرف برواق السنارية ، وكان لعلمائها مكانة مرموقة فى العالم الإسلامى . إذا اتخذوهم مرجعاً فى بعض ما يكتبون من موضوعات فالشيخ أحمد الطيب بن بشير (المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م) كان شيخا لشيخ الشيخ محمد حقى النازلى (المتوفى سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ م) حيث أجازته فى خواص

القافات ، وعن ذلك يقول النازلى فى كتابه خزينة الأسرار جليلة الأذكار ما يلى : اعلم أن هذه الآيات إذا قرئت كل واحدة منها مرة تكرر الأسماء المذكورة عقب كل واحدة منها ثلاث مرات مثلا : قيوم يرزق من يشاء القوة ثلاثا .. كذا. أجاز لى شيخى سليمان أدرنوى عن الشيخ أحمد السنارى (١٧٣) .. وكان الشيخ محمد بن عثمان الصايغ السنارى أستاذاً للشيخ صديق المدنى بن عمر خان تلميذ سيدى الشيخ محمد عبد الكريم السمان وعنه تلقى بعض معارفه حين زار أرض سنار .. (١٧٤)

هذا وكانت الكرامة التى ذكرها الشيخ صديق حين زيارته لأرض سنار ذات دلالة مفادها قوة الصلة بين أهالى سنار حكومة وشعبا وبين أهالى المدينة المنورة وإلا فما بال سلطان سنار يبعث إلى الشيخ صديق أثناء وجوده بسنار ويكرم نزله ، ثم يبعث إليه غداة

١٦٨ - جغرافية وتاريخ السودان ص ١٠٦ / ١٠٧

١٦٩ - جغرافية وتاريخ السودان ص ١١٣

١٧٠ - كتاب الطبقات هامش ص ٣٩ سطر ٥ من رقم ١١

١٧١ - خزينة الأسرار للنازلى ص ٧٥ . وفيه أشير إلى الشيخ أحمد الطيب بن البشير بأحمد السنارى .

١٧٢ - قطف أزهار المواهب اللدنية ص ١٨٥

١٧٣ - خزينة الأسرار ص ٧٥ طبع عيسى الحلبي بمصر .. علما بأن القافات مطبوعة بزيل حزب الأمان للشيخ أحمد الطيب .

١٧٤ - قطف أزهار المواهب الربانية من أفنان رياض النفحة القدسية للشيخ صديق بن عمر خان ص ز طبع دار الطباعة المحمدية سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

ذلك اليوم بأمامه الذى يصلّى به فيبلغه مانصّه .. إن السلطان مابعث إليك إلا لتتوجه إلى الله ببركات أستاذكم (الشيخ محمد عبد الكريم السمان) فى نزول المطر فاسأل الله له فعسى ببركته أن يسقينا الغيث ويكون ذلك كرامة له . (١٧٥)

احتل متمردوا الأتراك سنار فى سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م .. وجعلوها مركزا لمديرية سنار ، بل ومنفى لبعض من غضبوا عليهم من اللبنانيين وغيرهم ، ودامت فى يدهم حتى استردّها منهم جيش الإمام المهدي سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م .. وبعدها خربت حتى لم يبق بها عام إعادة احتلالها سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م إلا مئذنة لمسجد كان قد بناه خورشيد بك بأمر من محمد على باشا . (١٧٦)

١٣- **فرص** : وهى عاصمة مملكة نوبا طيا أو مملكة المريس الواقعة ما بين الشلال الأول بأسوان حتّى آخر الشلال الثانى المعروف ببطن الحجر وبها أطلال مدينة قديمة يظن أنها من عهد الرومان (١٧٧) .

١٤ - **مروى** : التى تقع شمال كبوشيه عند قرية البجراوية وهى - كما هو معروف كانت عاصمة لدولة امتدت من الشلال الأول إلى أعالي النيل ، وكانت ذات حضارة كبيرة تمثلها الأهرامات والمعابد والعمارات والحفائر ، وظلت ذات شأن حتى أسقطها الأكسوميون حوالى سنة ٣٥٠ م (١٧٨) .

١٥ - **نبتة** : وهى عاصمة مملكة النوبة فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان من أشد ملوكها الملك بعانخى الذى غزا مصر واستولى على السلطة فيها من سنة ١٣٣٥ قبل الهجرة ٧١٣ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٨٧ قبل الهجرة ٦٦٠ قبل الميلاد ووطد خلال حكمه لها صلات تجارية وسياسية مع عدد من دول العالم كان على رأسها سوريا وفلسطين حتى أن ملوك هذين القطرين اعتبروه صديقا لهم وحاميا لبلادهم (١٧٩) .

١٧٥ - قطف أزهار المواهب الربانية ص ١٨٥ هذا وجاء فى نفس الكتاب الإشارة إلى بعض سكان سنار ممن التقى بهم المؤلف مثل الشيخ عبد الله بن بخيت الذى التقى به فى سنار ، والشيخ إبراهيم القولباوى الذى التقى به فى مكة راجع ص ١٨٩/١٨٥

١٧٦ - جغرافية وتاريخ السودان ص ١١٣/١١٤

١٧٧ - تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث للأب الدكتور ج . فانتنى طبع .

١٧٨ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير .. وتاريخ السودان لندور ص ٣٨

١٧٩ - تاريخ السودان لندور ص ٣٠/٣٢ ، والجواهر الحسان ص ٦/٧

حدود السودان السياسية

أراضى السودان التى كانت تعرف بذلك
باسم كوش (١٨٠) أو باسم الحبشة أو
إثيوبيا (١٨١) هذه الأراضى تعرضت لغزو
أجنبى قاده ضدها الملك (بى) الأول ثانى
ملوك الدولة المصرية السادسة (سنة ٣٧٠٣
إلى ٣٥٠٠ ق. م (١٨٢) إذ يروى أنه أرسل
قائده أوناس (UNA) إلى جهات كورسكو
(١٨٣) فتم له بذلك إخضاع المنطقة ودانت له
بالولاء قبائل تلك الجهة .
وفى عهد الملك (متوسوفيس) وهو
الملك الثانى عشر من ملوك الدولة المصرية
السادسة - تم غزو السودان أو بلاد التوانيت
مرة أخرى بقيادة القائد (هرخف) ، وأسروا
فيمن أسروا منه بعض الأقزام ممن كانوا
يحسنون رقص الآلهة (١٨٤) .
وفى أيام الدولة المصرية الثانية عشرة
(٣٠٦٤ - ٢٨٥١ ق. م) أعاد (أوسرتسن)
الأول ثانى ملوك هذه الدولة غزو أراضى
السودان فمد حدود مصر جنوباً إلى الشلال
الثانى (١٨٥) ثم جاء (أوسرتسن) الثالث
خامس ملوك هذه الدولة فوصل بحدود مصر
إلى شلال سمنة واعتبر ذلك حداً فاصلاً بين
أراضى الدولتين . (١٨٦) هذا ولم تمر فترة
حتى استرد السودان استقلاله وأمكنه أن يملك
قراره السياسى بعيداً عن التأثير الأجنبى فأتاح
له ذلك منح اللجوء السياسى بأرضه لمن هاجر

١٨٠ - كوش : اسم عرفت به أراضى السودان فى التوراة وفى الآثار المصرية راجع جغرافية وتاريخ السودان
لشقيير ج ٢ ص ٢٩٧ وراجع التوراة الملوك الأول ١٤ : ٢٥ والأيام الثانى ١٢ : ١/٢ الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩ الأيام
الثانى ٣٥ : ٤٠ والجواهر الحسان ص ٣ ، والتربية فى السودان ج ٣ ص ١ ، هذا وكوش لفظ عبرى معناه الأسود
راجع الفصائل اللغوية للدكتور/ محمود فهمى حجازى وهو بحث قدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته ٥٨
١٨١ - إثيوبيا : اسم أطلقه اليونانيون على جميع بلاد السود راجع أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس
الخريطة رقم ٢٨ العالم فى عصر البعثة النبوية (أوائل القرن السابع الميلادى) وراجع أيضاً الخريطة رقم ٢٠ والخريطة
٣١ ، والخريطة ٣٣ وراجع الجواهر الحسان ص ٣ وراجع كتاب التوراة جاءت من جزيرة العرب ص ٩١ (صور مرفقة من
الخرائط وتجدها فى الباب السادس من هذا الكتاب تحت عنوان خرائط) .

١٨٢ - جغرافية وتاريخ السودان لشقيير ج ٢ ص ٢٩٩
١٨٣ - كورسكو .. بلدة صغيرة تقع على بعد ١٢١ من الميل من السبع وهى أقرب نقطة نيلية إلى أبى حمد
راجع شقيير ص ٩٢

١٨٤ - شقيير ص ٢٩٩

١٨٥ - شقيير ص ٣٠٠

١٨٦ - شقيير ص ٣٠٠

إليه من المصريين (١٨٧) فراراً من عسف
وطش الرعاة العمالقة أولئك الذين قدموا من
آسيا الجنوبية وغلبوا المصريين على أراضيهم
واستعمروها ستمائة سنة ونيقاً .

بين السودان ومصر :

خلال فترة استقلال السودان كوّن أهله مملكةً
مُنظمةً جعلوا (نبتة بالقرب من مروي)
عاصمةً لها وأسسوا بها حضارة تجلّت في أنواع
شتّى في الفنون والصنّاع .. (١٨٨) وبنوا
جيشاً ساعدوا به الملك أحمس أول ملوك الدولة
الثامنة عشرة على طرد الرعاة من مصر وإعادة
استقلالها لها بعد أن توجّبا علاقاتهما
بالمصاهرة والنسب حيث تزوج ملك مصر آنذاك
بنت ملك السودان . (١٨٩)

وفي عهد الملك (تحوتمس) الأول ثالث
ملوك الدولة المصرية الثامنة عشرة (١٦٠٠ :
١٣٨٠ ق . م) أعيد احتلال السودان عسكرياً
فأصبح بذلك تابعاً لمصر ، غير أنه ما إن استرد
استقلاله عنها حتّى قام بغزوه مرة أخرى

(امنحتب) الثالث المعروف (بامنوفيس)
تاسع ملوك الدولة المصرية الثامنة عشرة ، وقد
دوّن هذا الأخير خبر انتصاراته على صخرةٍ
بقرب جزيرة فيلى في جنوب الشلال الأول ،
حيث جزيرة أنس الوجود ، وبنى لنفسه هيكلًا
في صُلب ، وآخر في عاصمة نبتة ، ووضع
أمام بابه صقّين من الكباش الرابضة على
هيئة أبي الهول . (١٩٠)

وفي عهد (حور محب) آخر ملوك الدولة
المصرية الثامنة عشرة أعيد غزو السودان بعد
أن نعم فيما يبدو فترةً باستقلاله ، وأصبحت له
دولة ذات شأن وبأس ، بدليل أن النصّ الذي
سجل فيه (حور محب) خبر انتصاره على
السودان جاء فيه : لقد قدم المقدّس الفاضل
بعد أن قهر كبار الأمم أجمع وقوسه تلمع في
يده ، فحبّذا هذا الملك القادر الفخيم الذي جاء
برؤساء إثيوبيا . (١٩١)

ثم كانت الدولة المصرية التاسعة
عشرة (١٣٨٠ : ١٢٣٠ ق . م) وفيها

١٨٧ - كان أبرز مهاجر المصريين هو مهجر أزقو راجع شقير ج ٢ ص ٣٠١

١٨٨ - راجع الحضارة والدين للبروفسير حسن الفاتح قريب الله .

١٩٠ - شقير ص ٣٠٣

١٩١ - شقير ص ٣٠٤

غزا (رعمسيس) الثانى . (١٩٢) ثانى
ملوكها أرض السودان ، وأقام له فى تلمس
(كلابشة) هيكلاً صغيراً نادر المثال ، حفره
فى الصخر تذكيراً لانتصاره ، وهو من أثمن
الآثار القديمة فى مصر وإثيوبيا ، وعلى جدرانها
نقوش صور وكتابات رائعة الصنع .
ولرعمسيس المذكور آثار أخرى بالسودان
منها :

١/ هيكَل منحوت فى صخرة فى (الدر) .
٢/ هيكَل من الحجر الرملى الصلب أقامه
فى (السُّبوع) .

٣/ قلعه بواى (السُّبوع) . (١٩٣)

٤/ هيكَل أبى سمبل على بعد ١٧٠ ميلاً
من الشلال الأول ، وهو هيكَل عظيم منحوت
فى الصخرة فى منحدر أكمة مرتفعة فوق
النيل ، أقامه رعمسيس تذكيراً لانتصاره على
الحيثيين فى الشمال الشرقى من سورية وهو

أجمل وأعظم الهياكل فى إثيوبيا الشمالية
أو السودان ؛ بل لقد ورد بأن فى صنعه ونحته
من العظمة مع البساطة على ما لا يوجد فى غيره
من هياكل وادى النيل كلها . (١٩٤)

٥/ هيكَل نبته .. وهو أقدم الهياكل :- فيما
يبدو - بتلك المدينة (١٩٥) هذا وفى الفترة
التي أعقبت انقضاء الدولة العشرين خرج
السودانيون عن طاعة مصر واستقلوا ببلادهم
فتسنى لهم بذلك تكوين دولة علا نجمها وذاع
صيتها فأصبحت لها بذلك الريادة والسيادة فى
كل المنطقة ، بل لقد روى أنها مدت حدودها
فضمت إليها بعض الأراضى المصرية ،
ودحر ملكها (الملك بعنخى) هجوماً
للملك (تفتح) حاول به استرجاع بعض
أراضى بلاده على أنه ما إن استسلم الأخير
لسطوة الملك بعنخى حتى أقامه نائباً له بمصر
مُقرأً كذلك أمراءه على ما كانت لهم من

١٩٢ - رعمسيس الثانى هو ابن أمينوفيس أو أمونفائيس كما كان يعرف قديماً وهو اسم لفرعون مصر الذى
عاصره سيدنا موسى عليه السلام راجع هامش كتاب تاريخ مختصر الدول للعلامة غريغوريوس أبى الفرج بن أهرون
الطبيب الملقب المعروف بابن العبرى تصحيح وفهرست الأب أنطون صالحانى اليسوعى طبع دار الرائد اللبنانى ببلبنان
سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م . هامش ص ٢٧

١٩٣ - شقير ص ٣٠٦

١٩٤ - شقير ص ٣٠٦

امتيازات سابقة فى عهد مليكهم -
جاعلا له ولهم من مدينة (نبتة)
عاصمة للمملكة الموحدة التى ضمت
(السودان ومصر). (١٩٦)

وانقضت أيام الملك بعنخى .. وفى أيام ابنه
الملك (كاتشا) أو (كاشتا) ثار عليه نائبه
بمصر الملك (تفت) ، ثم من بعده ابنه
(باكوريس) واستطاعا استرداد مصر من قبضة
السودانيين ، غير أن الملك السودانى (سباقون)
ابن الملك (كاتشا) أعاد فتح مصر مرة أخرى
بعد أن قتل ملكها (باكوريس) ، وبذلك أسس
دولة عرفت فى تاريخ مصر بالدولة الخامسة
والعشرين الإثيوبية (٧١٥ : ٦٦٤ ق.م) .

هذا وما يذكر عن الملك (سباقون) أنه كان
رجلاً عدلاً فخوراً ، محباً للتقدم والإصلاح ،
بدليل أنه لما تولى سرير الملك شرع فى تنظيم
مصر وضبط إدارتها ، فأبقى كل رئيس على
إقليمه مع حفظ نفوذه على الرؤساء
بمراقبة أمراء إثيوبيين له وجعل شقيقته
(آمن ريتس) ملكة على الوجه القبلى فى

١٩٦ - شقير ص ٣٠٧ / ٣١٥

١٩٧ - شقير ص ٣١٥ / ٣١٦

ثيبه وأنشا بمصر الجسور ، وأكثر من حفر الترع
حرصاً على البلاد من أن يمسها غرق ، ورّم
كثيراً من المعابد ، واستبدل عقوبة القتل
بالأشغال الشاقة ، واشتهر بحسن التدبير ،
وجودة السياسة فتمتعت مصر فى عهده بالراحة
والاستقرار والأمان والرخاء . (١٩٧)

على أن طموح هذا الملك ورغبته فى
التوسع ، وسط نفوذه على بلاد الشام وحرصه
على مساعدة (هوشع) ملك إسرائيل ، وتحالفه
معه ضد (شلمنصر) ملك آشور الذى كدّر
صفاء الفينيقيين والإسرائيليين والفلسطينيين
كل ذلك عجل بحتفه وزوال سلطانه - حيث
هزم فى حربه ضد الملك آشور من ناحية ، وثار
عليه سكان الوجه البحرى تحت رئاسة
(اسطيفانيس) أحد أقرباء الملك (باكوريس)
من ناحية أخرى ، وبذلك زال ملكه بمصر
وانحصر سلطانه داخل بلاده بالسودان .
(١٩٨)

بعد أن مات (سباقون) استطاع الملك
(سبيخون) أن يستعيد حكم مصر ويخضعها

لسيطرتة ، على أنه ما إن استتب له الأمر حتى
ثارعليه أحد أمرائه من السودانين واسمه (
طهراق) فقضى على ملك (سبيخون) ونصّب
نفسه ملكا بدلا عنه ثم زحف طهراق على
اسطيفانيس وحرر (منف) من قبضته واستدعى
من بعد أمه من السودان فولأها حكم
الوجه البحرى والقبلى ومنحها لقب
(سيدة الأمم). (١٩٩)

وفى النصف الأول من القرن السابع قبل
الميلاد تعرضت مصر لغزو أجنبى من الأشوريين
انسحب على إثره السودانيون من مصر ، ثم
وفى سنة ٦٦٩ ق.م عاودوا فتحها فصدهم
عنها الأشوريون ، على أنهم ما إن علموا بعودة
الملك آشور إلى بلاده (نيترى) حتى
استرجعوا من أمرائه أملاكهم ، وظلوا حكاما
عليها فترة بلغت فى مجموعها عشرين عاما .
هذا وقد انسحب الملك طهراق من مصر
بمحض اختياره ولما توفى بالسودان تولى
الملك من بعده صهره (أوردآمن) ثم خلفه

١٩٨ - شقير ص ٣١٦

١٩٩ - شقير ص ٣١٦/٣١٧

٢٠٠ - شقير ص ٣١٧/٣١٨

٢٠١ - شقير ص ٣١٨/٣٢٠

٢٠٢ - شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ٣٢٠

الملك (توات ميامون) (٢٠٠) وفى عهد هذا
الأخير تم فتح السودان لمصر فتوحدت قيادتها
السياسيه تحت إمرة السودانيين بعد أن ساعدهم
على النصر إخوان لهم كانوا قد كونوا حزبا
قويا فى (ثيبة) وضواحيها وأقاموا فيها
زمانا حائزين لرتبة الكهانة فى معبد (آمن
رع) (٢٠١) وفى آخر أيام هذا الملك الأخير
تآمر ضده بعض وجهاء مصر واقتسموا الملك
بعده فيما بينهم وكانوا اثنى عشر حاكما
فسميت حكومتهم بالمقائمة الأنثى عشرية
وداموا على ذلك خمس عشرة سنة إلى أن قام
أحدهم وهو (بسامتيك) بلاستئثار بمفرده
بحكم مصر ، مستعينا لتحقيق ذلك ببعض
المرتزقة من اليونانيين الذين آزره فى التخلص
من منافسيه من ناحيه ، ثم فى إبعاد
السودانيين إلى خارج أسوان من ناحية أخرى
منهين بذلك فترة ٤٩ سنة شهدت فيها مصر
باعتراف المؤرخين عدالة لم تشهدها
من قبل . (٢٠٢)

بعض أشهر لغات السودان قديماً :

اللغات السامية التي دخلت المناطق
السودانية عن طريق الشرق منذ القرن العاشر
قبل الميلاد كانت تشمل :

١ / لغة الجِعْز (الكِعْز) : Gueze Geez

وهذه اللغة هي أقدم ما وصل إلينا مدونا من
اللغات السامية بالسودان .. ويتمثل المحفوظ
منها حالياً ومن القرن الثالث الميلادي - في
نقوش خالية من الحركات ، علما بأن ما على
اللغة من حركات في العصر الحاضر هي حركات
حادثه نسبياً إذ يرجع تأريخها إلى القرن
الخامس بعد الميلاد .. هذا وكانت اللغة
المذكورة ذات تراكيب ومعان أشبه ما تكون
باللغة العربية الفصحى .. (٢٠٣) وهي وإن
أخذت تنقرض منذ القرن الثاني عشر الميلادي
فقد بقيت حيّة بفعل الكنيسة وإن انحصرت
دائرتها في نطاق ضيق لا يكاد يتعدى
الطقوس الدينية .

ب / اللغة التَّجْرِية (التَّكْرِية) : (٢٠٤)

Tigré : Tigre

وهي لغة تنتسب إلى منطقة التَّجْرِ وكانت
منتشرة في منطقة تمتد من مُصَوِّع إلى كَسَلَا
ويتحدث بها الارتريون وسكان جزيرة (دهلك)
وقد أخذفى تدوينها منذ أوائل هذا
القرن . (٢٠٥)

ج / اللغة التَّجْرينية (التَّكْرينية) :

Tigrigana (Tigri) Tigrinya : Tigray

وكانت كسابقتها تنتشر في منطقة تمتد من
مُصَوِّع إلى كَسَلَا وتحدث بها كذلك بعض سكان
شمال السودان . (٢٠٦)

د / اللغة الأَمْهرية : Amharic

وهي لغة ذات طابع كوشى وكانت أكثر
انتشاراً من سابقتها إذ تحدث بها بعض سكان
شمال السودان وشرقه كما تحدث بها سكان

٢٠٣ - العربية هي إحدى اللغات السامية الجنوبية التي كانت تنتشر في شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية وفي
الحبشة (السودان) وأقدم نص عربى قديم وصل إلينا منها يرجع تاريخه إلى سنة ٣٧٨ بعد الميلاد علما بأن العربية
المذكورة ذات مراحل تاريخية متعددة ومستويات لغوية شتى وقد استخدم القرآن منها اللغة الفصحى وعليه فيها
اعتمد النحاة في وضع قواعد اللغة العربية كما اعتمدوا على كلام العرب شعراً ونثراً حتى منتصف القرن الثاني
الهجرى بالنسبة للحضر وأواخر القرن الرابع بالنسبة للبدو (راجع الفصائل اللغوية للأستاذ دكتور محمود فهمى
حجازى ص ١١/١٢) .

٢٠٤ - نفسه ص ١٤

٢٠٥ - نفسه ص ١٤/١٥

٢٠٦ - الفصائل اللغوية ص ١٥

الحبشة فى حدودها الحالية ، وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . (٢٠٧)

هـ / اللغة التى تسمى اصطلاحاً بالمصرية

القديمة (الهيروغليفية) :

وهى لغة استخدمت فى الكلام والكتابة فى السنوات (٣٢٠٠ - ٢٢٤٠ ق.م) إبان عهد الدولتين القديمة والوسطى اللتين امتدت حدودهما الجغرافية والسياسية حتى سمنة ؛ الأمر الذى جعل الغزاة الهيروغليفية لغة رسمية للسودان سجّل بها الأخيرون آثارهم ، واستخدموها فى الكلام والكتابة تبعاً لمن احتلوا بلادهم .

و / اللغة التى تسمى اصطلاحاً بالمصرية الحديثة

وهى لغة استخدمت فى الكلام والكتابة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة التى كان للسودانيين الدور المعلن فى إنشائها وتكوينها واستقرار أمورها إذ ساعدوا بجيشهم ملكها أحمس أول ملوك الدولة الثامنة عشرة على طرد الرعاة من

مصر وإعادة استقلالها بعد أن توجا علاقات الجوار بينهما بالمصاهرة والنسب حيث تزوج ملك مصر آنذاك بنت ملك السودان . (٢٠٨)

فى عهد هذه الدولة ذات النفوذ السياسى والعسكرى للسودان فيها على مصر والتى ظلت قائمة حتى عهد البطالة استعمل السودانيون الكتابة الهيروغليفية كما استعملوا الخط الهيراطيقى (٢٠٩) . علماً بأنه فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد هاجر إلى مملكة مروي عاصمة السودان الشمالى آنذاك - آلاف من المصريين غضبا من الملك بسامتيك الأول مؤسس الدولة المصرية السادسة والعشرين (٦٤٤ - ٥٢٥ ق . م) حيث أثر عليهم جيشاً كونه من اليونان . وفى السودان نعم المهاجرون بترحيب وإكرام خاص من ملك البلاد روى أنه أقطعهم أراضى اتخذوها لهم موطناً استقروا به وتوالدوا فنشأت من ذريتهم طائفة كبيرة نالت شهرة ومكانة عند ملوك السودان حتى أنهم أجلسوهم على

٢٠٧ - الفصائل اللغوية ص ١٥

٢٠٨ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ٣٠٢

٢٠٩ - الفصائل اللغوية ص ١٦

يسارهم وأسموهم طائفة (الأسماخ) أو
(الأتومولى) . (٢١٠)

فى عهد هؤلاء الأسماخ أو الأتومولى أخذت
الكتابة الهيروغليفية المذكورة سابقا - صورة
مختصرة غير الهيروغليفية أطلقوا عليها اسم
(الديموطيقية) وظلت فى السودان كما هو
الحال فى مصر لغة كتابة طوال العصور
الصاوية واليونانية والرومانية (٢١١) .

هذا وقد استعان ملوك السودان بالأسماخ أو
الأتومولى المذكورين فألحقوهم بجيش البلاد
ليردوا لهم ما كان لأسلافهم فى بلادهم من
مكانة سلبها منهم اليونانيون .. على أن
السودان لم يلبث أن غزا مصر بهؤلاء
المهاجرين وبغيرهم من السودانيين وذلك فى
سنة ٥٩١ ق . م إبان عهد بسامتيك الثانى
ثالث ملوك الدولة المصرية السادسة
والعشرين (٢١٤) .

ز / اللغة المروية :

ح / اللغة القبطية : وكانت قد شاعت هذه
اللغة بالسودان إبان العصر النصرانى وعلى
الأخص بعد أن عظم الاتصال بين النوبة
والإسكندرية حتى أنه ليروى أن مطارنة النوبة
كانوا يفدون إلى السودان من الإسكندرية
بعد أن ينصبهم لهذا الغرض بطريك
الأقباط .. هذا وكانت اللغة القبطية المذكورة
تكتب بأبجدية أخذت أربعة وعشرين حرفا من
الأبجدية اليونانية وسبعة أحرف من الخط
الديموطيقى (٢١٣)

ط / لغة البجة (أو اللغة البشارية :

وهى لغة كوشية كانت تنتشر على ساحل
البحر الأحمر فى المنطقة الشمالية الشرقية من
السودان ، على أن دائرة انتشارها حاليا قد
انحسرت بعد أن عمت اللغة العربية كل أجزاء
السودان بحدوده الحالية .

٢١٠ - جغرافية وتاريخ السودان لشقير ص ٣٢٣

٢١١ - الفصائل اللغوية ص ١٦ وتاريخ السودان لندور ص ٥٠

٢١٢ - جغرافية وتاريخ السودان ص ٣٢٣

٢١٣ - الفصائل اللغوية ص ١٦

٥ / اللغة العربية :

تعد اللغة العربية (٢١٤) من حيث الخصائص الصوتية والصرفية أقرب اللغات من اللغة السامية الأم .. وكانت قد انتشرت قديما فى المنطقة التى تحد من الجنوب الشرقى بالخليج العربى ، ومن الشمال الشرقى ببلاد ما بين النهرين ، ومن الجنوب الغربى بالهضبة الحبشية ، ومن الشمال الغربى بالبحر الأبيض المتوسط وامتدت شمالا على مدى عدة قرون إلى الأندلس فى عهد الدولة الإسلامية بها .

هذا وتنقسم اللغات السامية إلى :

١ / السامية الشرقية : وهو مصطلح يطلق فى إطار التقسيم الجغرافى للغات السامية على اللغة الأكديّة ؛ وهى كما ورد لغة العراق القديمة وكانت كتابتها بالأحرف المخروطية الشكل مقطعية وليست أبجدية .

٢ / السامية الغربية : وهى مصطلح يُطلق

فى إطار التقسيم الجغرافى على اللغات السامية التى انتشرت فى الشام والجزيرة العربية والحبشة .

٣ / السامية الشمالية .

٤ / السامية الجنوبية :

ومنطقة انتشارها قديما شبه الجزيرة العربية شمالها وجنوبها والحبشة . فى إطار هذه اللغة السامية الجنوبية نشأت اللغة العربية .. والأخيرة تسمية عامة تشتمل على كل مستويات اللغة العربية من النقوش القديمة والشعر الجاهلى والقرآن الكريم والحديث الشريف ولغة الآداب والعلوم واللهجات فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية إلى العصر الحديث علما بأنه وفى داخل العربية المذكورة مراحل تاريخية متعددة ومستويات لغوية شتى ، يستخدم الباحثون لوصفها مصطلحات مختلفة مثل :

٢١٤ - بالرغم من أن اللغة العربية أقدم تاريخيا من اللغتين الكنعانية والآرامية وبالرغم من أن اللغات الثلاثة المذكورة كانت تستخدم لدى مجتمعات مختلفة فى غرب شبه الجزيرة العربية - إلا أنه من المرجح أن اللغة الكنعانية (التى تمثل اللغة العبرية لهجة من لهجاتها) كانت قد ماتت أو كادت فى سنة ٥٠٠ ق . م وحلت محلها اللغة الآرامية فأصبحت فى ظل حكم الاخمينيين لغة الإدارة فى أنحاء الإمبراطورية الفارسية واللغة المشتركة لمنطقة الشرق الأدنى .. هذا وبحلول القرون الأولى لميلاد سيدنا المسيح عليه السلام - كانت اللغة العربية وهى أصلاً لغة القبائل الرعوية للبادية الشامية العربية وكذلك فى أجزاء من العراق والشام غير تاركة سوى جيوب صغيرة من المتكلمين بالآرامية فى هاتين المنطقتين الأخيرتين فى القرن السابع أو الثامن للميلاد (راجع التوراة) .

أ/ العربية الفصحى .

ب/ العربية المولدة .

ج/ العربية المعاصرة .

د/ اللهجات العربية .

ولما كانت اللغة العربية لغة أصيلة بالسودان ، انتشرت بين أهله فى نفس الوقت الذى انتشرت فيه بين سكان شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية (٢١٥) فقد كان من الطبيعى أن يتحدث بها عامة المواطنين وخاصتهم ، بل وأن يستخدموا اللغة الفصحى منها بكفاءة تجلّت مظاهرها فيما يلى :

١/ مكنتهم من أن يفهموا ويتأثروا بالدعوة الإسلامية التى شرحها لخاصتهم وعبرهم لعامتهم سيدنا جعفر بن أبى طالب .

٢/ مكنتهم من أن يفهموا ويُقدِّروا ويستجيبوا لخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم .

٣/ مكنتهم من أن يتعاملوا تجارياً مع جيرانهم فى الشرق .

٤/ مكنت بعض النصارى من أن يؤثروا على عبِيد الله بن جحش فيرتدّ - والعياذ بالله - عن الإسلام .

٥/ مكنتهم من أن يتعاملوا مع من هاجر إلى بلادهم من الصحابة .

٦/ مكنتهم من أن يستجيبوا لعمر بن أمية بن خُوَيْلِد الضَّمْرَى مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم للنجاشى فيردوا معه المسلمين على ظهر سفينتين خصّصها لهذا الغرض .

٧/ مكنتهم من أن يستمعوا ويستهجِنوا دعوة عبد الله بن ربيعة مبعوث المشركين للإيقاع بالمسلمين ، مما جعله يرجع هو وصحبه خائبين .

٨/ مكنت النجاشى من أن يُقنع عمرو بن العاص بالدعوة الإسلامية فيسلم على يديه .

٩/ مكنت الأفراد والجماعات من أن يهاجروا طلباً للاستقرار النهائى أو المؤقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٠/ مكنت أسرا كاملة من أن تستقر حتى قبل ظهور الإسلام بمكة وغيرها من بلاد العرب .

حسن الفاتح قريب الله

عضو المجمع المراسل

من السودان

الأعلام الجغرافية والأهم المتحدة ★

للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي

وإن الدور الهام الذي تقوم به الخريطة في عالمنا الحاضر بما تجدد فيه من تطورات ، وماعرفه من تغيرات . كل ذلك يكون تحديات جديدة للمهتمين بالخريطة وبالتالى للمهتمين بالعلم الجغرافى حتى نسهل الاتصالات وحتى نتجنب الأخطاء التى حرص أسلافنا على تلافيها فى العلم الجغرافى الذى كان تحريفه عندهم بمثابة تحريف نص مقدس !!

نحن نعلم أن السبب فى تأليف ياقوت الحموى لموسوعته العظيمة : (معجم البلدان) إنما كان ضبط علم جغرافى ورد فى حديث نبوى شريف ، فلقد كان ياقوت يبرو الشاه خان ، فى مجلس يناقش موضوع أسواق العرب فى الجاهلية وضبط كلمة (حَبَاشَة) حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجر لحساب السيدة خديجة ، فرأى ياقوت أنها بضم الحاء ، ورأى أحدهم أنها بفتح الحاء ، فاندفع ياقوت يبحث عن نصوص تؤيد ما ذهب إليه وطال بحثه حتى وقع على مايؤيد رأيه ، ومن هنا جاء تفكيره فى وضع موسوعة تحتوى على 12.953 فقرة تضبط أسماء البلدان على ما يقوله هو فى المقدمة مغتنما هذه الفرصة ليرد

لا يمكن لأى مشروع تنموى - كيفما كان شكله وحجمه - أن يتم دون أن تكون هناك خريطة تحدد موقع المشروع كخطوة أولى لمعرفة حظوظ نجاحه ، ولن تكون الخريطة قائمة إلا باشتمالها على عدد من الأعلام الجغرافية التى من شأنها أن تساعد على ضبط مكان المشروع وتحديد آفاقه .

وحتى يكون هناك ضبط للخريطة وللعلم الجغرافى يسهل على الخبراء فى مختلف جهات العالم ، أن يلتقوا فيه على مائدة واحدة ويتحدثوا بلسان واحد ومصطلح واحد ، فكرت الأمم المتحدة فى أن تعهد إلى المجلس الاقتصادى والاجتماعى (ECOSOC) بإنشاء مؤتمر عالمى مفتوح بصفة مستمرة يُعنى بالخرائط ويضبط العلم الجغرافى ليس فقط لأن ذلك وسيلة فعالة من وسائل التنمية . وليس فقط لأنه وسيلة فعالة من وسائل التقارب بين الأمم ، ولكن لأن العلم الجغرافى تراث من حق كل بلد ، بل ومن واجبها كذلك أن تحتفظ به وتنطق به كما هو عندها . ومن حقها أن تفرض على الأمم المتحدة نفسها طريقة النطق بذلك العلم وطريقة كتابته على سائر الخرائط التى تروج فى العالم كله ..

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٥ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٥ من

أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م .

على المثل السائر القائل : « ما ترك الأول
للآخر شيئاً » وليردّد قوله الجاحظ : « ليس
هناك أضرُّ على العلم من ذلك المثل الذى
يفتر الهمة ويضعف المسنة » على حد تعبير
ياقوت ...!

فمن أجل ضبط العلم الجغرافى اليوم تمت
الدعوة فى الأمم المتحدة إلى التعاون الدولى
من أجل تحقيق رسالة المؤتمر العالمى الهادفة ،
بكل صدق ، إلى غرضٍ شريف يتمثل فى أن
تضيف كل دولة ما عندها من رصيد حول هذا
الموضوع : موضوع العلم الجغرافى تأليفاً وجرداً
وضبطاً سواء على صعيد الخريطة أو على
صعيد السجلات ...

وقد أوصى المجلس الاقتصادى والاجتماعى
كذلك بإنشاء هيئة للخبراء فى الإعلام
الجغرافية تعمل على إنجاح أهداف المؤتمر الدولى
الذى نتحدث عنه ، وعلى هيئة الخبراء أن
تجتمع على رأس كل سنتين .. حيث يستمع
الخبراء لتقارير كل دولة بما أنجزته من أعمال
فى ميدان الخريطة على صعيد الجامعة أو على
صعيد الجامعات والأكاديميات والجمعيات
الجغرافية الوطنية . وهنا نجد بطبيعة الحال
عدداً من الأقسام :

قسم أوربا ، وقسم أمريكا ، وقسم آسيا ،
وقسم إفريقيا ، وقسم العالم العربى .

وبالرغم مما يتراءى من أن هذا المؤتمر علمى
تقنى ، لكننا نلاحظ أنه يتخذ أحياناً طابعاً
سياسياً عندما يتعلق الأمر بالانقسامات
والخلافات الناشئة بين الدول عندما تتعارض
مصالحها على الحدود فيما بينها ، فهنا نجد أن

دولة ما تختار هذا العلم ليعبر عن إقليم ما من
أقاليمها بينما تحاول الدولة الجارة أن تفرض
علماً محدداً تعتقد أنه هو الذى يؤدى الحقيقة
التاريخية .

وأمامنا اليوم الإعلام الجغرافية فى دولة
فلسطين التى نراها تتعرض للتشريف
والتزييف ، ومن هنا كان اهتمام المؤتمر بمحاربة
الأسماء الدخيلة وإعطاء الشرعية للإعلام
الأصيلة التى وردت فى كتب التراث العربى .
ينبغى أن أذكر هنا أن اللغة العربية - بفضل
عملنا الدائب المستمر - أصبحت لغة رسمية
للمؤتمر ، وأصبح فى استطاعة الأعضاء العرب
أن يختاروا - إذا شاءوا - أن يتحدثوا باللغة
العربية التى تترجم فوراً إلى سائر الأعضاء
الذين بلغ عددهم مئة وستين عضواً فى الدورة
الأخيرة التى انعقدت فى نيويورك يونيه
1994 ، وفى استطاعة كل دولة عربية أن تقدم
تقاريرها وخرائطها باللغة العربية .

وقد كان من أبرز مبررات حضور اللغة
العربية فى أعمال هذا المؤتمر العالمى ، أن هذه
اللغة أسهمت بتأليفها فى الجغرافيا وبرجالها
المرموقين فى الفكر الجغرافى ، أقول أسهمت بما
يعتز به العالم اليوم من تراث جغرافى . وقد
كان فى صدر ما يهتم به المؤتمر لتحقيق أهدافه
طريقة أداء الحروف العربية بالحروف اللاتينية
على نحو ما يهتم بطريقة نقل الحرف اليونانى
والروسى مثلاً إلى الحروف المتداولة .

الحرف العربي	مقترح بيروت المعدل	طريقة الموسوعة الإسلامية	المشروع المعروض للمصادقة
أ هـ ن فـ في الأول فـ في الوسط والآخر	A	A	A
	U	U	U
	I	I	I
	ɔ	ɔ	ɔ
ب	B	B	B
ت	T	T	T
ث	TH	TH	TH
ج	J	DJ	J
ح	H	H	H
خ	KH	KH	KH
د	D	D	D
ذ	DH	DH	DH
ر	R	R	R
ز	Z	Z	Z
ط	T	T	T
ظ	Z	Z	Z
ك	K	K	K
ل	L	L	L
م	M	M	M
ن	N	N	N
ص	S	S	S
ض	D	D	D
ع	/	C	C
غ	GH	GH	GH
ف	F	F	F
ق	Q	K	Q
س	S	S	S
ش	SH	SH	SH
هـ	H	H	H
و	W	W	W
ي	Y	Y	Y

وهنا أذكر أننا . نحن المجموعة العربية في المؤتمر - دائماً نصطدم بأن الأخوة العرب لا يتفقون على طريقة واحدة على نحو ما تتفق عليه المجموعات الأخرى المهمة - كما أشرنا - بأمر الحرف الروسى والحرف اليونانى .. لماذا لم نتفق ؟ لأن كل واحد يريد أن يجر النار إلى قُرْصه كما يقول التعبير العربى .. بعضنا متأثر بما خلفه فيه الاستعمار الإنجليزى وبعضنا متأثر بما خلفه الاستعمار الفرنسى ، وأنتم تعلمون أن أماننا فى المؤتمر العالمى ثلاث مشروعات :

١ - المشروع الذى يُعرف بمشروع بيروت المعدل .

٢ - المشروع الشهير الذى تتبعه إلى اليوم الموسوعة الإسلامية .

٣ - المشروع الأخير المعروض للمصادقة .

وإذا كنا قد اتفقنا على معظم الحروف فإن هناك نقاطاً لا تزال محل خلاف (صورة من الجدول) .

أولاً - الجيم : الموسوعة تكتبها كذا DJ ونحن نتجنب حرف D ونكتفى بـ J

ثانياً - الظاء : الموسوعة الإسلامية

تكتبها Z ونحن نتجنب حرف Z ونكتبها : D

ثالثاً - القاف : الموسوعة تكتبها K ونحن

نكتبها : Q

والى جانب هذا يهتم المؤتمر العالمى بالطريقة المثلى التى تمكن من أداء الحرف اللاتينى بالحرف العربى ، أعنى الطريقة التى يقع عليها الاتفاق من سائر الدول العربية - وهنا نلاحظ أيضاً ومع الأسف - أن البلاد العربية منقسمة على نفسها حول هذا الموضوع ، وهكذا نجد إخواننا فى مصر ينطقون حرف الكاف المعقودة جيما ، مثلاً : (دوكول) يكتب فى المطبوعات المصرية (دوجول) ، و(كيب) يصبح (جيب) و(بيكوفيتش) يُسمى (بيجوفيتش) ، بينما إخواننا فى سوريا يؤدون حرف (ك) بالغين ، فيقولون (دوغول) ، و(غيب) أو (بيغوفيتش) ، بينما يكتبه المغاربة على أشكال أخرى .

وفى إطار التوصية التى صدرت عن الدورة السابعة عشرة للخبراء العالميين المنعقدة فى نيويورك (على ما أسلفنا) تم تأليف لجنة خاصة لإعداد الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على إنشاء المؤتمر العالمى المذكور . وقد كان فى صدر ما فكرت فيه هذه اللجنة من تظاهرات ثقافية تخصيص يوم فى السنة لتحسيس الجمهور بأهمية العلم الجغرافى ... وكان مما تقرر

من توصيات كذلك تكريم الرحالة المغربي الكبير أبى عبد الله محمد بن بطوطة الطنجي باعتباره أحد الرواد الواقعيين (الطوبونيمسـط) الذين أسهموا بصفة فعالة فى الحفاظ على العَلم الجغرافى صيانةً وإنقاذاً من التحريف والتزييف .

فعلاً كان ابن بطوطة من الأوائل - إن لم يكن هو الأول - الذين حرصوا على أن يَشْكُلُوا العلم الجغرافى بالتحريكات والتسكينات الموصوفة ، أى إنه عندما يورد العَلم سواء كان فى المشرق أو المغرب يُحرّكه ، وجدناه مثلاً عندما يذكر مدينة (بَيَّوم قُطْلُوا) يشكّلها قائلاً :إنها بباء موحدة مفتوحة وباء ساكنة وواو مفتوحة وميم ، وقاف مضمومة وطاء مسكنة ولام مضمومة وواو .

وقد أكبر زملاؤنا فى هذا المؤتمر العالمى من بلاد الصين الذين حرص ابن بطوطة على ذلك النوع من الضبط مؤكدين أنه يدل على أن ابن بطوطة زار الصين فعلاً خلافاً لما أشاعه بعض المستشرقين الذين أنكروا أن يكون ابن بطوطة وضع قدمه فى الصين ! لمجرد أنه استعصى عليه تحديد موقع عَلم من الأعلام .

أريد القول : إن الخبراء الجغرافيين تنبهوا للمعروف والجميل الذى قدمه الرحالة المغربى

للعَلم الجغرافى الذى لولا صنيعة ذاك فى العصور الوسطى لضاعت علينا طريقة النطق الصحيح بعدد كبير من الأعلام الجغرافية .

وقد كان مما يهتم به المؤتمر العالمى للأسماء الجغرافية الطريقة المثلى لتلقى العلم الجغرافى من سكان المناطق التى نلتقط فيها هذا العَلم .. فعلاوة على المصادر التاريخية التى نستقى منها العَلم الجغرافى سواء أكانت هذه المصادر نثراً أم شعراً ، وعلاوة على التأليف الجغرافية المخصصة للمواقع الجغرافية ، علاوة على كل ذلك فإن المصادر الشفوية لها أثرها على مصداقية الحديث عن الأعلام الجغرافية تماماً على نحو ما كان أسلافنا من أمثال ياقوت الحموى والشريف الإدريسى يتلقون هذه الأسماء من سكان النواحي ...

وقد حرص المؤتمر العالمى لتنميط الأعلام الجغرافية على الحصول على أكبر ما يمكن من مصطلحات جغرافية تتفق عليها المـجامع والأكاديميات فى كل جهات العالم ، وعندما كنا نتحدث للخبراء هناك عن جهد مجمعنا هنا فى القاهرة وعما يقوم به من أعمال كنّا نتلقى مختلف الإشارات وموفور التهانى .

ولابد أن أذكر هنا أن أعمال المؤتمر لا تقتصر على الأعلام الجغرافية على وجه البسيطة ولكنها تتجاوزها إلى ابتكار أعلام تحتاجها التطورات التي ظهرت على الساحة العلمية، تحتاجها في بطون البحار عندما أصبحنا نرى ونسمع عن رواد البحار الذين يقدمون لنا عبر التلفاز ، تقاريرهم عما يوجد تحت الماء

المؤتمر العالمي يطلب إلى أعضائه أن يساعذوه على تقديم أسماء وابتكار أعلام لتلك العوالم التي نكتشفها يوماً عن يوم .

وعلى نحو ما نقوله عن جوف البحار نقوله كذلك عن الفضاء الذي أصبح مغزواً من لدن العلماء حيث أصبحنا نشاهد نزول الإنسان على سطح القمر .

وهكذا فإن المؤتمر العالمي للأعلام الجغرافية تجاوز أيضاً عالم الأرضين ليطلب إلى المجموعة العربية أن ترشح له أسماء لعلماء أعلام ، يطلقها على مناطق القمر حتى تصبح مصطلحات يستعملها رواد الفضاء .

تلك طموحات المؤتمر الدولي الذي اشترك في أعمال خبرائه ، السنة الماضية - كما قلنا - 160 ممثلاً وملاحظاً عن ست وستين دولة من دول العالم وست مؤسسات متخصصة ومنظمات غير حكومية وثلاث منظمات علمية دولية ..

والإجماع من كل هؤلاء على ضرورة أن تنشئ كل دولة لجنة أو هيئة تتألف من المؤرخين والجغرافيين والاجتماعيين تنكب على جمع وضبط الأعلام الجغرافية الموجودة بها على أساس خريطة مدققة تعتمد على مقياس لا يقل عن 1/50000.

ومن المهم أن أذكر أن بعض الدول الغربية (بالغين) ماضية في طريقها لجرد سائر أعلامها الجغرافية (ككندا) مثلاً تسير في مسح كل أراضيها - على سعتها - لإعداد سجلات تضبط الأعلام بمساحتها ومعناها .. وعندما ينتهي العلماء الجغرافيون إلى الحقيقة النهائية حول علم من الأعلام تتخذ الحكومة - على أعلى مستوى - قراراً باعتماد وتزكية ما وصل إليه علماءها في الجغرافية ، ومن ثمت فإنه لا يجوز لأية سلطة ولا جهة أن تتصرف في ذلك العلم تبديلاً أو تحريفاً ، وهم يعتبرون أن أي تغيير يلحق بذلك العلم يعتبر عدواناً على التراث يُتابع صاحبه ١٠٠٠

وفي مقابلة هذا نجد أننا ، في عالمنا العربي الزاخر بكل المعطيات ، مقصرون أولاً في إعداد السجلات وفي تدقيق النشرات الجغرافية التي تتعلق بكل دولة ؛ فإننا قد نقرأ أو نسمع عن اسم جغرافي يُنطق به محرفاً

فى وسائل إعلامنا : « إذاعة ، تلفزة ، صحافة » ، ولا نقوم بواجبنا فى تصحيح الخطأ والعودة إلى الصواب ولا نقوم بواجبنا فى تحسيس الجمهور بأهمية العلم الجغرافى : مَنْ أملاه علينا ؟ وما معناه ؟ وكيف تطور النطق به ؟ وهل هو من أصل عربى أو من أصل آخر ؟ وكيف يضبط ويشكل ؟

لا يوجد فى الجهات الأخرى مؤلف على نحو رحلة الرحالة ابن بطوطة التى اهتمت بضبط الأعلام الجغرافية حرفاً حرفاً ، تلك الرحلة التى يُنعت صاحبها اليوم من لدن علماء الغرب على أنه أعظم رحالة فى تاريخ البشرية جمعاء .

ولقط طلعت علينا المجلة الأمريكية الشهيرة (NATIONAL GEOGRAPHIC) فى عددها : دجنبر 1991 ببحثٍ مخصصٍ للرحالة ابن بطوطة رصدت أموالاً طائلة لفريق علمى يقوده السيد طوماس أبير كرومبى (Thomas j ABERCROMBIE) الذى قام مع فريقه بتتبع خطوات ابن بطوطة ابتداء من مدينة طنجة إلى طايوان .. مرحلة مرحلة .. وصدر عنه تقرير كان من أمتع التقارير التى طالعنا بها المجلة المذكورة فى خمسين صفحة .

وقد كان نصيبنا ، نحن العرب ، من هذه الدراسة أننا قمنا فى إحدى مجلاتنا بترجمة بعض فصولها ترجمة مبتسرة غفلت عن الكثير من الأهداف التى توخاها التقرير القيم .

ومن هنا نرى أنه أصبح لزاماً علينا أن نجد ناشئتنا وسائر أطرنا فى التعليم الجامعى خاصة ، لكى يخصصوا ندوات لهم حول هذه الأعلام الجغرافية فى مناطقهم وأقاليمهم ، كما يجب أن نجد وسائل أعلامنا على تقديم تعليقات عن الأماكن الجغرافية التى نقلت عن أسلافنا فى العالم العربى والإسلامى .. أيها الزملاء الأعزاء :

إنى لم أقل كل شىء عن المؤتمر العالمى للأعلام الجغرافية . لقد كان على أن أتحدث عن لائحته الداخلية .. وكان على أن استعرض أمامكم أعمال لجانه الثلاثة .

- اللجنة التى تهتم بالمناهج المتبعة داخل كل دولة لإنجاح الغرض .

- اللجنة التقنية التى تهتم بوسائل ضبط الأعلام .

- اللجنة المهتمة بالمناهج الدولية .

ويحرص المؤتمر العام للأمم المتحدة على أن يظل يقطاً ومتنبهاً لكل التوصيات التى

تقتضيها الظروف أو يُمليها الواقع ، وهكذا وجدناه يوصى بإنشاء قسم يختص بالأعلام الجغرافية الواقعة فى جنوب إفريقيا كما ينشئ قسمًا لأوروبا الشرقية وشمال آسيا ...

كما نجده يعيد النظر فى تركيبة قسم أمريكا اللاتينية . وبين يدي المؤتمر الآن قضية إسرائيل التى كانت ضمن مجموعة إيران التى ترفض اليوم أن تكون مع إسرائيل نظراً لكون اللغة لا تجمع بينهما ، واقتُرحت إحدى الدول أن تنضم إسرائيل إلى المجموعة العربية التى تملصت بدورها من أن تكون إسرائيل ضمن مجموعتها ، الأمر الذى دعا الأمم المتحدة إلى إنشاء قسم خاص بالدولة العبرية ... !

والمؤتمر يظل مفتوح الأبواب لكل تغيير يقع فى بلاد ما لعلم جغرافى .. ولو كان اسم دولة أو اسم عاصمة حتى يأخذ المؤتمر ذلك بعين الاعتبار . والمقرر أن يتم عقد المؤتمر السابع فى طهران بعد سنتين من هذا التاريخ .

والذى أريد أن أختم به حديثي المقتضب هذا أن تنصب توصياتنا فى هذه الدورة الواحدة والستين من دورات مجمع اللغة العربية على الاهتمام بالعلم الجغرافى فى الدول العربية ستكون هذه التوصية إسهامًا جاداً فى تحديد هوية كل دولة

عربية بما تشتمل عليه من قبائل وعشائر وما تحتوى عليه هذه القبائل والعشائر من مواقع جغرافية لها دون شك تاريخ يُروى ومن شأنه أن يساعد على معرفة الذاتية العربية .

وأرجو أن يكون من بين التوصيات إنشاء خلايا فى الشعب الجغرافية بمختلف الجامعات العلمية بكل البلاد العربية ، خلايا تشغل على إعداد لوائح للأعلام الجغرافية الموجودة فى بلادها ، فليس من المعقول أبداً أن نجد اسمًا لموقع جغرافى فى الجزيرة العربية مثلاً مرّ به بالأمس رحالة من رحالاتنا وضبطه بالاسم والنعته ثم إننا نعجز اليوم عن أن نجد له أثراً . ولا بد أن ندعو إلى تشجيع كل الدراسات التى تهتم بالفكر الجغرافى لدى العرب ، ونعنى بصفة خاصة بالعلم الجغرافى . وإنى لأذهب أكثر من هذا إلى ضرورة ربط مجمعنا صلتَه بسائر المجامع والأكاديميات فى العالم لتوحيد الجهود مع كل تلك المؤسسات من أجل إبراز أهمية التعريف بالعلم الجغرافى وأهميته فى الحديث عن الهوية العربية .

عبد الهادى التازى

عضو المجمع من المغرب

بعض الاعلام الجغرافية المشهورة *

للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

من هذه الاعلام الحبشة :

(١) فى كتاب المسعودى مروج الذهب أن بلاد الحبشة حارة يابسة وأن مبدأها من أرض الجنادل جنوب أسوان .

وهذا النصف يصدق على بلدنا السودان .

وفى كتاب هيرودتس (The Hiorories) المترجم عنه إلى الإنجليزية أن مبدأ إثيوبيا من عند جزيرة الفيل بأسوان وأن عاصمة إثيوبيا مروي .

ومروي المعروفة بهذا الاسم عند الشلال الرابع من نهر النيل فى الشاطئ الأيسر منه . بإزاء كريمة التى هى إحدى نهايات الخطوط الحديدية السودانية وبالقرب منها جبل البركل وفى ناحية آثار قديمة ، ولكن هيرودتس لم يعن مروي هذه ، وإنما عنى المكان الذى يعرف باسم البجراوية بالقرب من بلدة كبوشية شمالى مدينة شندى على الشاطئ الأيمن من النيل ، وفى البجراوية آثار قديمة ، من معابد ومصانع وبالقرب منها عدد كبير من الأهرام أقرب إلى حجم هرم الجزيرة الأصفر وهى من حجر

الرمل وبنائها محكم وهى حادة الانخراط يقال إنها أكبر مجموعة من الأهرام فى العالم ذكر ذلك صاحب « الممر النوبى » The nubian Corrido نقلا فيما أحسب عن سير دوجلاس نيوبلد فى رسائله وهذا قد كان السكرتير الإدارى فى السودان فى السنوات ما بين أواخر الثلاثين إلى أواسط الأربعين .

وكان أحد أساتذة الآثار الوافدين علينا ممتحنين خارجيين بجامعة الخرطوم يذكر أن اسم البجراوية أقرب أن يكون هو الاسم الصحيح من اسم مروي ، وهذا ترجيح استحسانى لا تقوم به حجة ، ولعل اسم مروي المعاصرة هو أيضا اسم قديم استعير من اسم البلد التى هى أقدم منه والله أعلم .

ويزعم عزانا الحبشى ملك أكسيوم أنه غزا البجراوية أى مروي القديمة وأحرق ما كان بها من مزارع القطن .

ولا يخفى أن هذا غير القطن الذى أدخل زراعته الحكماء ممتاز باشا فى أرض توكر فى القرن الماضى .

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٥ من ذى القعدة ١٤١٥ هـ الموافق ٥ من

أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م .

وفى الموسوعة البريطانية أن القطن قد يكون أول من زرعه السبثيون ، فإن كان ملك أكسيوم من السبثيين فقد ترى أنه قد وجد منه مزارع فى أرض النيل بناحية البجراوية فأهلها أولى بأن ينسب إليهم أول التوسع فى زراعة القطن .

٢ - هذا ، وفى كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني فى طيبة القطرية - أن الحبشة الوسطى مبدؤها من عيذاب جنوب مصر ونهايتها باضع وهى شمال مصوغ ولا يخفى أن هذا هو ساحل السودان ، وقد أعاد طبعه الشيخ حمد الجاسر عالم الجزيرة وعضو المجمع جزاه الله خيراً .

٣ - وفى سيرة ابن هشام فى خبر رؤيا ربيعة ابن نصر أن أحد الكاهنين قال ، أقسم برب الحرّتين من حنش ليملكن أرضكم الحبش، والآخر قال أقسم بما بين الحرّتين من إنسان ليملكن أرضكم السودان .

فالحبش والسودان كأنهما مترادفان .

والحبشة وإثيوبيا كأنهما مترادفتان .

ويقال إن معنى إثيوبيا بلاد السودان .

ويذكر بعض علماء الآثار أنه يجوز أن يكون من معانى إثيوبيا (بلاد الطيب) .

ويوجد اسم ثيبا أو طيبا فى بلاد السودان وفى مصر وفى بلاد اليونان، فكأنه يدل على البلاد التى يجلب منها أو إليها الطيب .

وفى السودان أخشاب طيب كثيرة - منها الشاف وهو ضرب من الطلاح والكليت والهبيل وأصناف أخرى ، وعادة الدخان معروفة فى السودان وهو نوع من الحمام الساخن يكون أحيانا علاجاً من الرطوبة وأكثر ما تستعمله النساء لتجميل البشرة . وفى أشعار العرب ذكر نيران توقدها النساء ، قال الشماخ :

رأيت وقد أتت بخران دونى

وحالت دون أرحلنا الدير

لليلة بالبويرة ضوء نار

تلوح كأنها الشعرى العبور

وفى المعلقات أنها توقد بالعود ،

قال الإشكري .

أوقدتها بشخصين بعود كما يلوح الضياء

وقال العبادى :

ياسليمى أوقدى النارا

إن من تهوين قد حارا

رب نارٍ بت أرمقها

تعضم الهندى والفارا

وبها ظبى يؤهجها

عاقداً بالخصر زنارا

وقال كثير :

وماروضة بالحزن باكرها الندى

يمج الندى جثائها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا

إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها
وقد تكون تلك النار توقد بأخشاب دون
الصندل والمندل فى الطيب فيجعلها الشعراء
صندلا ومندلا على سبيل التزيد والمبالغة
كمزعمهم أنهم أبدا على ظهر ناقة أو بعير وقد
لا يكون مركب الشاعر إلا قدميه أو حمارا ،
وقلما يذكر الحمار فى الشعر مُفْتَخَرًا به مع أنه
قد كان من أكثر مراكب العرب . قال تعالى :
« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » .

وقال تعالى : « وانظر إلى حمارك » . وقال
تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »
٤ - ومما يدل على أن الدخان كان معروفا
من عادات الطيب عند العرب قول الآخر وهو
فى ديوان الحماسة :

آليت لا أدفن قتلاكم

فدفنوا المرء وسرباله
٥ - وفى سيرة ابن هشام وهو أيضا فى
الحديث الشريف مروي عن أم المؤمنين أم سلمة
رضى الله عنها أن النجاشى حاربه نجاشى آخر
وكان بينهما عرض النيل وأن سيدنا الزبير بن
العوام نفخت له قربة فعام ثم عاد وأخبر سيدنا
جعفرا وأصحابه أن نجاشيهم قد انتصر على
خصمه . وهذا الخبر يدل على أن الحبشة التى

أمها الصحابة فيها نيل يعام ، وحبشة أكسيوم
أنهارها سريعة الجريان رهيبة لا يقدم أحد على
السباحة فيها وهى تمر بأبى جارف ، ومنطقة
أديس أبابا لم تدخل فى ملك الدولة الإثيوبية
الحديثة إلا فى أيام منليك أو قبله بقليل .

٦ - لا يزال المزورون بالمدينة يعرفون أهل
السودان باسم الحبش وعلى ذلك
الكتاب الموسوم باسم الطراز المنقوش فى
محاسن الحبوش . وبحسبنا هذا القدر عن العلم
الجغرافى (الحبشة) .

أدوليس :

فرضة على البحر فى ناحية ما بين مصوع
وحلايب فى الزمان القديم ونجدها فى الخرائط
القديمة أحيانا أقرب إلى موضع مصوع وأحيانا
أقرب إلى موضع سواكن ، وهى من فرضات
الفراعنة القدماء .

قال الشاعر وهو طرفة بن العبد :

عدولية أو من سفين ابن يامن

يجور بها الملاح طورا ويهتدى
وعند الشراح أن العدولية هى السفينة
العظيمة . وبذلك فسروا هذا الحرف فى شعر
أبى دؤاد .

وعندى أن عدولية هنا منسوبة إلى عدولة
وهى أدوليس بالنطق العجمى من طريق البطالسة

أو نحوهم من الروم أو الإفرنج .

وهذا الحدس مما يرجحه قول « ابن يامن »
فدل على أنها سفن تمخر في البحر متاجرة
ببضائع ابن يامن هذا وملاحيه ، وابن بلارب
« بنيامين » فهو تاجر يهودى . وهذا الاسم
عينه ذكره امرؤ القيس حيث قال يذكر تقرأ
وساتين بناحية المشقر :

حمته بنو الربداء من آل يامن

بأسياها حتى أقر وأوقرا

فذكر آل يامن كما ترى . وقوله بنو الربداء
يوقف عنده - قال الآخر :

أسد على وفي الحروب نعامه

ربداء تنفر من صفير الصافر

ولون الربداء يضرب إلى السواد .

قالوا وكان بنو عامر يغلب عليهم لون
السواد ومنهم أريد الذى أصابته الصاعقة وهو
أخو لبيد الشاعر لأمه ، فهل كان هذا لقباله ؟
وإن كان بنو يامن الذين ذكرهم طرفة وامرؤ
القيس يهودا سودا فهل هم من الفلاشة أى
اليهود السود ؟

ويقال إن هؤلاء من نسل سيدنا موسى لأن
سيدنا موسى كانت له زوجة إثيوبية كما فى
سُفر السدد من التوراة ، فهل أخطأ الشاعران
فنسبا بنى موسى عليه السلام إلى بنيامين
عليه السلام ؟ الله أعلم .

علوة :

ذكرت الدكتوراة الأدبية العالمية فى تحقيقها
لرسالة الغفران عند قول المعرى فى سِينِيَّتِهِ التى
أوردها على لسان الجن :

تحملنا فى الجنح خيل لها

أجنحة ليست كخيل الأنيس

تقطع من علوة فى ليلها

إلى قرى شاس بسير هميس

أنها لم تجد علوة فى المراجع .

وهذا عجب ، فعلوة اسم معروف فى تأريخ
الحبشة القديم أنها اسم للإقليم الذى عاصمته
« سوبا » أو « سبا » كما ينطقها بعضهم ،
وقد انقسمت دولة البجراوية القديمة إلى
طائفتين إحداهما عاصمتها دنقلة العجوز
شمالى الشلال الرابع وتسمى « المقررة »
ويختلفون فى نطقها فيقال المقرّة والمقرّة وعندى
أن الوجه الثانى أرجح لأن كلمة المقر مستعملة
إلى الآن ويَعْنى بها مكان تجمع الماء وهو حق
الزراعة ، وأحسب أن جزيرة مقرات اشتقاق
معناها من هذا . لأن الماء حولها كالحوض ،
وأصل الكلمة عربى أو مشترك بين البجراوى
القديم والكوشى والعربى ، وقال امرؤ القيس .

فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها

لما نسجته من جنوب وشمال .

وقال أبو تمام :

ولو كان يغنى الشعر أفناه سافرت

حيا ضك منه فى العصور الذواهب

هذا والطائفة الأخرى عاصمتها سوبا وهى

مملكة علوة ولعلها سميت بهذا لوقوعها فى

أعالٍ من حوض النيل وأحسب المعرى يشير إلى

شئ من هذا فى قوله :

وما قام فى عليا زغاوة منذر

فكيف لجسم ينتجين إلى بقع

وهو بهذا ينكر أن يكون قد قام فى الحبشة

نبي^١ ، ردًا بذلك على من قال بنبوة لقمان

الحكيم وقد قيل إنه حبشى وزعم بعض

المفكرين أنه كان عبداً لداود عليه السلام

واحتج ابن كثير بأن العبودية تمنع أن يكون نبيا

وغفل عن أن يوسف عليه السلام وهو نبي «

شروه بثمان بخرى دراهم معدودة » والله أعلم .

سوبا - سبا -

موضع بالسودان بالقرب من الخرطوم - هل

له صلة بسبأ الأقدمين ، إن يك ذلك فلعل هذه

الكتابة التى أعيت قراءتها علماء الآثار على

برابى أهل البجراوية .

وملوكتهم القدماء من أصل سابق للسبئية

ومنه اشتق الخط المسمارى .

وفى الكتاب المقدس « شيبا » وفى ناحية

البركل موضع يقال له « شيبا » ومن أسماء

الكتاب المقدس « بت شيبا » وهى التى

يزعمون أنه رآها نبي الله داود « وخر راکعاً

وأنا ب » كما فى سورة « ص » لا كما يزعمون

من أنه تابع فيها هواه فهو نبي معصوم وهذا

عندنا من التحريف الفاسد كما لا يخفى . وهل

وقع خلط عند رواة الكتاب المقدس بين « بت

شيبا » هذه وبين بلقيس فهى بنت سبأ ؟ وهل

وقع خلط عندهم بين سليمان وداود فجعلوا

بزعمهم أن سليمان عليه السلام ابن « بت

شيبا » وما كانت إلا زوجته إن استفيد هذا

المعنى من قولها : « وأسلمت مع سليمان »

ومن الذى يذكره المفسرون من أمر شعر ساقها

واستعمالها النورة لإزالته - الله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

وصحبه وسلم تسليما .

الدكتور عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان

طائفة من « الأعلام الجغرافية » فى العراق

للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائى

أقول : هذا هو ضبط هذه الحاضرة فى
التاريخ القديم ، ولكنها الآن « أرييل » وزان
« أفعيل » وليس فى العربية شىء من هذا .

وهى من « المحافظات الكردية » فى شمالى
العراق ، وفيها جامعة للآداب والعلوم . وهى
فى الألسن الدارجة قبل عدة عقود من السنين
« أرويل » بالواو دون الباء ، وهذا شىء من
الإبدال يعرض للألسن الدارجة .

جاء فى « معجم البلدان » :

إرييل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء
من الأرض واسع بسيط ، ولقلعتها خندق .

أقول : وهى فى حاضرتنا مدينة فسيحة فى
فضاء من الأرض قد تخلصت عن القلعة التى لم
يبق منها إلا معالم دارسة .

لقد اخترت من الأعلام الجغرافية فى
العراق طائفة منها ذات الفائدة اللغوية
والتاريخية ، وقد استبعدت منها الأعلام التى
كثرت درستها فعُرفت فى الموسوعات التاريخية
ودوائر المعارف مثل « بغداد » . ولم أذكر من
هذه « الأعلام » التاريخية إلا ما بقى معروفاً
فى عصرنا فى تنظيمات العراق الإدارية .

وأبدأ هذه « الطائفة » بمدينة كردية عُرفت
فى التاريخ الإسلامى ووردت فى الأخبار هى :

١ - إرييل :

قال أهل البلدان ومنهم ياقوت فى « معجم
البلدان » :

إرييل : وزان « إثميد » ، ولايجوز فتح
الهمزة .

ألقى هذا البحث فى الجلسة الثانية عشرة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٩ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٩ من
أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م

وقد نُسب إليها جماعة من أهل العلم
والحديث منهم أبو أحمد القاسم بن المظفر الشهر
زورى الشيبانى الإربلى .

وقد صَنَّف فى « تاريخ إربل » ابن
المستوفى كتابه الشهير . وقد طبع هذا فى
العراق وكان من مطبوعات وزارة الثقافة
والإعلام منذ ما يقرب من ربع قرن ، حققه
وقدَّم له الأستاذ الدكتور سامى الصقَّار .

ومن المفيد أن أشير إلى ما قاله فى
« إربل » أنوشروان البغدادى المعروف بـ « شيطان
العراق الضريع » .

تَبَّأَ لَشَيْطَانِي وَمَاسْتَوْلَا

لَأَنَّهُ أَنْزَلَنِي « إربلا »

نَزَلْتُهَا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ فَمَا

شَكَّكْتُ أَنِّي نَازِلٌ « كـربلا »

أقول : و« كربلا » فى البيت الثانى هى
« كربك » المدينة التى شهدت معركة الطفِّ ،
وقُتِلَ فيها أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى
طالب - رضى الله عنه - وسيأتى الكلام
عنها .

٢ - الإسكندرية :

بليدة صغيرة من « محافظة بابل » .

قال ياقوت : قرية على دجلة بإزاء الجامعة
بينها وبين واسط خمسة عشر فرسخاً .

أقول : هى فى عصرنا على غير ما ذكره
ياقوت من كونها على دجلة ؛ لأنها كما أشرنا
من « محافظة بابل » فهى على الفرات .

أقول : لعل الذى ذكره ياقوت هو قرية
على دجلة ذهبت معالمها ، فجذَّت فى عصرنا
قرية أخرى على الفرات ، أو قد نحمل ذلك
على سهو من ياقوت على ما عُرف من ضبطه
والتزامه .

وليس لنا من علم فى سبب التسمية
ونسبتها إلى الإسكندر المكدونى .

والذى يقوى كون القرية على الفرات فى
« بابل » علمنا أن الإسكندر قد وصل إلى بابل ،
والتاريخ معروف .

٣ - ألوس :

قرية على الفرات قرب عانات والحديثة
كما قال ياقوت فى « معجم البلدان » .

وقد تقال بمدّ الهمزة « ألوس » ، وهى بهذا
النطق فى عصرنا .

قال ياقوت : وإليها يُنسب المؤيد الألوسى
الشاعر المتوفى سنة ٧٥٥٧ .

ذكره العماد فى «الحريدة» قسم العراق .
أقول : وقد نُسب إليها جمهرة من أهل
العلم فى عصرنا كان منهم أبو الثناء الألوسى
صاحب التفسير المشهور ، والسيد محمود
شكرى الألوسى صاحب «بلوغ الأرب» ،
والسيد نعمان خير الدين ، ترجم لهؤلاء الثلاثة
وغيرهم الأستاذ خير الدين الزركلى فى
«الأعلام» .

٤ - الأنبار :

قال ياقوت : قال أبو القاسم :

«الأنبار» : حدّ بابل ، سُمِّيَتْ بذلك لأنه
كان يُجمع بها أنابيب الحنطة والشعير والقَت
والتبن . وكان يقال لها الأهراء .

قال الأزهري : واحد الأنبار «نبر» ، وجمع
الجمع «أنابيب» .

فتحها خالد بن الوليد سنة ١٢ للهجرة
أيام الخليفة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - .

أقول : و«الأنبار» فى عصرنا محافظة
على الفرات الأوسط تتبعها نواح عدة
وتنظيمات إدارية .

وقد نُسب إلى «الأنبار» طائفة كبيرة
فيهم اللقويون والنحويون والمحدثون والشعراء
وغيرهم . والنسبة إلى الجمع «أنبارى» .

ويرى الفرس أن «الأنبار» كلمة استعارها
العرب وتوهّموا فى صيغتها الجمع .
جاء فى «المعجمات» الفارسية أن :

«أنبار» بمعنى «امتلاء» أو «ما يبرزه
الإنسان» أو ما يكون من ذلك من الحيوان
الذى يُتخذ سماداً أو مخزن الغلال والتبن
والعلف» .

أقول : ويكاد يتفق ما جاء فى المعجمات
العربية وما جاء فى المعجمات الفارسية ، وليس
القطع فى الأمر ممكناً .

وفى الألسن الدارجة تحوّل «أنبار» إلى
«عَنبر» و«عُمبار» بمعنى «المخزن» للبضائع
والغلال .

٥ - بابل :

جاء فى «معجم البلدان» .

بابل اسمُ ناحيةٍ فيها الكوفة والحلة يُنسب
إليها السُّحر ، قال تعالى : «وما أنزل على
الملكين ببابل هاروت وماروت» ١٠٢ سورة
البقرة .

قيل : بابل العراق ، وقيل : بابل
دُنبا وند .

وقيل : لما حَشَرَ الله الخلائق إلى بابل بعث
إليهم ريحاً فحشرتهم واجتمعوا ببابل . فقام
يعرُب بن قحطان ، أول من تكلم بالعربية ، ولم
يزل المنادى ينادى : من فَعَلَ كذا وكذا فله كذا
وكذا ، حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً ،
وانقطع الصوت ، وتبَلَّلت الألسن فسُمِّيت
« بابل » .

أقول : انتهى ما أثبتته ياقوت في
« معجمه » ولكننا في هذا العصر ندرك ما
وصل إليه أهل التنقيب في الحضارات القديمة .
وقد بدأ هؤلاء درسهم الجاد منذ أوائل القرن
التاسع عشر ، فعرفوا اللغة البابلية الآشورية ،
وقرأوا النقوش في الألواح ، وعلى النصب
والتماثيل ، وعرفوا شريعة حمورابي التي
سبقت التاريخ المسيحي بعشرات من القرون ،
واكتشفوا مكتبة آشور بانيبال . وكان من جملة
ذلك فوائد تاريخية وحضارية تتجاوز هذا الذي
كان للعرب مما أورده ياقوت .

ومن هذا عوفنا أن « بابل » لاصلة لها
بما يعنيه المصدر « بَلْبَلَة » الذي يفيد التفرُّق

إن « بابل » تعنى « باب إيل » أى باب
الإله (١) .

ولكن العرب حَرَّفُوا الاسم إلى بناء
« فاعل » فكان من ذلك المعنى الذى وصلوا إليه
من « البلبلة » .

أقول : وقد سَمَّى العرب فى حاضرهم
وماضيهم (بابل) فى أعلام الذكور ، ولكن
للتصارى من العرب اتصال بالسريانية التى
عُرِف فيها « بابل » فرجعوا إلى الأصل وهو
« باب إيل » فكان من أعلامهم « بابيل » ،
وهذه الصيغة « فاعيل » هى بناء اسم الفاعل
فى هذه اللغة .

وبهذه اللغة ورد فى الأثر « قسابيل
وهايل » ابني آدم - عليه السلام .

ومن هنا كان من أسماء التصارى
« ناصيف » ، وهو لدى المسلمين « ناصف » ،
وغير هذا .

و « بابل » القديمة فى عصرنا موقع أثرى
يشتمل على بقايا الحفائر التى قام بها العلماء
المنقبون فى القرن الماضى ثم ما كان منها فى
هذا القرن . وقد شارك فى تلك الأعمال علماء
من الألمان والفرنسيين والإنكليز ثم خلفهم
العراقيون .

(١) أقول : من هذا أيضاً إسرائيل ، وعزرائيل وميكائيل . و « جبرائيل » و « وجبر » وجبراً فى العربية
والسريانية تعنى « الرجل » . وكذلك فى العبرانية (جبر) .

و « بابل » الحديث اسم محافظة كبيرة
مركزها الرئيسى مدينة الحلة التى سنعرض لها.
إن إطلاق اسم بابل على المحافظة بجملتها كان
منذ سنين قليلة .

٦- باجسرا:

قال ياقوت : باجسرا بليدة فى شرقى
بغداد بينها وبين حلوان على عشرة فراسخ من
بغداد .

خرج منها جماعة من أهل العلم والرواية
منهم أبو القاسم عبد الغنى بن محمد بن خليفة
الباجسراوى ، وكان صالحاً ، له شعر حسن
ورغبة فى الأدب ، توفى سنة ٥٣١ هـ .

أقول : والذى نعرفه عن هذه البليدة أنها
الآن « أبو جسر » . ولا بد لنا أن نقول أن
الاسم الحالى « أبوجسر » هو الاسم القديم
« باجسرا » ، والعامة فى كل عصر تذهب فى
الأسماء إلى شىء آخر .

إن « باجسرا » موضع قديم يحمل الأصل
السريانى ، فإن « با » تعنى « بيت » ، وهذا
اللفظ الذى اجتزئ به عن « بيت » معروف فى
أسماء المواضع والبلدان فى البلاد التى عرفت
التراث الآرامى فى بلاد ما بين النهرين وبلاد
الشام مثل : باخمرا ، وباصيدا ، وباعشيقا ،
وغيرها .

ولما عُرِّبَت هذه المواضع ذهبت كلمة « با »
التي هى « بيت » ^(١) وتحوّلت إلى حرف الباء
فى صدر هذه الأسماء نحو : بعشيقه
وبحمدون ، وحذفت فى أسماء أخرى فقالوا
صيدا وسورا وغيرهما .

وأما الألف فى آخر هذه الأسماء فهى
الألف المعروفة فى نهايات الأسماء الآرامية
التي تشير إلى أداة التعريف الآرامية ثم فقدت
وظيفتها هذه ، وبقيت علامة فى آخر الأسماء .
وقد ذهبت الألف واكتُفى بالفتحة مع هاءٍ
للتأنيث .

(١) من المفيد أن أشير إلى أن « با » تنصدر طائفة من الأعلام اليمنية ، وهو شىء ورثته اللغة اليمنية فيما
ورثته من خصائص لغوية قديمة . إن « با » هذه فى الأعلام : باحسين ، بأحمد ، بابكر وغيرها هى « أبو » ،
ولكنها فى لغة اليمن لزمت الألف دائماً وهذا نجده فى الشاهد القديم .

واهاً لسلمى ثم واهاً واها
فليت عينها لنا وفاها
إن أباهـا وأباهـا أباهـا
قد بَلَّغا فى المجد غايتاهـا

والرجز شاهد أيضاً فى التزام المثنى بالألف .

ولى أن أُلحق بهذا « الباء » فى الأعلام القديمة اليمنية نحو : بلحارث ، وبالهجيم ، ولَعَنبر وغيرها من أسماء
القبائل . وهذه الباء هى اجتزاء من « تنبو أو بنى » .

٧ - باحزاني :

بليدة صغيرة في أرض جبلية من نواحي الموصل في العراق . أهلها أكراد أشداء يعتنقون «اليزيدية» مذهباً ، وهم أهل مذهب باطنى يعبدون الشيطان ، وبينهم نصارى يدل عليهم هذا الاسم للمكان « باحزاني » . إنه نظير الأسماء القديمة العراقية التى تدل على التأثير الآرامى ، كما أشرنا فى « باجسرا » .

ولكن هذا الاسم قد خُتم بالياء على خلاف تلك الأسماء ، وهذا يعود إلى أن الآراميين السريان فى بلاد العراق نساطرة لهم خصوصية لغوية فيها مجئ الياء^(١) قد تقول : ولم جاءت الألف فى الأسماء الأخرى ؟ والجواب أن تلك الأسماء قد غلب عليها الطابع الآرامى . ولم يرد اسم « باحزاني » فى معجم ياقوت .

٨ - بادرايا :

جاء فى « معجم البلدان » :

أنها طسّوج بالنهر وان أو بليدة بقرب باكسايا بين البندنجين ونواحي واسط . منها يكون التمر القسب اليابس الغاية فى الجودة .

أقول : هى فى عصرنا « بدرة » وأغلب

أهلها من الأكراد الفيلية الشيعة فى الحدود الشرقية جنوبى بغداد بما يقرب من مئتى كيلو متر .

أقول : والاسم يشير إلى الأصل الآرامى وهى « با » التى تعنى « البيت » و « درايا » بمعنى « الديار » أو المنازل .

وما زال هذا الاسم « بيدرايا » يطلق على التمر القسب الذى يؤتى به منها .

٩ - باعشيقا :

جاء فى « معجم البلدان » أنها من قرى الموصل من نواحي نينوى فى شرقى دجلة لها نهر جارٍ . أقول : هى فى عصرنا « بعشيقه » ، وهى من القرى التى يسكنها يزيديون كما ذكرنا فى « باحزاني » ، وهم أكراد غلاظ شداد . وفيها نصارى نساطرة .

وبعنى الاسم « باعشيقا » بيت أصحاب العمل أى الزراع الفلاحين ، وأرضها خصبة يزرع فيها القمح والحبوب ، وفيها الشجر كالجوز وغيره .

(١) يدل على ميل النساطرة إلى الياء ما عُرِف فى أعلامهم « مَتَّى » بالياء ، وهو « مَتَّى » فى السريانية الغربية ومنه « مار متى » صاحب « إنجيل متى » ، وكذلك « أدّى » ومنه « أدّى شير » رئيس أساقفة سِعرْد ، وهو الكلدانى الآشورى .

١٠ - باعقوبا :

جاء فى « معجم البلدان » : قرية بأعلى
النهر وان ، وقال : وظننى أنها غير بعقوبا القرية
المشهورة على عشرة فراسخ من بغداد .

أقول : قد يكون ما ظنّه صحيحاً ، ولكن
الذى يهمنى أنها بليدة ذات صيغة سريانية
صُدِّرت به « با » وقد تكلمنا على ذلك . وهى
فى عصرنا مركز محافظة « ديالى » وكأنها
« بيت يعقوب » ونهر يعقوبا الأعظم
« النهران » وهو نهر كبير بقرب بغداد ، وهو
الحدّ بين طريق خراسان والخالص ، وهو نهر
تامراً بعينه .

١١ - باكسايا :

جاء فى « معجم البلدان » : أنها بلدة
قرب البندنجين وبادرايا بين بغداد وواسط فى
الجانب الشرقى فى أقصى النهران وإليها
ينسب أبو محمد عباس بن عبدالله بن أبى
عيسى الباكساى يُعرف به « الترقى » أحد
أئمة الحديث توفى سنة ٢٦٨ هـ .

أقول : إن « باكسايا » قرية صغيرة إلى
أقصى الجنوب من بغداد فى الجانب الشرقى
تقرب من مدينة العمارة فى محافظة ميسان ،
لا يحسب لها حساب فى التنظيمات الإدارية
فى عصرنا .

والاسم يشير إلى أن أهل باكسايا التى
أوردها ياقوت فى معجمه آراميون نصارى قبل
أن يتم فتحها على أيدى المسلمين فى « فتوح
العراق » .

١٢ - برائا :

جاء فى « معجم البلدان » :

برائا محلة فى طرف بغداد فى قبلة الكرخ
وجنوبى باب محوّل ، وكان لها جامع مفرد
تصلى فيه الشيعة ، وقد خُرب عن آخره ،
وكذلك المحلة . . .

وفى سنة ٣٢٩ قُرب من جامع برائا
وأقيمت فيه الخطبة ، وكان قبلُ ومسجداً
يجتمع فيه قوم من الشيعة يسبّون الصحابة ،
فكَبَسَه الراضى بالله وأخذ من وجّده فيه
وحبسهم وهدمه حتى ساوى به الأرض .

ويزعمون أن علياً مرّ بها لما خرج لقتال
الحرورية بالنهران ، وصلى فى موضع من
الجامع المذكور .

أقول : ولم يبق فى عصرنا إلا ما أثبتته
الخطّطيون ومنهم الدكتور مصطفى جواد من
موضع الجامع فأعيد بناؤه جامعاً ومسجداً
للشيعة تقام فيه احتفالات دينية خاصة .

والاسم يحمل الصورة الآرامية شأنه شأن
المواضع والحوضر العراقية التي خُتِمت بالألف
كما سنرى .

و « بَرَاثَا » تومئ إلى « البَرَث » في
العربية وهو الأرض السهلة اللينة .

١٣ - البصرة :

أقول : لم أرد أن أجعل « البصرة » في
عدّة أسماء الحواضر في هذا الموجز ، وذلك
لأنها مادة واسعة عني بها الأقدمون وأهل هذا
العصر من عرب وغيرهم من العلماء الغربيين .
غير أني أدرجتها لأقول :

إن أهل البلدان الأقدمين ومعهم اللغويون
قد توسّعوا على طرائقهم في ردّ الأسماء القديمة
إلى مادة في العربية فتعسّفوا وخانهم الدرس .

إنك تجدهم في « البصرة » كما تجدهم في
الكوفة ذهبوا إلى أن البصرة حجارة غليظة كما
قال الأنباري أبو بكر ، وكما قال قطرب اللغوي
المعروف . وقال غيرهما : حجارة رخوة فيها
بياض ، وقالوا : فيها الحصى . وقالوا : أرض
تسوخ فيها القدم

أقول : لعل « البصرة » التي مصّرها
المسلمون بعد الفتح هي اسم قديم هو « بَصْرَا »
العلم الذي وقفنا على نظائره في حواضر العراق
وبلاد الشام .

وقد حوّل العرب في نطقهم الفتح الطويل
في آخر الاسم إلى علامة للتأنيث هي هاء
التأنيث فكانت « بصرة » كما كانت « كوفة »
التي سيجيء الكلام عنها .

وقال ياقوت :

وفي اصطلاح أهل البصرة أن يزيدوا في
اسم الرجل الذي تُنسب إليه القرية ألفًا ونونًا
نحو « طَلْحَتَان » وهو نهر يُنسب إلى طلحة بن
أبي رافع مولى طلحة بن عبيد الله .
و« خِيرَتَان » نهر منسوب إلى خيرة بنت ضَمرة
القُشَيرية امرأة المهلب بن أبي صفرة .
و« مُهَلَّبَان » : نهر منسوب إلى المهلب بن أبي
صفرة ، وغير هذا .

أقول : وفي هذا شيء آخر ذكره البلاذري
في كلامه على البصرة في « البلدان » (١) .
ولنا أن نعود إلى عصرنا فنجد في حاضر

(١) انظر « البلدان » للبلاذري ص ٣٤٦ ، ٣٧٢ . وقال ياقوت : قال البلاذري : « عبّادان » قطيعة لحُمران
بن أبان مولى عثمان بن عفان . وقال : قال ابن الكلبي : أوّل من رابط بعبّادان عبّاد بن الحصين فنُسبت إليه .
ومن هذا : « أميتان » نسبة إلى أبي أمية ، « وجعفران » نسبة إلى أم جعفر ، ومثله « خالدان » وغيرها .
Grundriss der iranischen philologie 12, 176, Nöldeke LA 12,183 وانظر :

البصرة فى بليدة من أعمالها تُسمى أبا
الخصيب شيئاً من هذا منه : « يوسفان »
لقطيفة ، ونهر لابد أن يكون منسوباً إلى أحد
من الأوائىل يدعى « يوسف » ، كما نجد
« مهيجران » ولعلها « مهاجران » وتحوّلت إلى
ما تحوّلت إليه فى اللغة الدارجة ، ولابد
أن يكون صاحب هذه النسبة أحداً اسمه
« مهاجر » .

كما نجد موضعاً فى هذه البليدة يُدعى
« باب سليمان » ، ولعله « باب سلمانان »

والبصرة اليوم محافظة واسعة تتبعها
حواضر وقرى عدة ^(١) يجرى فيها نهر صغير
يُدعى « نهر العشار » ، ولعل العشارى من
الشعراء المتأخرين منسوب إلى النهر أو أنه
منسوب إلى آخر كان « عشاراً » أى يستوفى
العشور . و « أبو الخصيب » هى « بَلْخُصِيب »
فى نطق العامة .

١٤ - البَنْدَنِيَجِيْن :

قال ياقوت : لفظه لفظ التثنية ،
ولا أدرى أن « بَنْدَنِيَجْ » مفردة .

قال حمزة : هو بناحية موضع يُسمى
« وَندنيكان » وعُرب على « البَنْدَنِيَجِيْن » ،

ولم يفسّر معناه . بلدة مشهورة فى طرف
النهر وان من ناحية الجبل ، من أعمال بغداد
وقال ياقوت أيضاً :

وحدثنى العماد بن كامل البَنْدَنِيَجِيّ الفقيه
قال : البَنْدَنِيَجِيْن اسم يطلق على عدة محالٍ
متصلة ، وأكبر محلة فيها يقال لها
« باقطنايا » ، وبها سوق ودار للإمارة ومنزل
القاضى ، ثم بُويقيّا ، ثم سوق جميل ، ثم
فَلِشْتُ ، وقد خرج منها خلق من العلماء :
محدثون وشعراء وفقهاء وكتّاب .

أقول : وقال أهل الدرس فى عصرنا
الباحثون فى « الخطط » :

أن « البَنْدَنِيَجِيْن » هذه هى « خانقين »
التي أوردها ياقوت فى « معجمه » بكسر
النون بعدها قاف . وقال : هى بلدة من نواحي
السواد فى طريق هَمَذان من بغداد بينها وبين
« قَصْر شيرين » ستة فراسخ لمن يريد الجبال .

أقول أيضاً : « خانقين » فى عصرنا ،
بفتح النون ، كما أوردها ياقوت ، وكذلك
« قصر شيرين » ، والأولى عراقية ، والثانية
إيرانية . والعامة تقول : « خانجيين » ، وهى
« خانه كين » فى اللغة الفارسية بمعنى
« الأرض التي يُنزل فيها » .

(١) اتسعت رقعة التنظيمات فى البصرة فشملت جهات فى الخليج ، وشبه الجزيرة ، ومنها « دُبى » وغيرها .

فهل نرى من وجه لنصل بين «البَنْدَنِيَجَنِّ»
و «خَانِقِينَ» ؟ ما أرى شيئاً فى هذا .

١٥ - تَكَرِيت :

قال ياقوت : هى بفتح التاء والعامّة
يكسرونها ، بلدة بين بغداد والموصل ، وهى
إلى بغداد أقرب ، بينها وبين بغداد ثلاثون
فرسخاً . ولها قلعة حصينة فى طرفها القبلى ،
راكبة على دجلة ، وهى غربى دجلة . وكان أول
من بنى هذه القلعة سابور بن أردشير بن بابك
لما نزل الهدّ ، وهو بلد مقابل تكريت فى
البريّة .

قال عبيد الله بن الحرّ ، وكان قد وقع بينه
وبين أصحاب مصعب وقعة بتكريت قُتِلَ بها
أكثر أصحابه ونجا بنفسه فقال فى أبيات :

فإنّ تكّ خيلى يومَ تَكَرِيتَ أَحْجَمَتْ

وقُتِلَ فرسانى ، فما كنتُ دانيا

وقد فتحها المسلمون فى عهد عمر
سنة ١٦ هـ . أرسل إليها سعد بن أبى وقاص
جيشاً عليه عبد الله بن المعتم فحارب أهلها
حتى فتحها عنوةً . نُسب إليها جماعة من أهل
العلم .

أقول : وقد ورد فى المصادر النصرانية أن
أهلها كانوا نصارى ، وقد عرفنا من أولئك
النصارى أنطون التكريتى ، وله مصنّفات فى
الثقافة السريانية .

وعُرف أن صلاح الدين بن أيوب قد ولد
فيها .

وكانت تكريت فى عصرنا هذا بليدة
صغيرة تابعة لقضاء سامراً وهى وسامراً
تابعتان إدارياً لبغداد العاصمة .

ولما قامت ثورة السابع عشر من تموز سنة
١٩٦٨ م رأت الحكومة أن تجعل «تكريت»
مركز محافظة ففُصِلت عن كونها تتبع
سامراً ، ثم جعلت سامراً تتبع تكريت فى
شؤونها الإدارية .

وهكذا تبدّل الحال ، فتكون سامراً التى
كانت عاصمة العباسيين طوال نصف قرن من
أعمال تكريت ولكل زمان رأي وحكم ونظام .

قلتُ : صارت تكريت فى عهد الثورة
مركز محافظة صلاح الدين يكون فيها سامراً
والدور وغيرهما وبها الآن جامعة للآداب
والعلوم .

وقد ورد اسم تكريت فى النقوش الآشورية
بالخط المسمارى ، فهى على هذا من المراكز
القديمة .

١٦- تلّ أعفر :

أقول : هذا هو الاسم فى كتب البلدان ،
وقد رُكِّبت هاتان الكلمتان لدالتهما على بليدة
معروفة فكانت « تَلْعَفَر » .

قال ياقوت : هكذا تقول عامة الناس [أى
تلّ أعفر] ، وأما خواصُّهم فيقولون : « تَلّ
يَعْفَر » ، وأصله التلّ الأعفر ، وهو اسم قلعة
وربّض بين سنجار والموصل . فيها نهر جارٍ ،
وهى على جَبَلٍ منفرد . وإليها نُسِبَ الشاعر
التَّلْعَفَرِيُّ موسى بن أبى من الذين مدحوا الملك
الأشرف .

أقول : وهذه البليدة تتبع الموصل .

١٧- الحديثة :

الحديثة القديمة هى التى دعاها ياقوت
«حديثة الفرات» ، قال :

هى على فراسخ من الأنبار ، وفيها قلعة
حصينة فى وسط الفرات ، والماء يحيط بها ،
دخلها المسلمون فى خلافة عمر . نُسب

إليها جماعة من الرجال من المحدثين وغيرهم
كما أشار الخطيب فى « تاريخ بغداد » .

أقول : وهى فى عصرنا بليدة صغيرة على
الفرات الأوسط من أعمال محافظة
«الأنبار» .

١٨- الحَضْر :

جاء فى « معجم البلدان : أن « الحَضْر »
اسم مدينة بإزاء تكريت فى البرية ، بينها وبين
الموصل والفرات . وهى مبنية بالحجارة المهندمة
بيوتها وسقوفها وأبوابها . كان فيها ستون
برجاً كبيراً ، وبين البرج والبرج تسعة أبراج
صغار ، بإزاء كل برج قَصْرٌ وإلى جانبه حمام .

ومرُّ بها نهر الثرثار ، وكان نهراً عظيماً
عليه قرى وجنان .

وقال الشرقى بن القطامى : لما افترقت
قضاة سارت فرقة منهم إلى أرض الجزيرة ،
وعليهم ملك يقال له الضيّز بن معاوية ...
وكان فيما زعموا ملك الجزيرة كلها إلى الشام
فنزل مدينة « الحَضْر » .

أقول : إنها مدينة ظاهرة آثارها أقبل

عليها الدارسون العراقيون ومنهم فؤاد سَفر
وكتب عنها وأشار إلى أن أهل « الحَضَر »
بفتحيتين عَرَب ، وملكهم « سَنَطْرُق » غير أن
المشاهد العارف بفنون العمارة القديمة يدرك وهو
يشاهد الحضر أن هذه الأبنية ذات عمارة
رومانية في حجارتها ونقوشها ، وفن التماثيل
القائمة ولاسيما ما كان منها للمرأة . ثم إنه
يدرك أن هذه الآثار تشبه آثار « بُصْرَى وإبلا »
في بلاد الشام ، كما أنها تشبه ما هو معروف
من نظائرها في « البتراء » في الأردن .
إنه الفن الروماني في الأبنية في أقواسها
وعفوها ، وقماثيل الآدميين الدقيقة في إبراز
الصورة البشرية .

إنَّ « الحضر » مدينة عراقية كانت تعرف
باسم حطارا ، عرفت أطلالها وسط بادية ما بين
دجلة والفرات المعروفة بـ « الجزيرة » على بعد
ثلاثة كيلو مترات من وادي الثرثار ، وعلى
مسافة ٦٠ كيلو متراً من قلعة شرفاط .

ثم إن لغة نقوش الحجر في حروفها
الآرامية ودلالاتها لا يمكن أن تكون عربية ،
وأهلها عرب كما ذهب الأستاذ فؤاد سفر ، وإن
« سَنَطْرُق » من غير الأعلام التي نعرفها في
العربية .

وإذا كان في النقوش اسم « سَنَطْرُق ملك
العرب فهذا لا يبعد عن ورود « العرب أو
العربان » في الآثار البابلية . وقد يعنى هذا أن
كلمة « عرب وعُربان » أطلقها أولئك الأقوام
على القادمين من بلاد العرب « أى شبه جزيرة
العرب » .

ويؤيد هذا أن لغة النقوش آرامية برسومها
ومعانيها ، فلا بد أن يكون أهلها آراميين
عاشوا في منتصف القرن الأول للميلاد .

ثم إن التشابه في الآثار والخصائص الفنية
بين آثار الحضر ونظائرها في بلاد الشام والأردن
ليشير أن هذه محطات رومانية أقامها الرومان
مع أهل البلاد حماية لإمبراطوريتهم حين كان
لها توسع وامتداد في الشرق .

١٩ - الحلة :

قال ياقوت : هي في اللغة القوم
«النُّزُول» .

وهي عدّة مواضع أشهرها «حلة بنى
مَزَيْد» ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت
تُسَمَّى « الجامعَيْن » .

وكان أول من عَمَرَهَا سيف الدولة صدّقة
ابن منصور بن دُبَيْس بن علي بن مَزِيد الأسدي
سنة ٤٩٥ هـ .

أقول : هي « الحِلّة » في عصرنا مركز
محافظة بابل ، وقد مرّ الكلام عليها . ولم
يكن اسم بابل هو الشامل العام لهذه الجهة بما
فيها « الحلة » وحواضر صغيرة أخرى إلا بعد
إصلاح التنظيمات الإدارية في عهد ثورة قموز
الثانية .

أقول : خرج من الحلة جمهرة من أهل
العلم والأدب ، ومنهم الشاعر صفى الدين
الحلى ، والمحقّق الحلى من كبار رجال الشيعة،
وشعراء آخرون في القرون المتأخرة اشتهر من
بينهم السيد حيدر الحلى في القرن الماضي .

وهي اليوم مدينة عامرة كثيرة النفوس يمر
فيها الفرات ، وهي ذات زرع ونخيل .

٢٠ - حمام على :

بليدة تتبع الموصل صغيرة . قال ياقوت :
إنها بين الموصل وجهينة قرب عين القار ، غربى
دجلة ، وهي عين ماؤها حارّ كبريتى
أقول : يقصدها الناس للاستحمام والعلاج .

٢١ - الحُوَيْزَة :

جاء في « معجم البلدان » : أن الحُوَيْزَة
موضع حازه دُبَيْس بن عفيف الأسدي أيام
الطائع لله ، ونزل فيه بحلته ، وبنى فيه أبنية .
وليس هذا بدُبَيْس بن مَزِيد الذى بنى « الحلة »
بالجامعين ، ولكنه أسدى أيضاً .
وهذا الموضع بين واسط والبصرة
وخوزستان في وسط البطائح .

نُسب إلى الحُوَيْزَة قوم منهم عبد الله بن
حسن بن إدريس الحُوَيْزى من أهل الحديث .

أقول : وقد أورد الخاقانى في « شعراء
العراق » غير واحد من الشعراء المتأخرين
اشتهروا بـ « الحويزى » .

أقول أيضاً : إن « الحُوَيْزَة » قرية حدودية
بين جنوبى العراق وإيران على قرب من « الهور
الكبير » الذى يُعرف بـ « هور الحُوَيْزَة » إلى
الجنوب الشرقى من مدينة العمارة مركز
محافظة « ميسان » . وهي منطقة كثر فيها
النزاع والحرب بين العراق وإيران منذ عصور
عدّة ، ومازال هذا إلى اليوم .

٢٢ - الحيرة :

قال ياقوت : هي مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، يقال له « النَّجَف » ، زعموا أن بحر فارس (١) كان يتصل به . وبالحيرة « الخَوَرْتَق والسدير » ، مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر من لحم النعمان وآبائه ، والنسبة إليها « حارِي » على غير قياس .

أقول : و « الحيرة » اليوم بليدة صغيرة من أعمال محافظة « الديوانية » على الفرات الأوسط ، وهي منطقة زرع وفلاحة ونخيل .

٢٣ - الخابور :

قال ياقوت : الخابور من أرض « خَبْرَة » وخَبْرَاء ، وهو القاع الذي ينبت السُّدْر . و«الخَبَار» : الأرض الرخوة ذات الحجارة .

و « الخابوراء » : اسم موضع لعل نهر الخابور يمر فيه .

و « الخابور » : نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .

أقول : إن نهر الخابور يمر - في جزء من أعلاه - بأرض الجزيرة من بلاد الشام ، ويدخل العراق ، وعلى ضفافه في العراق قرى ومواقع منها « فيش خابور » بليدة أهلها أكراد .

٢٤ - الخالص :

قال ياقوت : اسم كورة عظيمة من شرقي بغداد إلى سور بغداد .

أقول : وهو الآن بليدة في محافظة « دِيَالَا » (٢) ، يمر فيها نهير صغير هو نهر الخالص وهي منطقة فلاحية وبساتين فاكهة ونخيل .

٢٥ - خانقين :

انظر « البَنْدَنِيَجِيْن » .

٢٦ - الدور :

قال ياقوت : الدور سبعة مواضع بأرض العراق من نواحي بغداد ، أحدها « دُور »

(١) أقول : إن تسمية « بحر فارس » ترد في كتب البلدان العربية الجغرافية كما وردت في « كتاب العين » للخليل . وهذه هي التي تُدعى في عصرنا « الخليج العربي » وفيه بلاد عدة معروفة . والتسمية القديمة مأخوذة ومستوحاة من عصور الإمبراطورية الإيرانية التي تفسحت في هذه البلاد العربية . وأذكر وأنا طالب في الإعدادية كنا نطلق مصطلح « خليج البصرة » على هذا « الخليج الكبير » .
(٢) أقول : ديالى ، محافظة ونهر في عصرنا ، وأرى أنها كلمة تحمل ما يومئ إلى أصل سرياني ، ولكنى لم أجده في المعجمات السريانية ، ولا في العبرانية .

تكريت وهو بين سامراً وتكريت ،
والثاني بين سامراً وتكريت أيضاً يُعرف
به «دور عريبي» .

أقول : إن « دور عريبي » يشير إلى
التسمية السريانية ، ويعنى هذا أن أهلها عرب
وآراميون .

وأقول : هذا هو الذى يهمنى من «الدور»
التي هي موطن إقامة حضرية في العراق ،
وأما ما بقى منها فهي خارج العراق .

و « الدور » الأولى كانت قرية تتبع
سامراً ، ثم اتسعت حالها بعد ثورة قموز فساوت
سامراً في درجتها الإدارية .

وقد خرج كثيرون من « الدور » هذه في
عصور ماضية ونُسبوا إليها ومنهم أبو عمر
حفص ابن عمر الدورى ترجم له ابن الجزرى في
طبقات القراء ٢٥٥/١ وغير هذا كثير .

أقول أيضاً : وهي الآن في النطق السائد
« دُور » كما نقول « صُوت » في الألسن
الدارجة ، ولكن النسب إليها كما هو في
فصيح العربية « دُورى » .

٢٧ - ذى قار :

أقول : هذا موضع قديم هو « ذوقار »
ولكن المعاصرين أغفلوا وجه الاسم فلزم الياء
في كل الأحوال . وهذا الاسم لمحافظة كبيرة تقع
على ضفتي الفرات الأسفل تشتمل على
حواضر وقرى ، مركزها « الناصرية » مدينة
واسعة أسسها ناصر باشا السعدون في العهد
العثماني المتأخر .

و « ذوقار » في مصادر التاريخ والأدب
ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين
واسط .

وحديث ذى قار مع كسرى والنعمان
ابن المنذر قد ورد في كتب التاريخ القديم الذى
كان منه وقعة ذى قار المشهورة التي انتصر
فيها العرب على الفرس .

وقيل بصدد هذه الواقعة إنها كانت يوم
ولادة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -
وقد أشار إليها أبو تمام في قصيدته التي مدح
بها أبا دُلف العجلي .

٢٨ - زاخو :

بليدة في أقصى شمالي العراق منها يدخل

القاصد إلى الأراضى التركية ، أهلها أكراد مسلمون وبينهم نصارى ، ولعلها من «زاحا» السريانية بمعنى «النظافة والصفاء» .

٢٩ - سامراء :

جاء فى « معجم البلدان » أنها سامراء بالقصر ، وسامراء بالمد ، وسر من رأى ، وسر من راء ، وقد ورد هذا كله فى الشعر .

قال البحتري :

وأرى المطايا لا قصور بها

عن ليل سامراء تذرعه

وقال الحسين بن الضحاک :

سر من را أسر من بغداد

فأله عن بعض ذكرها المعتاد

وقال البحتري :

لأرحلن وآمالى مطرحة

بسر من راء مستبطى لها القدر

وهى مدينة بين بغداد وتكريت ، شرقى

دجلة .

قال أبو سعد : سامراء بلد على درجة فوق

بغداد بثلاثين فرسخاً يقال لها «سر من رأى» ، فحففها الناس وقالوا : سامراء .

أقول : وهى مدينة مازالت فيها آثار

العباسيين والمثذنة الملوثة ، ودار الخلافة وبقية

أطلال القصور . وإلى جوار هذه بقايا خطة

المدينة القديمة فى شوارعها وطرقها .

وهذه مجاورة للمدينة الحديثة التى فيها

الإمام على الهادى والإمام حسن العسكرى ،

وموضع غيبة الإمام المهدي المنتظر .

والنسبة إليها « سامرى » ، وقد عُرف

بهذه النسبة خلق كثير من محدثين وقراء

وغيرهم .

وأخبار سامراء فى الأدب والشعر

مستفيضة (١) .

وكأنى أرى أن « سامراء » تحمل فى بنائها

الصيغة الآرامية فى انتهائها بالألف .

وأما ما قيل من صور تسميتها فذاك شىء

ولده استحسان الشعراء والناس الذين سكنوها

وارتضوا إقامتهم فيها فقالوا : سر من رأى ،

وغيرها .

(١) أقول : ولى فى هذا كله مصنف وسمته بـ « إعلام الورى فيما نسب إلى سامراء » طبع دار الحكمة بلندن .

٣٠ - سِنْجَار :

قال ياقوت : سنجار ، بكسر أوله وسكون ثانيه ثم جيم وآخره راء ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . وهي فى لحف جبل عال .

ويقولون : إن سفينة نوح - عليه السلام - لما مرّت به نطحت ، فقال نوح : هذا سنّ جبل جار علينا ، فسُمّيَت « سِنْجَار » .
قال ياقوت : ولست أحقّق هذا والله أعلم به .

وقال ابن الكلبي : إنّما سُمّيَت سنجار وآمد وهيت باسم بانيها .

وقال حمزة الأصبهاني : « سنجار » تعريب « سِنْكار » (١) ، ولم يفسّره .
وهو مدينة طيبة فى وسطها نهرٌ جارٍ .

وقيل : إن السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن سلجوق وُلِدَ فيها فسُمّيَ باسمها عن الزمخشري .

وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والشعر .

وقد نُسب إليها جماعة من أهل العلم من أهل عصرنا منهم أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور الشاعر ويعرف بالبهاء السنجاريّ .

أقول : و « سنجار » اليوم بليدة بلحف الجبل كما ذكر ياقوت من موضعها ، وأهلها أكراد مسلمون وبينهم نصارى من أصول سريانية شرقية يطلقون على أنفسهم « الكلدان » . وأضيف أن من نُسب إلى سنجار أبو محمد الأمير حسن بن الأمير يوسف الملقّب بـ « المكزون السنجاريّ » المتوفى سنة ٦٣٨ هـ (انظر تاريخ العلويين للطويل) .

٣١ - شَهْرزُور :

قال ياقوت : شهرزور كورة واسعة بين إربل وهَمَذان ، أحدثها زور بن الضحّاك . و «شَهْر» بالفارسية المدينة .

وأهلها أكراد . وقد خرج منها العلماء وأعيان الفضلاء والفقهاء ، يفوقون الحصر . وكثير من أولئك نسبوا إليها واشتهروا بـ « الشهرزورى » .

(١) لقد حقّقت فى قول حمزة هذا فى معجمات اللغة الفارسية فلم أجده ، وكأنى أميل إلى أن أهل المعرب من العلماء العرب لم يكن لهم معرفة حسنة بالفارسية على قريهم منها . ونسبة حمزة إلى أصبهان لا تعنى شيئاً ، وقد تأكدت أن ابن الجواليقى لا يعرف الفارسية وإن شعر فى أقواله ، ونسب ألفاظاً كثيرة إليها لم تكن فارسية .

٣٢ - صَيْدا (أَبُو صَيْدا) :

أقول : هى بليدة صغيرة على نهر دىالى تُعرف بـ (أَبُو صَيْدا) . و « صَيْدا » هذه نظير الاسم نفسه « صَيْدا » من حواضر بلاد الشام المشهورة التى تكون فى عصرنا فى جنوبى لبنان وهى « باصَيْدا » و « با » كما بيّنّا فى « يا عشيقا » و « يا عقوبا » تعنى « البيت » وعلى هذا تكون « باصَيْدا » تفيد « بيت الصيد » . والمدينة على هذا تحمل الصيغة الآرامية .

أقول : والعرب من أهل اللغة والتاريخ ذهبوا إلى تفسير مادة « صيداء » يعنى الحجر الأبيض تُعمل منه البرام « جمع برمة » ، كما فسروا البصرة والكوفة أنها تربة وحجارة رخوة ونحو هذا ، وليس لنا أن نقبل هذه التفسيرات .

٣٣ - عانة :

قال ياقوت : « عانات » بليدة فى أعلى الفرات .

قال الكلبي : قُرى « عانات » سُميت بثلاثة إخوة من قوم عاد . قال الأعشى :
كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزَّجْبِيلِ خَالِطٌ فِيهَا ، أَوْ أَرِيًّا
مَشُورًا .

وإِسْفَنْطُ عَانَةٌ بَعْدَ الرِّقَادِ شَكَّ الرِّصَافِ
إِلَيْهَا عَذِيرًا .

وقال : قلعة حصينة على الفرات .

أقول : قد تكون الفائدة قليلة لنا ، نحن الدارسين ، ونحن ننظر فى أقوال المتقدمين كالكلبي والشرقي بن القظامي وغيرهما . ولنا أن نعرف أنها « عانة » و « عانات » ، وقد عرفت « هانا » فى العهد البابلي القديم . وهى « أناتا وأناتو » فى المصادر اليونانية الرومانية .

أقول : إن الذى ورد فى مصادر الإغريق من أنها « أناتو أو أناتا » هو معروف فى الأكديّة البابلية والرسم المسمارى للهمزة والعين واحد ، وقد ظن نفر من أهل الآثار أن « العين » لا توجد فى الأبجدية الأكديّة ، وهذا وهم . وفى العربية الفصيحة « العانة » القطيع فى الحُمْرِ الوَحْشِيّة ، قال الشاعر القديم :

وينا هما عَنَّتْ على البُعدِ عانة

قد اكتنزت لحماً وقد طُبَّقَتْ شَحْماً
ولكننا نجد « عانا » السريانية تفيد « الضأن » (١) .

أقول : لعل بليدة «عانة» قد سُميت بهذا الاسم الذى يدلّ على الضأن !

(١) ربما اختلفت اللغات السامية فى المشترك من اللفظ بينهما كما كان فى «عانة» فهى فى الآرامية الضأن ، وفى العربية « حُمْر الوحش » .

قلت : إن « الضاد » فى العربية يقابله العين فى الآرامية ، ولذلك كانت « البيعة » التى نُقلت من السريانية الآرامية بصوت العين لتعنى « بنية النصارى أو الكنيسة » ، وكان ينبغى أن تكون « بَيْضَة لأنها فى الحقيقة =

وهى فى عصرنا بليدة على الفرات فى
الجانب الأيسر ، وفيها جزر فى وسط النهر
جُعِلت بساتين فيها نخيل وأعناب .

وقد اقتضت مصلحة لبناء سدّ على
الفرات فى موضع هذه المدينة أن تُزال المدينة
وُرسَم لها موضع آخر يبعد عنها ، تجلب إليه
مياه الفرات ، فزالت وبكاها أهلها من عرفوا
الماضى وكيف عمروها وغرسوا نخيلها وشجرها
وشقوا فى ذلك .

٣٤ - عين التمر :

قال ياقوت :

هى بلدة قريبة من الأنبار ، غربى
الكوفة ، بقربها موضع يقال له « شِفَاثَا » ،
منها يُجلب القسب والتمر . فتحها المسلمون
أيام أبى بكر الصديق على يد خالد .

أقول : نعم قد تقرب « عين التمر » من
الأنبار فى سعتها القديمة التاريخية ، ولكنها
الآن تابعة لمحافظة « كربلا » ، على طرف
البادية ، وهى بليدة صغيرة جداً .

أما قول ياقوت : بقربها موضع يقال له
« شِفَاثَا » ، فصحيح ، وهذه الآن ناحية صغيرة

يكثُر فيها النخيل ، وماؤها من عيون يخالطه
مركبات معدنية كالكبريت وغيره . وللعراقيين
فى عصرنا مثل عامى ، يقولون : « ترجو
العافية فى شِفَاثَا » (١) .

٣٥ - الفلوجة :

قال ياقوت : الفلوجة الكبرى والفلوجة
الصغرى قريتان كبيرتان من سواد بغداد
والكوفة .

أقول : و « الفلوجة » فى عصرنا مدينة
عامر من محافظة الأنبار ، على الفرات يمر بها
الذاهب من بغداد إلى دمشق براً . وكان الناس
يبدلون من الفاء ثاءً .

٣٦ - كربلاء :

قال ياقوت : هى بالمد ، وهى الموضع الذى
قتل فيه الحسين بن على - رضى الله عنه -
فى طرف البرية عند الكوفة . فيما اشتقاقه
فالكربلة رخاوة فى القدمين ، يقال : جاء يمشى
مكربلاً ، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا
الموضع رخوة فسميت بذلك . ويقال : كربلت
الحنطة إذا هذبتّها ونقيتها فيجوز على هذا أن
تكون هذه الأرض منقاة من الحصى والدغل ،
فُسميت بذلك .

= « قُبّة بيضاء اللون » . قال تعالى : « .. لَهْدُمَت صَوَامِعُ وَبَيْعٌ » .

(١) شِفَاثَا هذه من الأصول الآرامية التى بقيت فى أسماء المواضع والمدن ، ولم أهتمد إلى دلالتها .

وأورد ياقوت أن الحسين قال : ما اسم هذه الأرض التى نحن فيها ؟ قالوا : كربلاء ، فقال : أرض كرب وبلاء ! وأراد الخروج منها فمنع كما هو مذكور فى مقتله .

أقول : و « كَرْبَلَاء » اليوم مركز محافظة كبيرة ذات بساتين فيها نخيل وشجر يسقيها نهر يدعى « الحسينية » يأخذ ماءه من دجلة . أقول أيضاً : هى بالقصر فى اللغة الدارجة ، وهى كذلك فى لغة الشعر ، ومما ورد من ذلك فى لغة الشعر ما نسب إلى الشريف الرضى من قوله فى مطلع قصيدة طويلة :

كَرْبَلَا لَا زِلْتُ كَرْبَاءً وَبَلَا

ما لَقِيَّ عِنْدَكَ آلُ الْمُصْطَفَى
وقد وردت ممدودة فى قول الرباب بنت امرئ القيس ترثى الإمام الحسين :
إِنَّ الَّذِي كَانَ نُورًا يَسْتَضَاءُ بِهِ

بَكْرَبَلَاءَ قَتِيلٌ غَيْرُ مَدْفُونٍ
وكأننى أجعل الأصل هو لغة القصر « كَرْبَلَا » وبذلك أستطيع أن ألحق هذه الكلمة بالأصول الآرامية فى أسماء المدن فيما بين النهرين وبلاد الشام .

٣٧ - الكوفة :

قال ياقوت : « كوفان » اسم أرض ، وبها سميت الكوفة . و « كوفان والكوفة » واحد والكوفة من أض بابل من سواد العراق . سميت لاستدارتها من قول العرب : رأيت كُوفَانًا وَكُوفَانًا .

وقيل سُمِّيت « كوفة » لاجتماع الناس بها ، من قولهم : تَكُوفُ الرمل .

وقد مُصِّرَّت فى أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سنة ١٧ هـ ، وقيل : سنة ١٨ هـ .

وقال قوم : إنها مُصِّرَّت بعد البصرة بعامين أى سنة ١٩ هـ .

قال أبو عبيدة : لما فرغ سعدٌ من وقعة رستم بالقادسية .

أقول : لم يكن للدارسين الثقة التامة فيما سجله ياقوت وغيره عن الحواضر القديمة ذات الأصول التى سبقت تاريخ العرب والمسلمين ، فقد ذهبوا إلى شىء من القصص التى يختلط فيها التاريخ بالأسطورة . وقد ذهبوا أحياناً فى

الوصول إلى شيء يرضيهم بالرجوع إلى تأويل
الكلم القديم بما يناسب العربية ، أو قل : إنهم
وضعوا شيئاً فحملوا غيرهم عليه ، ألا ترى
أنهم فسروا البصرة والكوفة وصيّداً بشيء
يتصل بالأرض والحجارة ويسطوا على كل من
هذه لوناً يميزها !

أقول : لا بد لي أن أذهب إلى أن
«الكوفة» « من الكلم القديم » كوفاً « التي
تومئ إلى الصيغة السريانية وأن العرب حين
واجهوا هذا ومثلها باعقوبا وبعشيقا ، نظروا
إلى الألف الأخيرة ، وهي فتحة طويلة مالوا
إلى تأنيث هذه الألفاظ فأضافوا هاءً محتفظة
بفتحة قبل الهاء على غرار المؤنثات في العربية
فصارت : كوفة وبصرة وبعقوبة وبعشيقية . كما
مالوا إلى هذا في الكلمات الأخرى نحو
سوريا ^(١) وتركيا وإيطاليا ، وفرنسا وغيرها
، وجعلوها : سورية وتركية وإيطالية وفرنسية .

وكأنني أستدل على هذا الرأي في
«الكوفة» بما ورد في مصادرننا في
«كوئي» ^(٢) أو «كوئا»

ف قيل كوئي : موضع بسواد العراق في
أرض بابل ، وهي سرّة السواد .
أقول : لا بد أن يكون هذا الموضع أصلاً
«كوفاً» التي تحوكت إلى «كوفة» . وبين الثاء
والفاء إبدال كثير في العربية فقالوا : جدت
وجدت ، وقالوا : ثآليل وفآليل . وعامة
العراقيين يقولون «ثلوجة» للفلوجة التي مرّ
ذكرها . وسمعنا لدى القرويين من يقول :
«فلج» للثلج .
٣٨ المداخن :

قال ياقوت : هي عدة مدن عراقية اسمها
بالفارسية «توسفون» (طيسفون) ، وهي بما
يقرب من ٣٥ فرسخاً جنوبى بغداد . اتخذها
سعد بن أبي وقاص مقراً له في فتح العراق .
واتخذها الفرثيون مَسْتَتًى ، وأعقبهم
الساسانيون فاتخذوها عاصمة .

أقول : في هذه المدينة «طاق كسرى» أو
إيوان كسرى الذين ورد ذكره في سينية
البحترى الشهيرة التي مطلعها :

(١) قيل في «سوريا» إن هيرودس الإغريقى حين مرّ بهذه المواضع حسبها «بلاد الآشوريين» فكانت لديه
أشوريا أو أسوريا ، ومن هذا جاء الاسم «سوريا» .
(٢) و «كوئي» من أسماء مكة - حرسها الله - .

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي

وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبْسٍ

وفى هذه المدينة : قبر الصحابي سلمان
الفارسي ، ويطلق عليه العراقيون كما يطلقون
على البلدة كلها «سلمان پاك» و «پاك»
هذه تعنى «النظيف والطاهر» بالفارسية .
وبقى «سلمان ياك» هو المعروف فى
التنظيمات الإدارية ، ثم اجتهد أولو الأمر
فأعادوا كلمة «المدائن» إلى هذه البلدة كما
أعادوا أسماء قديمة أخرى لحواضر كثيرة مرّت
بنا فى هذا «الموجز» .

٣٩ - الموصل :

قال ياقوت : الموصل إحدى قواعد
الإسلام ، قليلة النظير كبراً وعظماً وكثرة خلق
وسعة رقعة . وهى باب العراق ، ومنها يُذهب
إلى خراسان ، ومنها يُقصد إلى أذربيجان لأنها
وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل : وصلت بين
دجلة والفرات ، وقيل وصلت بين سنجار
والحديشة .

أقول : هى فى عصرنا حاضرة مهمة ذات
قيمة تاريخية واقتصادية ، وهى أم الربيعين

مركز محافظة كبيرة اختير لها الاسم الآشورى
القديم «نَيَوَى» التى تشمل عدة مدن وحواضر
وقرى .

ولابد من القول فى نبذة موجزة عن
«نَيَوَى» فأقول :

هى عاصمة الآشوريين فى الألف الأول
قبل الميلاد التى ورد ذكرها فى سفر التكوين
من العهد القديم وقد أشير إلى نمرود الذى
أسسها فى سهل «شنعار» . وهناك إشارات
أخرى إلى هذه الحاضرة فى سفر ناحوم من
أنبياء بنى إسرائيل .

ولم أهتم إلى معرفة معنى «نيتوى» فيما
بين يدي من مراجع يسيرة ، ولم يُشر الغربيون
إلى هذا وهم يبحثون وينقبون فى آثار
الآشوريين ومدينتهم هذه «Ninive» .

أقول : وقد خرج من الموصل جمهرة من
أهل العلم ، ونُسب إليها عدد كبير منهم^(١)
وللموصل شهرة حضارية عرفت فى فنون
الصناعات ومنها صناعة النسيج . وحديث
«موصلايا» ودلالاتها معروفة .

٤٠ ميسان :

قال ياقوت : هو ، بفتح فسكون وسين
مهملة وآخره نون ، اسم كورة واسعة كثيرة
القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبته
ميسان .

(١) كان من منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية كتاب مفيد هو «تاريخ الموصل» .

وفى هذه الكورة أيضاً قرية فيها قبر
«عزير» النبى - عليه السلام - مشهور
معمور ، يقوم بخدمته اليهود ، ولهم عليه
«وقوف» وتأتيه النذور ، وأنا رأيته . ويتسب
إليه «ميسانى وميسنانى» . وكان أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب ، لما فتحت ميسان فى
أيامه ولأها النعمان بن عدى بن نضلة بن عبد
العزى بن حُرثان وكان من مهاجرة الحبشة
، ولم يؤلَّ عمر أحداً من بنى عدى ولاية قط
غيره لما كان فى نفسه من صلاحه .

وأراد النعمان امرأته معه على الخروج إلى
ميسان فأبَتْ عليه فكتب النعمان إلى زوجته :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها

بميسان يسقى فى زجاجٍ وحنتم

إذا شئت غنّنى دهاقين قريةٍ

وصناجة يجشو على حرف منسّم

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى

ولا تسقنى بالأصغر المتشلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه

تنادىنا بالجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر ، فكتب إليه :

بسم الله حم تنزيل الكتاب من الله العزيز
غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ...
أما بعد فقد بلغنى قولك : «لعل أمير المؤمنين
يسوءه» وايم الله ، لقد ساءنى ذلك ، وقد
عزلتك .

أقول : وقد أطلق اسم ميسان فى عصرنا
على القرية الصغيرة التى فيها قبر «العزير»
نبى الله - عليه السلام - . لقد كان هذا قبل
ما يقرب من خمسين سنة . ثم تنبّه أهل الرأى
إلى ما كان منهم فعادوا إلى الاسم ونزعوه عن
القرية وأطلقوه على رقعة واسعة جداً وجعلوه
محافظة مركزها مدينة «العمارة» على الجانب
الشرقى من دجلة بين واسط والبصرة .

٤١ - النجف :

قال ياقوت : بظهر الكوفة كالمسناة ، تمنع
مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها . وبالقرب
من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين - رضى الله
عنه - على بن أبى طالب . وقد ورد ذكر
الموضع فى الشعر ولاسيما حين يعرض الشعراء
لرثاء الإمام ، قال على بن محمد العلوى
المعروف بـ «الحيمانى الكوفى» .

فيا أسفى على النجف المعرى

وأوديسة منورة الأقاحى

أقول : وكانت مدينة النجف تابعة لمحافظة «كربلا» ، ثم رأت الحكومة أن تجعلها محافظة لمكانتها الدينية والعلمية ، كان هذا منذ ما يقرب من ربع قرن .

٤٢ - تيتوي :

انظر «الموصل» .

٤٣ - هيت :

قال ياقوت : هي بليدة على الشاطئ الغربي من الفرات في الرقعة الواسعة التي دُعيت «الأنبار» .

وقد عُرِفَتْ بِـ «القار» وهو المعروف لدى أهل الصنعة .

أقول : وهذه المدينة هي التي ذكرها المعري في شعره :

هاتِ الحديث عن الزوراء أوهيتا

وموقد النار لا تكري بتكريتا .

٤٤ - واسط :

قال ياقوت : هي عدة مواضع منها :

واسط الحجاج وهو أعظمها وأشهرها ، سُمِّيَتْ لتوسطها بين البصرة والكوفة .

أقول : لم يكن معروفاً أمر واسط قبل ربع قرن إلا في أطلالها وبقاياها في حجارة وجدد متناثرة بعيداً عن نهر الفرات ببضعة كيلومترات . غير أن أولى الأمر - جرياً مع سياستهم التنظيمية في الحواضر والمدن - أعادوا هذا الاسم إلى المنطقة التي كانت تعرف بِـ «لواء الكوت»^(١) أو محافظة الكوت في منتصف الطريق بين بغداد والبصرة ، فكانت «محافظة واسط» .

خاتمة

هذا موجز بالأعلام الجغرافية في العراق جعلته إلى أهم الأعلام ذات الأصول الجغرافية التاريخية وما عرض لها في مسيرتها التاريخية، وقد ابتعدت فيه عن المشهور مثل «بغداد» وغيرها لكثرة ما كتب فيها .

إبراهيم السامرائي

عضو المجمع من العراق

(١) «الكوت» حاضرة حديثة أنشأها الناس حول ماكان «Cot» في الإنكليزية وهو المنزل الصغير الذي أقامه الإنكليز في القرن التاسع عشر نقطة ومركزاً لهم على طريق الهند ، وهذا المنزل نظير «كوت الزين» و«كوت الإمارة» وغيرها . ولا بد أن يكون أول قيام «الكوت» هذا .

مجمع اللغة العربية ...

غاية شوط ...

قصيدة للفريق يحيى عبد الله المعلمي

غاية الشوط بِحِصْنِ الخالدينُ	مـعـقـلِ الإبداع والفن الرصينُ
بعد كدٍّ وكفاح لا يلينُ	تبلغ الذروة آمـالُ السنينُ
عِشْقُنا الفحصى بوجد الوالihinُ	قد رعيناهـا بشوقٍ وحنينُ
وعذارى الشعر حيناً بعد حينُ	تترأى كطيوفٍ للعيونُ
كفراشات بأعماق السكونُ	حائماتٍ عن يسار ويمينُ
تيمّنيني ... صيّرتنى فى شجونُ	كى أنالَ القربَ .. قُربَ العاشقينُ
وتأبّت بدلال وفـتـونُ	تنشد الإغداق رقرق المعينُ
مهرها الديباج والخزُّ الثمينُ	لمعانٍ .. تنشر اللفظ المبينُ
بوشاح بحتريّ الياسمينُ	وقد ازدان بوشى الملهمينُ
ببلوغ الأوج مَن ذا يستهينُ ؟	بحماكم صرت وضاء الجبينُ



كم تجافى الجنب فى المهد الوثيرُ	فى ليالى السعد والعهد النضيرُ
كانت (الأسفار) كالكنز الأثيرُ	تُترع الوجدان بالعلم الغزيرُ
كل سيفر بشهيق وزفيرُ	كان دنيائى ومصباحى المنيرُ
أشهد الأفلاك ما بين السطورُ	فى ائتلاق منذ أعماق العصورُ

أى صعب هو فى عزمى يسيرُ
وعشقت الشعر فى سمت غضيرُ
وجفوت (النبط) أمياً فطيرُ
أين سكنى الكوخ من سكنى القصورُ
أين لفظ دارج المبنى حسيـنـرُ
لغة القراءن للفظ البصيرُ



والأمانى حيثما سرتُ تسيرُ
لا يعانى من زحاف أو كسورُ
يرمق الفصحى بصمت لا يحيرُ
أين - لا أين - لأمى غـرـرُ
من فصيح اللفظ ذى المعنى الغزيرُ
نبيع إثراء إلى يوم النشـورُ



بين أقلامى وأوراقى عهدُ
أنشد التوفيق بالجهد الجهيدُ
وكتاب الله لى نعم المفيدُ
وحديث المصطفى حبل الوريدُ
وشؤون الأمن فى الإسلام بيدُ
بعد تصنيفى للجـم العـديدُ
ما قصدت الزهو والفخر المديدُ
لابتغاء الأجر من رب مجيدُ
سدد الخطو إلى منحى يُشيدُ
تذكر (الأعلام) منهم بالمزيدُ



كنت فيها عن سُمُو لا أحيـدُ
كان نبلُ القصد لى بيت القصيدُ
كان مشكاتى إلى رأى السديدُ
صار زادى فى صدور وورودُ
صرتُ فيها صاحب الشأو البعيدُ
كان إقدامى بإخلاص شديدُ
بل كجندى مشى بين الجنودُ
كان كدحى ... لا لسبق أو صعودُ
برجالات لهم نهج رشيدُ
من دراسات تشوق المستزيدُ



إيه يا نخبة أقطاب البيان
ما بدا فى الحفل من رأى العيان
كنت قبلاً فى بعادٍ وافتتان
(مجمع الضاد) دواماً فى الجنان
كنت بالأمس بسـيـف وسـنـان
كنت طوداً فى نزال وطعان
فأعينونى بتدعيم الكيان
لغة الضاد ستبقى فى أمان
بل شموخٌ بابتكارات (اللجان)
أتقنوا التنقيب فى شتى المظان

أَوْ حَقًّا مَا يراه الناظران
أشخص أم (عقود من جمان)
وحدا بى للطموح الحرمان
واختيارى فيه لى عزّ وشان
وأنا اليوم يراع ولسان
ويداى اليوم كم تر تجفان
أنا فى البدء جدير باحتضان
لا اعتلالٌ يعترىها أو هوان
أنتم الحراس فى هذا الزمان
لا زدهارٍ فى زمان أو مكان

الفريق
يحيى بن عبد الله المعلمي
عضو المجمع المراسل
من السعودية



الجهود العربية فى ضبط الأعلام الجغرافية

لشبه الجزيرة العربية

للأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم

بأوجه النقص المختلفة ، وبخاصة ما يتعلق
بالتصحيح فى أسماء المواضع والذى عانى منه
الأقدمون والمحدثون على حدّ سواء .

وقد مرت الجهود المبذولة للمحافظة على
أسماء الأعلام الجغرافية بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الدراسات الأساسية

ارتبطت هذه المرحلة بالفتوح الإسلامية
الأولى حيث اختلط العرب بغيرهم من الشعوب
فى الحواضر العربية ، الأمر الذى أدى إلى
ظهور بعض العجمة فى كلامهم ، فخشى
العرب على عربيتهم ، وبها نزل القرآن الكريم
، وحرص الخلفاء وسراة القوم على أن يتولى
فصحاء المدين تنشئة أبنائهم عليها ، أو
إرسالهم إلى البادية لينشأوا بين العرب الفصحاء .

وحيثما بدأت النهضة الأدبية العلمية فى
الحواضر العربية فى القرنين الثانى والثالث
الهجريين ، نشط علماء العربية فى جمع
مفردات لغتهم وتسجيلها ، وبخاصة ما ورد

إذا كان الهدف التطبيقى للجغرافيا فى
الوقت الحاضر هو خدمة المجتمع والمساهمة فى
تنميته ، فإن خدمة الجغرافيا للدراسات الأدبية
والإنسانية لا تقل شأنًا عن ذلك . وقارىء
الأدب العربى القديم يحتاج إلى معرفة البيئة
التي ظهر فيها ذلك الأدب معبرًا عنها ،
وكذلك المؤرخون وكُتّاب السيرة وغيرهم .

ومعرفة البيئة المذكورة تقتضى معرفة
أعلامها الجغرافية التى ترتبط أسماؤها إلى حدّ
كبير بخصائص المكان وصفاته . ومن هنا فإن
المحافظة على صورة الاسم للعلم الجغرافى لها
أهميتها فى التعرف على طبيعة المكان ،
إضافة إلى المساهمة فى تحديد موضع ذلك
العلم الجغرافى ووشائجه التاريخية والحضارية .

وسنعرض فى هذه الدراسة المسحية للمراحل
المختلفة التى مرت بها الجهود العربية المبذولة
لضبط الأعلام الجغرافية وتحديددها فى شبه
الجزيرة العربية ، ويتخلل ذلك عرض
للمشكلات التى عالجتها تلك الجهود ، وبيان

منها فى شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، واحتاجوا إلى شرح تلك المفردات وتوضيحها للباحثين ، فكان أن رحلوا إلى البادية ليأخذوا العلم من معدنه ، حيث بقيت العربية على نقائها القديم لم تداخلها العجمة التى أصابت المدن والحوضر .

من هؤلاء العلماء النُّضْر بن شُمَيْل (توفى ٢٠٤ هـ) وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى (١١٤ - ٢١٠ هـ) الذى أقام بالبادية نحو أربعين سنة ، وعبد الملك بن قريب الأصمعى (١٢٨ - ٢١٦ هـ) وغيرهم . وقد صنف أولئك نفر من العلماء مصنفات كانت أشبه بالمعاجم المتخصصة تناولوا فى كل منها مظهراً من مظاهر البيئة البدوية ، كالطير ، والوحش ، والنبات ، والدارات ، وغير ذلك من المصنفات التى كانت المصدر الأساسى لأصحاب المعاجم اللغوية التى ظهرت فيما بعد .

وقد كان نصيب المواضع من ذلك النشاط العلمى كبيراً ، وذلك لما تتضمنه قصائد الجاهليين وصدر الإسلام من أسماء تتعلق بمنازل القبائل ومناهل المياه ومواطن الكلاء . وكان العربى مخلصاً لبيئته محباً لها يحن إلى

ملاعب صباه ومنازله القديمة التى هجرها ، يمر عليها أو يتذكرها فى غربته ، فيعدد منازلها ومناهلها ويذكر الطرق التى تصل إليها ، وقد حفلت مطالع القصائد العربية ببيان طائفة كبيرة من أسماء المواقع اهتم بتسجيلها علماء اللغة المشار إليهم .

وظهرت مجموعة من المصنفات التى اهتمت بالمواضع فى الجزيرة العربية تحت عناوين مختلفة ، منها « بلاد العرب » و « مناهل العرب » و « صفة الجزيرة العربية » وغيرها ، وقد عرض ابن النديم فى كتابه الفهرست مجموعةً منها وأجملها ياقوت الحموى عند بيانه لمصادره ضمن الصنف الخاص بالكتب التى قصد بها ذكر البوادر والقفار ومنازل العرب الواردة فى أخبارهم وأشعارهم ، وأشار ياقوت إلى عدد من المؤلفين فى هذا الباب ، منهم أبو سعيد الأصمعى ، والحسن بن أحمد الهمدانى ، وأبو الأشعث الكندى ، وأبو سعيد السيرافى ، وأبو محمد الأسود الغندجاني ، وهشام بن محمد الكلبي الذى وقف له على كتاب سمّاه « اشتقاق البلدان » ، وغيرهم .

المرحلة الثانية : المعجمات الجغرافية

تمثل هذه المرحلة فترة ظهور المعجمات الجغرافية التي اعتمدت في جانب رئيسي منها على كُتب المرحلة السابقة . وتضمنت تصحيحاً وضبطاً للتراث السابق في هذا المجال ، ولم تقتصر تلك المعجمات على ضبط اسم الموضع فحسب ، بل تعدته إلى التعريف بذلك الموضع وتحديد مآله وذكر ساكنيه ، وهذا ما أعطى لتلك الكتب صفتها الجغرافية . ولم تكن تلك المعجمات خاصة بمواضع الجزيرة العربية فقط ، بل وردت فيها مواضع كثيرة أخرى في مختلف الأقطار الإسلامية لورودها في كتب التاريخ والأخبار أو لصلتها بالفتوح .

وكان من أوائل المعجمات الجغرافية « معجم ما استعجم » لأبى عبيد البكرى (ت ٤٩٦ هـ) الذي يعتبر أول معجم غير لغوي في أسماء المواضع يبنى على الترتيب « الألفبائي » الحديث . وظهر بعد معجم البكرى مجموعة من المعجمات التي التقت عند هدف واحد هو درء خطر التصحيف والتحريف عن أسماء الأعلام الجغرافية . ومن أمثلة ذلك كتاب « الجبال والأمكنة والمياه » لأبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري

(ت ٥٣٨ هـ) ، وكتاب « الأمكنة » لنصر ابن عبد الرحمن الإسكندري (ت ٥٦٠ هـ) ، وكتاب « الأماكن » لمحمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤ هـ) وكتاب « معجم البلدان » لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) . إضافة إلى معجمين آخرين هما « تقويم البلدان » لأبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ) و « الروض المعطار » للحميري (ت ٧٤٩ هـ) .

وإذا ما تركنا جانباً الترتيب الزمني لتأليف الكتب المذكورة ، فإننا يمكن أن نصنفها في ثلاث فئات واضحة :

أولاً : معجمات هدفت إلى بيان اتفاق الرسم واختلاف اللفظ الناشئ عن اختلاف الإعجام أو علامات الضبط ، وهي مقسمة إلى أبواب بحسب المواد المتفقة في الرسم ومرتبة وفق أولها في الترتيب الألفبائي ، فمثلاً في باب (ثبير وسُر) ورد هذا الباب في حرف الشاء ولم يرد في حرف السين ، ومثل ذلك يقال في باب (ثُرَيَّا ويُرْنَا) الذي يرد في حرف الشاء .

وقد سار على هذا المنهج معجمان رئيسان هما كتاب « الأمكنة والمياه والجبال والآثار » ونحوها ، المذكورة في الأخبار والأشعار » لأبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزاري الإسكندري

وكتاب «الأماكن» لمحمد بن موسى الحازمي .
وقد عاصر الحازمي نصرًا واستفاد كثيرًا من كتابه مادةً ومنهجًا ، إذ يتفق الكتابان في معظم النصوص اتفاقًا يكاد أن يكون تامًا الأمر الذي جعل ياقوت الحموي يتهم الحازمي بانتحال كتاب نصر واختلاسه . غير أن دراسة الشيخ حمد الجاسر لهذين الكتابين تنتهي إلى أنه رغم كون الكتابين يكادان يتفقان اتفاقًا حرفيًا إلا أن كتاب الحازمي يمتاز على كتاب نصر بأن قسمًا كبيرًا من المواضع أورد الحازمي تحديدها نقلًا عن علماء ذكر أسماءهم واستشهد بأشعار كثيرة ، واطلع على كتب كثيرة لا نجد لها في كتاب نصر ذكرًا ، ويتضح ذلك بصورة خاصة في أول الكتاب . أما كتاب نصر فله ميزة لا توجد في كتاب الحازمي فهو في آخر كل حرف من حروف الهجاء يسرد أسماء كثير من المواضع المبدوءة بذلك الحرف ويحدد مواقعها ، وهذا ما لا يوجد في كتاب الحازمي (ص : ١٦ مقدمة حمد الجاسر من كتاب الأماكن للحازمي) .

ولهذين الكتابين قيمة خاصة إذ يقدمان حصراً مبدئيًا وواضحًا لأسماء الأماكن التي قد

يدخلها التحريف أو يقع فيها التصحيف ، وهو منهج في ضبط أسماء الأعلام الجغرافية لا نجد له مثيلاً في الكتابات الأخرى التي جاءت فيما بعد في التراث العربي ، ولا يقتصر ما جاء في الكتابين على المواضع الواردة في الجزيرة العربية ، بل يتجاوز ذلك إلى المواضع التي لها ذكر في الفتوح في بلاد (مصر والشام وفارس ... وغيرها) أو يُنسب إليها بعض العلماء المشاهير ، ومثال ذلك نص الحازمي في باب شيز ، وشبر ، وسير :

أما الأول : بكسر الشين بعدها ياء تحتها نقطتان وآخره زاي ناحية بأذربيجان ، من فتوح المغيرة بن شعبة صلحًا ، يقال : منها كان زَرَادَشْتُ الذي يُقال : إنه كان نبي المجوس وقصة هذه الناحية أرميئة .

وأما الثاني : بفتح الشين والباء الموحدة المخففة وآخره راء : موضع من نواحي البحرين .

وأما الثالث : بفتح السين المهملة بعدها ياء تحتها نقطتان مشددة مكسورة : كَثِيبُ بين المدينة وَبَدْرٍ ، يُقال : هناك قَسَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بدر ، وقد يُخَالَفُ في لفظه .

ويلاحظ من هذا المثال بعض الاختلافات بين كتابي الحازمي ونصر ، فالأخير أورد هذا النص

ضمن باب شَبَر وشيز وَسَبَر ، وقد جاءت عبارة نصر مقتضبة لكنها وافية بالغرض . ونص الحازمي عن « سير » بالياء أصح من نصر الذي أوردها بالياء الموحدة التحتية ، وقد أكد ذلك الشيخ حمد الجاسر في حواشيه على كتاب الحازمي .

ثانياً - معجمات قُصد بها بيان ما اشترك لفظاً واختلف صقاً ويمثل هذا الجانب المعرفي في تسجيل الأعلام الجغرافية أهمية خاصة في إزالة الالتباس الذي يواجه القارئ نتيجة تشابه الأسماء . والكتاب الوحيد الذي وردنا في هذا السياق هو كتاب ياقوت الحموي « المشترك وضعاً والمفترق صقاً » انتحله من كتابه الكبير معجم البلدان ، ذكر فيه « ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطاً ووافق شكلاً ونقطاً واختلف مكاناً ومحلاً ، واختلف صقاً ومُحتلاً ... » وقد رتب ياقوت كتابه هذا على حروف المعجم ، ملتزماً ذلك من أول الكلمة ثم ما بعدها . ومثال ذلك :

« باب الزارة ثلاثة مواضع : بعد الألف راء : الزارة قرية كبيرة بالبحرين لها ذكر في الفتوح ، ومنها مَرزبان الزارة ، والزارة قرية

بالصعيد قرب قِفْط ، الزارة من قرى طرابلس الغرب منها إبراهيم الزراي ... » (ص : ٢٣٠) .

وهذا الأسلوب في ضبط الأعلام الجغرافية يوفر معرفة بالأعلام المكررة التي غالباً ما يؤدي الجهلُ بها إلى أخطاء علمية سواء ما يتعلق منها بالجانب الجغرافي أو نسبة بعض العلماء إلى غير أقاليمهم وغير ذلك من الالتباسات .

ثالثاً - معجمات للبلدان نهجت الترتيب الألفبائي المعروف في العصر الحديث ، فيبدأ المعجم بالهمزة والألف ثم الهمزة والباء ، وهكذا إلى انقضاء الحروف الثمانية والعشرين ، وقد سار على هذا النهج البكري ، والزمخشري ، وياقوت الحموي . وإذا ما تركنا كتب الزمخشري وأبي الفداء والحميري جانباً لأنها تعتنى بضبط المواضع على النحو الذي سار عليه البكري وياقوت وقصرنا كلامنا هنا على كتابي « معجم ما استعجم » و « معجم البلدان » ، فإننا نلاحظ الآتي :

معجم ما استعجم :

كان الغرض الذي دفع البكري إلى تأليف كتابه هو شيوع التصحيف في أسماء المواضع

بين الناس ، فلما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس ، أراد أن يفصح عنه ، بأن يذكر كل موضع مُبَيِّن البناء ، مُعْجَم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف (١) .

وأورد البكرى فى مقدمته أسماء المواضع التى يحدث فيها التصحيف عادةً ، منها نَاعِجَة وبَاعِجَة ، نُبْتَل وَثُبْتَل ، نَحْلَة وَنَحْلَة ، وما إلى ذلك .

وضرب الأمثلة على تصحيف علماء اللغة كالأصمعى وأبى عبيدة لأسماء المواضع ، وذكر من علماء الحديث يزيد بن هارون ، وأنه على إمامته فى الحديث وتقدمه فى العلم يصحف « جُمْدَان » وهو جبل بالحجاز بين قديد وعسفان من منازل بنى أسلم ، فيقول « جُنْدَان » بالنون ، وهو من المواضع الواردة فى الحديث (٢) .

منهجه فى تحديد الموضع :

لما كان الغرض من تأليف المعجم هو المحافظة على النطق الصحيح ومواضع الأعلام الجغرافية ، فإن ضبط الموضع - لغةً ومكاناً -

من أهم الأغراض التى اعتنى بها البكرى فى معجمه ، وهو فى هذا يلجأ إلى إحدى طريقتين :

(أ) التصريح بذكر بناء الكلمة ، نحو قوله « الْجَزَلَاء ، على وزن فَعْلَاء » .

(ب) التنبيه على الحروف المهملة والمعجمة بوحدة ، والمثناة والمثلثة والفوقية والتحتية ، نحو قوله « أُسَيْس : بضم أوله ، والياء المعجمة باثنتين من تحتها ، بعدها سين مهملة ، على لفظ تصغير أُس (٣) . ويعتنى البكرى بالضبط عناية كبيرة ، فيتتبع ضبط الموضع فى المصدر الذى يأخذ عنه ويشير إلى ذلك ، ففى رسم (دُورِم) - مثلاً - قال : « هكذا تكرر فى كتاب الهمدانى مضبوطاً » (٤) .

ويأتى بعد الضبط تحديد الموضع ، ويمكن أن نفرق بين عدة صور لتحديد الموضع فى معجم البكرى بخلاف معجم ياقوت الذى يكاد يسير على نظام واحد ، فالاسترسال فى أى موضع من المواضع عند ياقوت دليل على أهمية ذلك الموضع ولا يكون عادةً إلا عند ذكره المدن .

(١) البكرى : معجم ما استعجم ، (١ / ١) .

(٢) المرجع السابق ، (١ / ٣) .

(٣) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

(٤) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

ويمكن أن نميز بين نمطين في أسلوب تحديد
الموضع عند البكرى :

الأول : مواضع اقتصر على ضبطها دون أن
يتعرض لمكانها ، ومعظم هذه المواضع نقلها عن
ابن دريد ، ويقتصر تعريف البكرى لها على
قوله : « موضع ذكره ابن دريد ولم يحدده » ،
ويمكن اعتبارها من مشكلات البحث التي تدعو
من يأتي من بعده إلى متابعة الدراسة فيما
توقف فيه . وهذا ما فعله ياقوت - على سبيل
المثال - حينما توافرت لديه المعلومات عن
بعض هذه المواضع .

الثاني : مواضع ينسبها البكرى إلى الإقليم
الذي تقع فيه ، فيقول بأن ذلك الموضع في نجد
أو تهامة أو حصن بأرض اليمامة . أو ينسبها
إلى بلاد قبيلة معينة فيقول : « موضع في
ديار غطفان » أو « اسم واد لبنى سليم » ، ثم
يورد البكرى شاهداً أو أكثر من شواهد الشعر،
أو حادثة تاريخية ترتبط باسم ذلك الموقع .

معجم البلدان لياقوت الحموي :

ذكر ياقوت في مقدمته أن حافزه إلى تأليف
كتابه هو تلك المناظرة التي جرت له مع أحد
المحدثين في مجلس السمعاني عن « حباشة »

اسم موضع جاء في الحديث النبوي ، وهو سوق
من أسواق العرب في الجاهلية ، فقال ياقوت
أنه « حباشة » بضم الحاء ، أما الآخر فقال إنما
هو « حباشة » بالفتح ، وأصر على ذلك . ولما
تبين لياقوت صواب رأيه بعد طول بحث ألقى
في روعه افتقار العالم إلى كتاب يُعنى بتقييد
أسماء المواضع وضبطها .

ويختلف كتاب الحموي عن كتاب البكرى
في أن الأول قد اعتمد على طائفة كبيرة من
المصادر ، ولم يقتصر على كتب اللغة والأخبار
كما فعل البكرى . وقد أشار ياقوت إلى ثلاث
طبقات من المصادر :

أولها : طبقة القدماء أمثال أفلاطون
وفيثاغورس وبطليموس .

وثانيها : كتب طبقة الإسلاميين الذين
سلكوا نهج القدماء فاهتموا بذكر البلاد
والممالك وعينوا الطرق والمسالك ، مثل ابن
خرداذبة واليعقوبي والجيهاني والاصطخري
وابن حوقل والبشاري وغيرهم .

وثالثها : طبقة أهل الأدب الذين قصدوا الأماكن العربية والمنازل البدوية ، أمثال أبي سعيد الأصبغى ، وأبى عبيد السكونى والحسن بن أحمد الهمدانى .

وانتقد ياقوت كل طبقة من الطبقات الثلاث ، فالأولى وقف لهم منها على تصانيف عدة ، وجهل أكثر الأماكن التى ذكرت فيها ، وأبهم عليه أمرها وعدمت لتطاول الزمان فلا تعرف . والثانية أسماء الأماكن فى كتبهم مصحفة مغيرة قد مسخها من نسخها . وأما الثالثة فإنها وإن وجدت لها أصول مضبوطة فإنها غير مرتبة وشديدة الاختصار لأن قصدهم منها تصحيح الألفاظ .

ثم ذكر الحموى منهجه فى الكتاب بأنه قام بجمع ما شتته السابقون وأضاف إليه ما أهملوه ورتبه على حروف المعجم ، ووضع أهل اللغة المحكم ، وأبان عن كل حرف من الاسم هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور ، ثم ذكر اشتقاقه إن كان عربياً ، ومعناه إن أحاط به علماً إن كان أعجمياً ، وفى أى إقليم هو وأى شئ طالعه ، ومن بناه وأى بلد من المشهورات يجاوره ... إلخ .

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان (١ / ٧) .

(٢) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

لقد وصل ياقوت الحموى بهذا الفن الجغرافى فى القرن السابع الهجرى إلى غاية كبيرة من الكمال . ومع أن ياقوتاً لم يطلع على معجم البكرى ، رغم بحثه عنه وتطلبه له (١) إلا أن معجم البلدان احتوى معجمات كاملة ضمنها ياقوت فى كتابه ، من ذلك كتاب الزمخشري : « الجبال والمياه والأمكنة » ، وكتاب « الأمكنة » لنصر بن عبد الرحمن الإسكندري ، و « الأماكن » لأبى بكر محمد ابن موسى الحازمى ، كما أفاد من كتاب « تهذيب اللغة » للأزهري ، ونوادير أبى زيد الأعرابى ، وغيرهما من أصحاب اللغة .

وبالمقارنة بين معجمى البكرى وياقوت ، يمكن أن نخرج ببعض الملاحظات :

١ - كتب البكرى كتابه معتمداً على ما بين يديه من الكتب ، وكان احتمال الخطأ فى معجمه يتفق مع التصحيف أو التحريف الذى لا يخلو منه كتاب ، ومن تلك التصحيفات ما يقود إلى أخطاء أخرى كقوله أن « بَارِق على وزن فاعل من برق : جبل بالسواد قريب من الكوفة » وهو خطأ ، فبارق جبل بالسراة

وعندما صحف السراة فقال السواد أضاف الكوفة حتى يستقيم المعنى (٢). وقد نبهني أستاذنا الشيخ حمد الجاسر إلى كثير من أسماء الأعلام الجغرافية وردت مصحفة ، منها

: آنفة = آنفة (ص : ١٤) (١)

الأيسر = الأنسر (ص : ٩٧)

بديع = يديع (ص : ٢٣٢)

بق = نفء (ص : ٢٦٣)

بنيان = بنبان (ص : ٢٨١)

وقد فطن القدماء إلى الأخطاء الواردة في كتاب البكرى ، فتعرض السهيلي في « الروض الأنف » للكثير من تلك الأخطاء ، وذكر ابن دحية (ت ٦٣٣ هـ) في ترجمته لأبى الحكم على بن محمد بن عبد الملك اللخمي أنه أخذ عنه استدراكه على الوزير أبى عبيد البكرى في معجم ما استعجم وذلك نحو من أربعئة موضع (٢) .

ولا نريد أن نبرئ معجم ياقوت الحموى من أخطاء التصحيف ، وبعض تلك الأخطاء سبق

أن صوبها البكرى في معجمه ، مثال ذلك قول ياقوت : « قراضم » بالضم ، وبعد الألف ضاد معجمة وميم ، يقال : قرضت الشيء أو قطعته وهو اسم موضع بالمدينة (٣) .

أما البكرى ، فذكر أن ذلك الموضع بين المشلل والخيمتين ، وقال « قال الهجرى : وكنا نرويه قراضم بالقاف ، حتى سألت أعربياً عن تلك الناحية ، فقال قراضم بالفاء عندنا ، ووصف الموضع » (٤) .

غير أن أخطاء ياقوت في معجمه أقل بكثير من أخطاء البكرى ، فالرحلات التى قام بها ياقوت قد قللت إلى حد كبير من خطر التصحيف ، وقد رحل ياقوت إلى الشام ومصر وتبريز ونيسابور إلى أن بلغ مرو ، فأتاحت له تلك الرحلات تحقيق أسماء معجمه على الطبيعة .

٢ - استعان ياقوت بعدد كبير من كتب الجغرافيا اليونانية والعربية لم تنهياً للبكرى في فترة انشغاله بعمل المعجم ، ولعل اقتصار الأخير على ما ورد في أخبار العرب وأشعارهم

(١) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

(٢) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

(٣) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

(٤) معجم ما استعجم : (١ / ١٥٢) .

من أسماء المواضع ، وهو الذى كُثِفَ المادة الجغرافية الخاصة بالجزيرة العربية دون غيرها من المواضع ، حتى اضطر البكرى إلى التمهيد لمعجمه بفصل خاص بجغرافية الجزيرة العربية ، فبدأ معجم البكرى كأنه معجم خاص بالجزيرة فقط .

أما ياقوت فإن معجمه عامٌ شمل أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الإسلامية ، وأجزاء أخرى خارجة عن بلاد الإسلام كبلاد الروم والصين .

٣ - عنصر التوازن مفتقد فى معجم البكرى ، فقد تناول بالتفصيل الأجزاء العربية من جزيرة العرب كالحجاز وتهامة والأجزاء الشمالية الغربية من نجد ، أما الأجزاء الأخرى من الجزيرة فنصيبها ضئيل قياساً بتلك المناطق .

٤ - يركز البكرى على مناهل المياه ومنازل العرب الواردة فى الشعر ، أما ياقوت ، فإنه يركز على المدن ، فيذكر التعليل الأسطورى لنشأة المدينة ، ويذكر أحياناً خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما المدينة ، ومن اشتهر بها من العلماء وما قيل فيها من الشعر،

وخصائصها المميزة ، وقد يستطرد فى الوصف فى المواضع والمدن بحسب أهمية ذلك الموضع ، فالصين مثلاً عندما تكلم عنها نقل رسالة كاملة كان أبو دلف الخزرجى كتبها عن الصين بعد رحلته إليها فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

المرحلة الثالثة : الدراسات والمعجمات الحديثة

مضت بعد ياقوت الحموى أجيال متعاقبة دُرِسَتْ خلالها بلاد أو انتقل اسمها إلى مكان مجاور غير المكان الأصيل ، أو ردمتها الرياح السافية ، أو خُربت بفعل الحروب ونوائب الدهر . وتغيرت بعض الطرق والدروب ، وهاجر كثير من السكان من مواطنهم إلى مواطن جديدةٍ أطلقوا عليها أسماء بعض أماكنهم القديمة . المحببة إليهم .

وفى العصر الحديث برزت مجموعة من العوامل التى ساعدت على مزيد من التغيير والتحريف والنسيان لكثير من أسماء الأعلام الجغرافية القديمة ، نورد فيما يلى بعضاً منها :

١ - إن التحضر و التوسع المدنى الذى نشاهده فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ،

والعالم العربى بشكل خاص قد أدى إلى انضواء أعلام جغرافية كثيرة كانت سابقاً خارج إطار المدن ، فأصبحت الآن أحياء من تلك المدن واتخذ الكثير من تلك المواضع أسماء جديدة بعيدة كل البعد عن الأسماء القديمة التى لم يبق منها سوى أعلام قليلة جداً أصبحت تُطلق على الأحياء . ومدينتا الرياض والقاهرة مثلان بارزان فى الوطن العربى على التوسع العمرانى الذى ضم فى إطاره العديد من الأعلام الجغرافية القديمة التى اختفت معالمها اليوم .

٢ - أدت التغيرات الكبيرة فى اقتصاديات الدول الصحراوية ، وبخاصة فى شبه الجزيرة العربية والصحراء الكبرى إلى هجرة أبناء البادية إلى الحواضر العربية منها على أمل الاستفادة من الرعاية والخدمات المبذولة بسخاء لأبناء المدن . وفقدنا بانتقالهم تراثاً مهماً فقد كانوا هم البقية الذين حافظوا على المعارف المختلفة المتعلقة بالبادية مجتمعاً وأرضاً ومناخاً ، وكانوا هم الذين يمكن أن يميزوا بين أسماء الأعلام الجغرافية فى الصحراء ، فهم يدركون بخبرتهم الطويلة ومعايشتهم لتلك البيئة الفروق الضئيلة بين منطقة وأخرى فى

البادية المترامية الأطراف ، مما لا يدركه سكان المدن ، وقد يكون ذلك الاختلاف ناشئاً عن تغير فى نوع النبات أو انتشار أحياء معينة أو تغير طفيف فى تضاريس الأرض أو غير ذلك .

٣ - المحاولات المقصودة ذات الدوافع الدينية أو السياسية لطمس بعض المعالم ذات المدلول الدينى أو الوطنى ، ونجد المثال الصارخ على ذلك استبدال اليهود لكثير من أسماء الأعلام الجغرافية القديمة بفلسطين بأسماء عبرية . ومحاولات الأنظمة السياسية فى بعض الدول الإسلامية تغيير الأسماء التى لها علاقة بتراث الإسلام وحضارته فى تلك الدول .

ومنذ بداية الأربعينيات بدأت جهود جديدة فى الجزيرة العربية هدفت إلى ضبط الأعلام الجغرافية وتصحيح ما وقع فيه القدماء من أوهام ، والاجتهاد فى تحقيق مواقع تلك الأعلام عن طريق الرحلة والبحث المتواصل ، وتمثل تلك الجهود فى نمطين من الأعمال :

(١) الدراسات والكتب :

كانت بداية تلك الجهود على يد العلامة الشيخ حمد الجاسر - أطل الله عمره - ويتمثل ذلك أولاً فيما نشره من أبحاث فى جريدة « أم القرى » ومجلة « المنهل » منذ

عام ١٩٤١ م . وفى عام ١٣٦٧ هـ نشر فى جريدة الفتح التى يحررها المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب وفى ثلاثة أعداد متوالية (٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦) نقداً قيماً للطبعة التى حققها المرحوم مصطفى السقا من كتاب «معجم ما استعجم من أسماء المواضع» وتتابعته جهوده فى هذا المضمار فانتظمت أول مجلة عربية تختص بشكل أساسى فى قضية تحديد المواضع فى شبه الجزيرة العربية ، وهى مجلة « العرب » التى تحفل مجلداتها التى تربو الآن على ثلاثين مجلداً بمعلومات فريدة عن المواضع فى داخل الجزيرة العربية ، ثم قام بالتعاون مع تلامذته ومحبيه بإصدار مشروع «المعجم الجغرافى للمملكة العربية السعودية» وقد عانى المسهمون فى هذا المعجم مشقة وجهداً لا يخفى على من سلك هذا الطريق الصعب ، فقد قاموا بجمع مؤلفاتهم اعتماداً على مشاهداتهم الخاصة فى رحلاتهم المتكررة إلى المناطق التى تحدثوا عنها ، وقد خبر الكاتب مصاعب مثل تلك الرحلات فى داخل الجزيرة العربية وعرف عن قرب مقدار ما قاسوه من وعورة الطرق وانقطاع السبل قبل أن تمتد معالم الحضارة الحديثة فى المملكة العربية السعودية إلى أرجائها المختلفة ، ويضاف إلى ذلك ما لاقوه من عناء البحث فى المصادر

القديمة المتعلقة بالمواضع التى حددوها . وهم لم يقتصروا فى البحث عن الموضع فى المعاجم الجغرافية فقط ، بل تتبعوه فى كتب اللغة وشروح الشعر ، ووجدوا هناك ثروة أخرى لم تتضمنها المعاجم المتخصصة . وقد أورد الشيخ حمد الجاسر فى مقدمته للمنطقة الشرقية من المعجم الجغرافى أن فى كتابى « التكملة » للإمام الصاغانى مواضع كثيرة لم يتضمنها معجم البلدان ، منها « بيسان » وادٍ قريب من الطائف ، و « خُمُومَة » جبل يُطل على بلدة جُرش القديمة ببلاد عسير ، و « دُغْبَج » القريب من مرَّان .

ويقول الشيخ حمد : إن غرض المعجم الجغرافى لا يقتصر على تحديد الموضع المعروف ، بل يمتد إلى دراسة المواضع التى ورد ذكرها فى الأخبار أو الأشعار أو فى مؤلفات المتقدمين ، وهذا جانب مهم لا يصح إغفاله ، فالأمة العربية أحوج ما تكون إلى ربط حاضرها بماضيها . وكثير من النصوص القديمة فى الأدب أو الشعر أو التاريخ لا يمكن فهمها فهماً تاماً دون معرفة ما يتصل بها من بيئة ، وكيف نفهم الوقائع التاريخية كالغزوات النبوية ، ووقعات حروب الردة إذا لم نعرف المواضع التى حدثت تلك الغزوات والوقعات فيها ؟! . وكيف نتصور حياة أى شاعر من الشعراء

المتقدمين تصوراً تاماً دون معرفة مراع
صباه ومراتع هواه .

ويورد الجاسر والمسهمون الآخرون فى المعجم
أمثلة كثيرة على ما وقع فيه المتقدمون
والمحدثون من أوهام سببها جهلهم بتلك المواقع
واعتمادهم على الرواية دون المعاينة
والمشاهدة .

● وما صدر من « المعجم الجغرافى للبلاد
العربية السعودية » ما يلى :

● حمد الجاسر : المنطقة الشرقية : البحرين
قديماً ، الرياض ١٩٧٩

حمد الجاسر : شمال المملكة : إمارات حائل
والجوف وتبوك وعرعر والقريات ،
الرياض ١٩٧٧

سعد بن جنيذل : عالية نجد : إمارات
الدوادمى والقويعية والخاصرة وعفيف ووادى
الدواسر وغيرها ، الرياض ١٩٦٨

● عبد الله بن خميس : معجم اليمامة ،
الرياض ١٩٧٨

● على بن صالح الزهرانى : بلاد غامد وزهران ،
الرياض ١٩٧١

● عمر غرامة العمرى : بلاد بارق ،
جدة ١٩٧٩

● عمر غرامة العمرى : بلاد رجال الحجر ،
الرياض ١٩٧٩

● محمد بن أحمد العقيلي : مقاطعة جازان ،
المخلاف السليمانى ، الرياض ١٩٧٩

محمد بن ناصر العبودى : بلاد القصيم ،
الرياض ١٩٧٩

ويزيد عدد مجلدات هذا المعجم على
عشرين مجلداً تُعدُّ فى مجملها إضافة عالية
القيمة للمكتبة العربية ، ومصدراً لا بد من
الرجوع إليه لكل باحث فى التراث العربى
القديم أدباً وتاريخاً .

وقد عُرِّزَ هذا المعجم بمجموعة كبيرة من
الدراسات التى نُشر معظمها فى مجلة
« العرب » بالإضافة إلى الكتب التى وضعها
الشيخ حمد الجاسر عن رحلاته فى شمال غرب
الجزيرة العربية وفى بلاد غامد وزهران وغيرها .
وما دمننا بصدد الحديث عن المعجمات التى
تناولت المواضع ، فإننا لا بد أن نشير إلى
معجمين مهمين لم يصدرا ضمن سلسلة
الجغرافى للبلاد العربية السعودية ، وهما :

١ - معجم معالم الحجاز الذى وضعه عاتق
ابن غيث البلادى فى عشرة مجلدات ، وصدر

فى مكة المكرمة ابتداء من عام ١٩٧٨ . وقد
قضى البلادى سبع سنوات فى الإعداد لكتابه
من خلال الرحلات التى زادت على ستين رحلة ،
فى نواحي الحجاز ، وذكر أنه كان يحرص
على تحقيق الأماكن التاريخية ، ويرى أن
أكثرها ما يزال على اسمه القديم وبعضها قد
تغير كلياً ، وأما المواضع التى لم يغير عليها
فهى القليل .

وتكلم البلادى عن الأخطاء التى وقع فيها
الأقدمون ، وذكر أن عرام بن الأصبغ السلمى
كتب رسالته عن أسماء جبال تهامة وسكانها ،
وهو بعيد عن الحجاز فى بلاد فارس ، وكان
يأخذ مادته من الأعراب الذين اتخذ بعضهم -
فى تلك الأيام - من الرواية حرفةً يتعاش
منها ؛ فجاءت رسالته مليئة بالأغلاط مختلفة
التعابير غير واضحة التحديدات (ص : ٦) .

وأشار فى كتابه إلى إحدى المشكلات التى
تعرض لها الأعلام الجغرافية فى الحجاز ،
وربما كان هذا أيضاً فى مناطق أخرى من شبه
الجزيرة العربية . فأمرء النواحي الصغيرة
يعمدون إلى إعطاء أسماء شعاب وآبار وآكام
يسمونها قرى ويحصون لها سكاناً رجاء أن

تكبر فى نظر المسئولين فى الدولة فيعيرونها
اهتماماً يفضى إلى المأرب المنشود (ص : ٧) .
والمعجم بشكل عام يسير على المنهج نفسه
الذى سار عليه أصحاب المعجم الجغرافى للبلاد
العربية السعودية ، إلا أن الأخير أكثر تفصيلاً
فى مراجعة اسم الموضع سواء فى المعاجم
الجغرافية أو فى كتب الأدب وشروح الشعر ،
أما البلادى فأكثر اعتماده على ياقوت الحموى ،
إضافة إلى ما قام به من رحلات ميدانية فى
مناطق الحجاز المختلفة .

٢ - مجموع بلدان اليمن وقبائلها جمعه
المرحوم القاضى محمد بن أحمد الحجرى
اليمانى ، المتوفى عام ١٩٦٠ ، وحققه القاضى
إسماعيل بن على الأكويع . وقد صدر من هذا
الكتاب جزآن ينتهيان بحرف الزاى ، وذكر أنه
هدفه من تأليف هذا الكتاب هو للمساعدة فى
معرفة المواضع المساعدة المتصلة ببلاد اليمن
الواردة فى كتب الأخبار والسير ، والتعريف
بمواضع القرى الخاربة التى لها ذكر فى التاريخ
وأشعار العرب ، كبدة أثافت وبراقش ومعين
والثجة وغيرها ، وبيان المحلات والمخاليف
التي تبدلت أسماؤها ، وكذلك معرفة البلدان
المتفقة الأسماء المختلفة الجهات كظفار داود فى
بلاد حاشد وظفار يحصب عاصمة التبابعة فى

بلاد يريم ، وظفار الحبوضى على ساحل
بحر العرب .

ولابد من الإشارة هنا إلى جهد آخر لا يقل
أهمية عن الجهود المذكورة فقد تضمن الكثير
من المعلومات النافعة التى كانت مادة للحوار
فى أمر الموضع فى شبه الجزيرة العربية ،
ويتمثل ذلك فى عملين للشيخ محمد بن عبد
الله بن بليهد ، أولهما كتاب « صحيح الأخبار
عما فى بلاد العرب من الآثار » الذى نُشر فى
القاهرة فى خمسة مجلدات عام ١٩٥١ ،
ويختص بدراسة المواقع الواردة فى المعلقات ،
وكتاب « ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته
وبقائه » وقد نُشر فى الرياض بعد وفاة المؤلف
رحمه الله (بدون تاريخ) ويسير على النمط
الذى سار عليه ياقوت فى « المشترك وضعاً
والمختلف صقاً » .

وقد تركنا الحديث عن هذين الكتابين
لكونهما لا يدخلان بشكل مباشر فى إطار
المعجمات الجغرافية المنظمة منهجياً كما هو
الحال بالنسبة للمعجمات المذكورة .

وقد أشار الحجرى فى كتابه أيضاً إلى

طائفة من أوهام القدماء فى تحديد الموضع ،
كما فعل من سبقه .

(٢) الخرائط :

يدخل فى نطاق الجهود الحديثة لتحديد
وضبط الأعلام الجغرافية فى جزيرة العرب ،
ذلك الجهد الذى قامت به مصلحة المساحة
الجيوولوجية الأمريكية وشركة الزيت العربية
الأمريكية (أرامكو) تحت رعاية المملكة
العربية السعودية ووزارة الخارجية الأمريكية ،
فقد نشرت ابتداء من عام ١٩٥٦ مجموعتين
من الخرائط الجيوولوجية والجغرافية بمقياس
١ / ٥٠٠,٠٠٠ غطت معظم شبه الجزيرة
العربية فيما عدا أجزاء من اليمن وعدن وعمان .
ثم نشرت نفس الهيئة فى سنة ١٩٦٣ خريطة
جيوولوجية بمقياس ١ / ٢,٠٠٠,٠٠٠
اشتملت على كل شبه الجزيرة العربية .

وقد صدرت الخرائط المذكورة باللغتين
العربية والإنجليزية ، وتتضمن الملامح
الطوبوغرافية العامة كالجبال والهضاب والأودية
وغيرها من معالم السطح ، فضلاً عن أسماء
المدن والقرى وغيرها من الأعلام الجغرافية .

ومع أهمية هذا العمل الكبير الذى استغرق

سنوات طويلة من العمل الميداني إلا أنه قد وقعت في تلك الخرائط العديد من الأخطاء ، ويعود ذلك لعدة أسباب منها أن تلك الخرائط كانت تُكتب بالأحرف اللاتينية ثم تُترجم إلى العربية ومنها ما هو ناشئ عن اختلاف اللهجات بين أرجاء شبه الجزيرة العربية ، إضافة إلى التصحيف وأخطاء الطباعة .

ومن أمثلة تلك الأخطاء :

جبل الضورين حرفت إلى جبل الزورين
(منطقة عسير)

كرم حرفت إلى كروم (منطقة عسير)

عَرْدان حرفت إلى الأردن (نجد الجنوبي)

● ضرغد حرفت إلى زرغط (الحجاز الشمالي الشرقي)

وهناك أمثلة كثيرة على التحريف درسها بعناية الدكتور أسعد عبيد الأستاذ بقسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود ، وأصدر مجموعة من الدراسات لبحث هذه القضية ، وانتهى إلى وضع معجم سمّاه معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية مقاس ١ / ٥٠٠,٠٠٠ كان من أهم

أهدافه تصحيح أخطاء الخرائط ، ومراجعة كل اسم في الخرائط على أحد الكتب التي تعنى بأسماء الأماكن في المملكة ، وقد تبين له أن عدد الأسماء الواردة في الخرائط ٥١٣١ اسماً يطابق ما في الكتب منها ٢٢٣٨ اسماً ، وتختلف عما في الكتب ١١٣١٦ اسماً ، أما بقية الأسماء وعددها ١٥٧٧ اسماً فليس له ذكر في الكتب المذكورة .

ويعتبر هذا الجهد القيّم متمماً لجهود الشيخ حمد الجاسر وصحبه وجهود المنشئين للخرائط التفصيلية ، إذ يسرد الكتاب قائمة بأسماء الأعلام الجغرافية مع بيان اختلاف رسمها عن الخريطة إن وجد ، ثم الموقع الفلكي والصفة الطبوغرافية ورقم اللوحة من مجموعة الخرائط وأخيراً المصدر أو المصادر التي استند إليها في مراجعة الاسم الجغرافي .

خاتمة

استعرضت الدراسة السابقة الجهود العربية في ضبط الأعلام الجغرافية في شبه الجزيرة العربية ، منذ عصر التدوين إلى الوقت الحاضر. ومن الواضح أن تلك الجهود سابقة على الاهتمامات الدولية الخاصة بدراسة كيفية توحيد

كتابة أسماء الأعلام الجغرافية فى جميع خرائط العالم بطريقة دولية موحدة «قدر الإمكان» . فقد أصدر المجلس الاقتصادى والاجتماعى القرار رقم ٦٠٠ / ٤ أ يرجو فيه الأمين العام للأمم المتحدة أن يضع بالتعاون مع المنظمات الدولية ذات العلاقة برنامجاً يهدف إلى تقرير أسلوب موحد لكتابة الأسماء الجغرافية ، وانتظم فى جنيف عام ١٩٦٧ أول مؤتمر دولى تحت عنوان « تنميط الأسماء الجغرافية » تضمن قراراً ينص على أن يكون رسم الاسم الجغرافى متفقاً بقدر الإمكان مع قواعد الإملاء المتبعة فى الدولة المعنية .

وإذا كان ذلك الجهد الدولى يهدف أساساً إلى المحافظة على اسم العلم الجغرافى ووضع الطريقة المناسبة لتهجئته وفق نطقه المحلى بما يفيد الثقافة والمعرفة فى هذا المجال ، فإن ما قام به العرب عبر تاريخهم إلى يومنا هذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفهم طبيعة المواطن التى انتشرت فيها الحضارة العربية والإسلامية والطرق التى سلكها الإسلام فى استفاضته الأولى من جزيرة العرب إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فضلاً عن تصور البيئة التى نشأ فيها الشعر والأدب العربى ، فعملية

تحديد المواضع الجغرافية وضبطها وتحقيق ما ورد فى النصوص القديمة عنها ، ثم إدراج كل ذلك فى خرائط جغرافية تفصيلية ، يجعل من اليسير تتبع الأحداث وتحليلها بصورة أدق . نظراً لأن كثيراً من كتب التاريخ المعاصرة تحوى مبالغات أو أوهاماً سببها نقص فى التصور الجغرافى لمنطقة البحث .

وننتهى فى هذه الدراسة المسحية إلى توصيتين نراهما مهمتين فى هذا الصدد :

أولهما - إعداد مشروع يتولى تجميع الجهود المتناثرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى الهادفة إلى دراسة الأعلام الجغرافية القديمة التى لها صلة بحضارة الإسلام وإعداد معجم جغرافى شامل ييسر السبيل أمام الباحثين ، ويقدم لهم المعلومات المناسبة عن كل علم جغرافى سبق وروده فى كتاب من كتب الحضارة العربية .

ولا ننسى أن هناك بعض الجهود القيّمة التى تمثل أساساً طيباً لهذا المعجم ، مثل كتاب « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » للمرحوم محمد رمزى ، وكتاب « تاريخ تركستان من الفتح الإسلامى إلى الغزو المغولى »

لبارتولد ، وتحقيقات مقبول أحمد عن المواضع التي أوردتها الإدريسي عن الهند ، وغيرها .

إن مثل هذا العمل العلمي الكبير سوف يخدم الدراسات الأدبية والتاريخية والأثرية . كما يخدم الدارسين في حقل علم الزلازل للتعرف على الأعلام الدارسة بفعل هذه الظاهرة الجغرافية .

ثانيتهما - ضرورة الاستفادة من أسماء الأعلام الجغرافية العربية في وضع المصطلحات الخاصة بأشكال سطح الأرض ، فالأسماء المذكورة تعبر غالباً عن ظاهرة أو صورة معينة ، فاللغة العربية لغة بيئية كتب بها العربي ما شاهده بدقة لا نظير لها في اللغات الأخرى .

ويمكننا من خلال تتبع أسماء الأعلام الجغرافية المتكررة ومدلولاتها في شبه الجزيرة العربية أن نكشف عن مصطلح عربي لم يستخدمه الكتّاب المعاصرون بلفظه العربي على الرغم من العلاقة الوثيقة بين اللفظ وطبيعة المكان ، واستبدلوا به مصطلحاً أجنبياً فما كان يمكن للفظ « كويستا » - على سبيل المثال - أن يشيع استخدامه لو كان إقرار هذا اللفظ الدخيل جاء مبنياً على دراسة علمية

ميدانية ، ومسح للأعلام الجغرافية في المنطقة العربية وتحليل معانيها ، فهذا اللفظ يدل على ظاهرة منتشرة في صحارينا العربية ، يطلق عليها اسم « الجالات » مفردتها « جال » وهي عبارة عن حواف صخرية رسوبية ناهضة ذات جروف رأسية وعرة من جانب وانحدار لطيف من الجانب الآخر . ولفظ « جال » الذي استخدمه السكان هناك منذ مئات السنين هو لفظٌ ذو جرس عربي سهل في النطق وفي التصريف . وهو مشتق من البناء اللغوي العربي . فقد أطلق العرب على جدار البئر وجانبى الوادى وشاطئ البحر اسم « الجال » بمعنى الحافة ، ومن هنا جاء استخدام أهل الجزيرة العربية لهذا المصطلح ؛ لأن أهم ما يميز « الكويستا » هو جانبها الوعر الذى هو أشبه بالحافة ، ولذلك شاع لفظ « الجال » للدلالة على هذه الظاهرة في البيئة العربية . وثمة أمثلة كثيرة تؤيد أهمية ما ذهبنا إليه من استخدام المصطلحات العربية في هذا المجال . ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق .

عبد الله يوسف الغنيم

عضو المجمع المراسل

من الكويت

أعلام الجغرافيا في موريتانيا ومكانتها عند شعرائهم

للأستاذ الدكتور محمد المختار ولد إيباه

١ - زمان يمر ومكان مستقر :

غير أن هذه المقولة لا تعنى فك ارتباط بين الزمان والمكان ، ولعل أكثر من يحس هذا الارتباط ، هم الشعراء الذين تهتز مشاعرهم كلما وقفوا على المواضيع التى قضوا فيها فتراتٍ من حياتهم ، فنراهم يخاطبونها بالتحية والسلام ، ويسألونها من مُتدِيرِها ، « والدار لو كلمتهم ذات أخبار » .

يحيط بالإنسان فى حياته إطاران ، هما الزمان والمكان . يشعر بالزمان وهو يفر بين يديه ، لا تتوقف ساعاته ولا تغير وجهتها ، تمضى سهامها مسرعة تحمل معها ماضيا ولى بغير رجعة ، وتترك أسئلة ، يستحيل الجواب عنها حول مستقبل الأيام .

لكنها تستعجم ، وتواجههم بصمت يبلغ أوجه فيما يرمز إليه أبو الهول من تعبیر صامت رهيب وأمام هذا الصمت ، يلوذ الشاعر بالبكاء ، مثل ما بكى ابن حذام ، وامرؤ القيس بين الدخول وخومل وزهير بن أبى سلمى بين الرسّ والرسييس وعاقل ، ومن اتبع طريقهم مثل ذى الرمة وجريير بن الخطفى .

٢ - حب الوطن من الإيمان :

ثم لم يقتصر هذا الحب والحنين على الشعراء ، فكان من المأثور أن حب الوطن من الإيمان ، ونرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام اشتاق إلى رحاب مكة لما أخبره أصيل الغفارى

أما المكان فإنه يظل ماثلا أمام أعيننا ، ثابتا تحت أقدامنا ، وكأنه يحاول أن يسعفنا باستعادة ذكريات الماضى الذى بقى مستودعا لها ، ومع ما لذلك من تحرك وجريان ، وما لهذا من سكون وثبات ، فإن بينهما صلة وثيقة أوحى لبعض العلماء المحدثين ، بنظرية النسبية المحدودة ، التى لم تر فى الزمان سوى بُعدٍ رابعٍ للمكان ، ويعتقد أصحابها أن فى إمكاننا أن نطوى صفحات الزمان حينما نقترّب من السير بسرعة انتشار الضياء ، لكن بعض الفلاسفة سخر من هذا الرأى قائلا " إنها ليست الطريقة المثلى لمكافحة الشيخوخة " .

(أو الهذلى) أنه تركها وقد اخضرت جنباتها
وابيضت بطحاؤها ، وأينق إذخرها ، وانتشر
سلمها فقال له صلى الله عليه وسلم : حسبك
يا أصيل لا تخزنا ودع القلوب تقر .

وكان بلال بن حمامة يتشوق إلى مكة ،
وينشد قول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة

بواد وحولى إذ خر وجليل

وهل أرين يوما مياه مجنة

وهل يبدون لى شامت وطفيل

وتذكرنا هذه الأبيات بمقطوعة لشاعر
شنقيطى عرف بلقب بـفَمَيْن ، بحنينه إلى
"تاركة" حيث يقول :

أحن إلى ترقى ووادى أضائها

وهل لى إلى وادى الأضاء سبيل

وهل أرين أنيا شَوَاكَ وقد بدا

من أهلى مقيم عنده ونزول

رسوم بتنيافيل منهم محيلة

حنينى إلى أيامهن طويل

وهذا ولم تك العواطف الشعرية أو الوطنية
هى وحدها التى حملت العرب والمسلمين على

العناية بالأعلام الجغرافية فقد عنوا ، كما هو
معلوم ، بالخطط والمسالك ، وطرق الحج
والقوافل ، والمناهل ، والحواضر ، فكتبوا
المؤلفات العلمية فى هذا المجال .

فرسم الشريف الإدريسى صورة الأرض ،
وألّف الهمدانى إكليله ووصف جزيرة العرب ،
ودون ياقوت الحموى معجمه للبلدان الذى كان
بمثابة موسوعة أدبية متميزة ، ووضع المقرئى
خططه المشهورة ، والبكرى مسالكه .

وتواصل هذا العمل عند العلماء المعاصرين
أمثال العلامة حمد الجاسر ، وعبد الله بن
خميس فى المشرق ، ومحمد حجي ود . أحمد
توفيق فى المغرب .

٣ - بعض ما كُتِبَ عن الأعلام الجغرافية فى موريتانيا :

وفيما يخص موريتانيا ، فإن أعلامها
الجغرافية ما زالت تحتاج إلى مزيد من التعريف
على مستوى العالم العربى ، وقد كُتِبَ عنها
إلى الآن ثلاثة كتب مطبوعة ، أولها كتاب
الوسيط فى تاريخ أدباء شنقيط ، ومؤلفه أحمد
ابن الأمين الذى احتضنته القاهرة طيلة عقدين
من الزمن ، استطاع خلالهما أن يغتنم فرصة

المناخ الثقافي في مصر المعطاء ، فآلف مصنفاته المشهورة في اللغة والأدب ، وقد ذيل كتابه المعروف بالوسيط في تراجم أدباء شنقيط بقسم أسماه : «الكلام على شنقيط تخطيطها» وسنقدم عنه ملخصا في هذه الورقة .

والكتاب الثاني هو كتاب إخبار الأخبار بأخبار الآبار ، للشاعر محمد بن أحمد يوره الديمانى ، وقد اقتصر فيه على منطقة "إيكيدى" وذكر أن معناه بالبربرية الأرض ذات الآبار اللينة التربة، والبعيدة الماء وقدم له بنبذة عن سكان "إيكيدى" من بنى المغفرة من بنى حسان واعتاد أن يفسر معانى أسماء المواضع التى ذكرها، وهى فى أغلبها من لغة صنهاجة- والملاحظ أن أكثرها يبتدأ "تن" إذا كان المكان مؤنثا مثل "تنشكيل" أو "تنيافيل" و "تندكسمى" ، أو بـ "إن" إذا كان المكان مذكرا مثل بـ "تن" مثل إنزمد ، اندومرى ، انواكشط ، وقسرة بالأصلم .

وكلما ذكر موضعا استطرد ما اشتهر به ، من ذكر فى الشعر ، أو وجود مدفن مشهور ، أو وقعة من أيام الحروب بين السكان .

ففى كلامه عن تَنِيَّاشِلْ ، عربها بـ"ذات الحى" وأتى بأبيات لعبد الله بن الشين الديمانى ، من نط ما كان يردده بلال ، وبوفمين وهى :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
وللنفس بين المأمنين ثلوج
وهل لى بذات الحى عيش ألد

منازلنا قدما وحيث نروج
وفى معرض حديثه عن موضع "دمان" جاء بخبر الحرب بين أبناء أحمد بن دمان ، وأبناء دمان ، وعن الوقعة المشهورة فى هذا المكان .

وفى كلامه عن "انتفاشين" قال إنها تعنى بالبربرية « ذو الكثيب الأبيض » وأن بها مقبرة عظيمة . فيها العلامة النظامة أحمد فال ابن محمد فال اليعقوبى .

وقد سلك العلامة المؤرخ والشاعر الأديب المرحوم المختار بن حامد ، نفس المنهج فى كتاب "جغرافية موريتانيا" تناول فيه الأعلام الجغرافية إلا أن كتابه شمل موريتانيا كلها ، وبدأه بأنساب جميع قبائلها وجغرافيتها مركزاً على التنظيم الإدارى الحالى ، ثم تحدث فى كل محافظة عن أقسامها الطبيعية ومدنها وقراها، ومراكزها الإدارية ، ولقد أفاد من ما كتب ابن أحمد يورى وابن الأمين ، معتمدا الضوابط الثلاثة التى ينتقل المكان بسببها عن مجرد اسم

معروف محليا إلى درجة علم جغرافية معروف إقليمياً أو عالمياً . ونذكر بضوابط التحويل ، وهى الشهرة فى الأدب ، أو بالوقائع التاريخية ، أو بمقابر العظماء .

وفيما يلى ملخص عن ما كتبه ابن الأمين .

٤ - ملخص تخطيط شنقيط عند ابن الأمين :

لقد قلنا إن أول محاولة لتدوين الأعلام الجغرافية هى التى قام بها أحمد ابن الأمين فى كتاب الوسيط ، وتحدث فيها عن القطر الواقع فى أطراف العالم العربى ، والذى اشتهر ببلاد شنقيط .

فبيّن حدود البلاد ومناطقها الطبيعية وفى كل منطقة ذكر ما اشتهر من الأماكن ، وما عرفت به من وقائع فى الحروب ، أو أقوال الشعراء فيها ، أو ما يتميز به إنتاجه الزراعى ، وها هى أهم هذه المناطق :

(١) آدرار :

بدأ بمنطقة "آدرار" وذكر أن معناه بالبربرية "الجبل" وتحدث عن الطريق المؤدية إليه ، وقال إنها ثلاثة عشر مسلكا ، نذكر منها الطريق المدعوة بـ "شاة" وقال إنها شاة الجنّ - فلا يمر أحد بها إلا سمع صوت طبول الجن ، فإن هذا شائع عند أهل تلك البلاد .

وتكلم ثانيا عن "الظهر" أى متن آدرار وأن أشهر مدنه شنقيط ، ووادن وأوجفت . وقال إن مدينة شنقيط هى أقدم هذه المدن ، واشتهرت بجودة تمرها وأن النخلة الواحدة قد تحمل خمسة أوسق ، ثم استعرض ستة وعشرين موضعا ، منها مدينة "تنيك" التى يضرب المثل بخرابها ، وذكر أن سببه ما وقع من حرب بها بين أهلها . ومن هذه مواضع "اظهر" وادى "الحفير" وهو تصغير الحفرة. "وفى جودة تمره يقول أحد الظرفاء".

حسبى بمبسمها الأملى إذا ابتسمت من تمر "الحفير" أو من تمر وادان .

وذكر تعليق العلامة الحسن بن زين القناني ، أن هذا البيت متأخر ثقيل .

وذكر تسعة من مواضع آدرار الشرقى ، وقال كلمة موجزة عن تاريخ مدينة وادان .

وفى كلامه عن "باطن" آدرار ، ذكر مدينة "آطار" فقال إنها مدينة عظيمة ، وتجاورها أودية كثيرة . ولم يذكر فى "الباطن" سوى ستة مواضع منها "الجريف" وكانوال : الذى عناه امحمد ابن الطلبة بقوله :

هاج قرح الغرام بعد اندمال

ظعن ظعن الخليط يوم إنال

يوم ولت كأنها حين جدت

باسقات النخيل من كانوال

(ب) لعصايب ومقطير :

وبعد آدرار ، الذى قال إنه يتوسط قطر شنقيط
أراد أن يتحدث عما حوله من المناطق ، فبدأ
بالكلام على لعصايب ومقطير .

وذكر فيهما اثنى عشر موضعا . منها بئر
تسمى "بشار" وقد بنى بها أحد أمراء آدرار
دورا ووجد فيهما آثارا قديمة ، وكذلك بئر
الطالب ابن الخليل وقد زارها المؤلف ، وقال
إنها لما حفرها الطالب وجد فيها قسيا ورماحا
قديمة .

(ج) الساقية الحمراء :

ثم بعد ذلك تكلم عن الساقية الحمراء ، وأشار
إلى أبيات ابن الشيخ سيدى التى يقول فيها .

أحمرء السواقي ماورائى

ألان غربت أيها الانتشسائى

ثم قال إن الشيخ محمد المصطفى بن مامين
المشهور بماء العنين ، قد عمرها وغرس فيها

النخل فسهلت المواصله بين شنقيط وغيرها من
المواضع المغربية التابعة للمخزن وذكر أنها فى
الأصل للركيبات

(د) اينشيرى :

ويقول ابن الأمين: "بعد آدرار من الجهة الغربية
توجد منطقة "إنشيرى" ولم يذكر من معالمها
إلا موضعين ، ولعله لم يعرف غيرهما ، ولم
يك دقيقا فى تحديد جهتهما ، لأن اينشيرى فى
جنوب آدرار وتوجد فيه أعلام جغرافية مذكورة
فى الأدب الشنقيطى ، منها "ذريع مال
إشكدان" الذى يعنيه امحمد بن الطلبة بقوله :

على م الأسى ان لم نلم ونجزع

ونبكى على أطلال رأس الذريع

وقد بسط المختار بن حامد القول فى ذكر
مواضع اينشيرى ، وخصائصها .

(هـ) تيرس :

وقد كان حظ منطقة "تيرس" أوفر عند ابن
الأمين ، لأنه أجاد فى وصفها ، وعدد أكثر من
ثلاثين موضعا منها . فقال إن المطر إذا نزل
يبتهج الناس به لجودة تربتها وبعد نزوله بصدق
فيها قول العرب "شهرثرى" و"شهر مرعى" ،
و"شهر ترى"

وذكر من أعلامها " كدية الجل " وفيها معدن للملح المعروف بالسبخة ، وهى التى اكتشفت فيها أخبار مناجم الحديد فى موريتانيا . ومن أماكنها المشهورة جبلا "عيش اذخيرة" ، وبنعميرة" وأورد ابن الأمين قول ابن الطلبة عنها :

يسقى الذراع فيتجريت مدوماً

من خبت "عيش" إلى مدافع تنضل

(و) تكانت :

ثم تحدث ابن الأمين عن منطقة تكانت ، وفسر معناها مبينا أنها "الغابة" وأنها حلقة جبلية مثل آدرار يفصل بينهما الخط الذى قال إنه لا يعرف عنه شيئا بينما أوضح معرفته الدقيقة لتكانت التى قال إنه سلك خمسة من الطرق الموصلة إليها ، وذكر خمسين من أماكنها مثل مدينة تجكح ، وأورد تاريخ بنائها وسبب تشييدها من قبل العلويين النازحين من مدينة شنقيط .

ومن هذه الأماكن ، "اللبيبة" وتعرف اليوم بمقسم "ابن عامر" وبها قبر سلطان مراکش " أبو بكر بن عامر" ، مؤسس دولة المرابطين وحاكمها قبل ابن عمه يوسف بن تاشفين ،

ومنها أيضاً القبة وبها قبر العلامة سيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم ومعه العلامة سيدى محمود الحاجى ولم يذكر ابن الأمين وابن حامد بعض ما قاله الشعراء لأن أكثره كان باللغة الحسانية العامية ونكتفى بإيراد مقطع واحد من شعر المرحوم محمد بن آدب الكنتى ، يستعيد فيها عهد وادى أشاريم ، ووادى اشو ، وهما من منطقة الرشيد فيقول :

أيام عرفت اشو الخيام

فأشو مزال اشو نعيم

وأشاريم عرفت فأيام

مزال أشاريم أشاريم

(ز) اراضى الرقيبة واحوازا :

وقسم ابن الأمين أرض الرقيبة قسمين : الرقيبة البيضاء ، والرقيباء السوداء . وتحدث عن أربعة عشر موزعا منها ، ومن أشهرها : كُنْدِيكة وهى التى وقع فيها يوم مشهور بين أهل سيدى محمود ، وقبيلة كنتة : وذكر أيضاً "انواملين" الذى اشتهر بالوقعة بين جيوش المجاهدين تحت إمرة الشريف مولاي إدريس الفاسى ، ضد الغزاة الفرنسيين ، وانتصار المجاهدين فيها .

ومن المواضع التي ذكرها ، "كيفة" التي كانت في عهده بئرا ماءها ملح ، وأصبحت اليوم مدينة كبيرة من عواصم المحافظات الموريتانية .

وفي الرقبة السوداء ذكر ثمانية مواضع أكثرها أودية وقيعان ثم تابع حديثه عن الركيز الشرقي ، وأفلة ، وأوكار الشرقي ، واعترف في بعضها أنه لا علم لديه بتفاصيلها ، وهذا واضح في بعض الأوهام التي وقعت له في سرد بعض الأماكن في "أوكار" الشرقي بينما هي من منطقة أفلة .

(ح) الحوض والظهر وأوزوآة :

وبعد أوكار الشرقي ، استعرض مواضع الحوض ، والظهر وأزواد ، وتحدث عن مدينة "أروان" وقال إن المطر لا ينزل على بيوتها بسبب دعاء أحد الصالحين فيها . واستدل على ذلك بشهادة رجل من أهلها لقيه في الحج عام 1317 . ثم ذكر منطقة لِمْرِيَه (وهي تصغير المرأة ووصف خطورتها على أهل القوافل ، وهي أرض مستوية لا ماء فيها ولا شجر . وكثيراً ما يضل الدليل فيها . مما يجعل المسافرين فيها يضطرون إلى شرب السوائل الموجودة في بطون جمالهم .

وخصص فقرات مختصرة للمدن القديمة في هذه المناطق مثل تيشيت وأغريجيت ، وولآته ، والنعمة ، وبُوجْبِيها وسبخت تاودني ، تينبكتو التي قال إنها خارجة عن شنقيط .

(ط) منطقة اترارزة :

لقد كان لابن الأمين معرفة شاملة لهذه المنطقة التي نشأ فيها ، وترى في ربوعها ؛ لأنه ولد في منطقة العقل . موطن قبيلته العلويين في "القبلة" ودرس في آبار تاكنانت على شيخ الأساتذة العلامة يحظيه ابن عبد الودود . وعرف معاهد أوكار الغربي ، وإيكيدى وأقطوط الساحلي .

وسنرى أن هذه المناطق استأثرت بأكثر ما دُون من الشعر الموريتاني ، باستثناء ما قيل في منطقة "تيرس" .

وعلى العموم فإن كلام ابن الأمين عن جغرافية شنقيط احتذى فيه منهجه في شعر أدباء شنقيط ذلك أنه اعتمد على معارفه الخاصة ، فأسعفته حافظته القوية ، ومشاهداته في رحلاته ، ذلك أنه نشأ في أرض القبلة ، وعرف مناطقها ، مثل العقل ، وإيكيدى ، وآبار تاكنانت ، وأوكار . ثم تردد على تكانت وسلك طرقاتها ، ومَرَّ بآدرار . ثم إلى الساقية

الحمراء . فى كل هذه المناطق كانت معلوماته دقيقة ، وصحيحة غير أنه فى باقى المناطق ، وقعت له بعض الأغلاط ولعل عذره فى ذلك أنه من أول من كتب فى هذا الموضوع ، فكان لابد أن أن يؤدى ثمن الريادة .

٥ - كلمة عن بعض شعراء الأعلام الجغرافية :

إن أغلبية شعراء شنقيط كانوا ينتمون إلى العشائر الرحل ، ولكل منهم مواطن معهود ، يرتادها بحسب الفصول ، فإذا نأى عن بعضها اشتاق ، وإذا عاد إليها تذكر عهودها القديمة . وفى تلك الحالات ، يقع له ما وصفه الشاعر بقوله :

إذا رأى البرق فى نجد بكى شجنا

وإن رأى النار فى نجد بكر طربا

ومن أشهر شعراء المعاهد .

(١) **امحمد بن الطلبة اليعقوبى :**

شاعر الأعلام الجغرافية فى شنقيط بلا منازع هو امحمد بن الطلبة اليعقوبى الذى مسحت أشعاره خريطة عريضة امتدت من الساقية الحمراء شمالا إلى مقربة من نهر

السنغال جنوبا . ورسم على هذه "الخريطة" نحو قرابة مئة موضع ، واعتاد أن يخصص كل قصيدة لمنطقة معينة فجيमितه التى يعارض بها الشماخ بن ضرار ، تضمنت خمسة وثلاثين من تلك المنازل التى قال عنها :

منازل قد كان السرور محالفى

بها فهى عندى بين سلمى ومنعج

ومن بعض ما قال فى هذه القصيدة :

وذكره أطفان تربعن باللوى

لوى المروج فالخبتين من نصف دوكج

إلى البير فالخواء فالفج فالصوى

صوى تشلّ فالأجواد فالنهج من إج

تحد بأكناف الزّفال فتيرس

إلى زيز فالأزوينين والأعجوج

إلى أبلقى ونكّار ، فالكرب ترتعى

به حيث شاءت من حوز وحندج

إلى أن يقول

من القمع أو من نحو نكجير يمت

معاطن جلوى لا تربع لمن وجى

جواعل ذات الرمث فالواد ذى الصفا

يمينا وعن أيسارها أم هودج

وتزورّ عن ذى المرّسيّ فوركت

لمسى ثلاث جُبّه لم تُعرج

أو احتملت من صلب لحريش تنتحى

رُغْيُويّة الأملّاح لم تتلجلج

أو السّهّب سهب التوأمين فغلّست

بواكرها والصبح لم يتبلج

ومرّت على قلب الظليم كأنها

خذا طيل زوزت من نعام مهيج

فما أنس لا أنسى الحدوج روائحا

من أدوية البطحاء فالتموج

عوامد للسلّطين أو هضب مادس

نواكب عن وادى الخليج فعفلج

صوادر من ميناء جوز تحثّها

نواتيها فى زآخر متموج

أو العُمّ من نخل ابن بوصٍ تمايلت

شماريخها من مُرطب ومُنضج

مجانين رقل من كناوال ناوحت

فروع الثريا لا تُنال بمعرج

كأنهم إذ ضحّضح الال دونهم

خلايا سفين مثقل متمعج

ففى هذه القصيدة كاد أن يستقصى مواضع

تيرسن كما أنه ذكر مجمل مواضع "امسّاك"

وإنشيري فى قصائده الأخرى " مثل ما قاله فى

لاميته التى مطلعها :

صاح قف واستلح على صحن جال

سجه النيش هل ترى من جمال

وعينيته التى يقول فى أولها .

قف بالمرابيع من جو المبيديع

سقى المبيديع مريباب المرابيع

سقياله ولجرعاء المشاقر من

غور الشقيقة ذات الخلد فالريع

إلى الشواجن من وادى الحساء إلى

طود الحصان فُعلان المقاطيع

(ج) ابن سيدى شاعر أوكار :

وأوكار الساحلى ، وهى المنطقة التى ارتضع
ابن الشيخ سيدى أفويق الصفاء فى ربوعها ،
ففرض على نفسه البكاء فى مغانبها كلما
ترأى له منها تل أنار ، وخط الشقارى ،
وذواتا عليان ، والميامين أو روابى الكناوين
فيقول :

هنالك لا تدع منهن رسما

بدا إلا مررت به مرارا

كما قال :

على دوران أوكار التحايا

تواصل بالغدايا والعشايا

فبيضاء التماشن فالروابى

روابى التوأما فذى السرايا

إلى هضب السيال فأيدما

معاهد حبهن لنا سجايا

يفضضها الهجير ولكل بدر

وتذهبها الغدايا والعشايا

ترى الأسباط منها والأراطى

كزين البيض أيام الضحايا

يود ذوو البكهنية اضطجاعا

بها بدل الطناقس والخشايا
ومن مقطعاته المؤثرة قوله فى بئر تامرزكيت
التي يعربها ميمونة السعدى عند ما انهارت
وعجز أهلها عن إصلاحها .

لعمرك ما ترتاب ميمونة السعدى

بأنا تركنا السعى فى أمرها عمدا

سوى أنا كنا عبيد مشيئة

ولا عار فى أن يُعجز السيد العبد

حبسنا عليها وهى جذب سوامنا

فما صدنا السعدان عنها ولا صدا

ومرجع سانيها جعلنا مخيما

ليلا تصون الشيب عنها ولا المردا

ويشرب كل الناس صفو مياهم

ونشرب منها الطين نحسبه شهدا

(ج) ولد حنبل الحسنى :

شاعر آخر من الذين أسهموا فى رفع ذكر
الأعلام الجغرافية فى منطقته ، ألا وهو محمد
ابن حنبل الحسنى ، المشهور برأئعه الرملية
التي مطلعها

أضرم الهم سحيرا فالتهب

لمع برق برييات الذهب

ولقد كثر وقوفه على مغانى أرضه، وشوقه،
فى دمن النقا. ومرقب الصيران وأضل الرعود،
كل هذه مواضع فى سهل يعرف بآفطوط
الشرقى . ومما يلفت الانتباه أن هذا السهل
ينبت أشجارا عالية ، تعرف محليا بالتيدوم
وتعرب فى الشعر بالدوم ، قد يبلغ قطر جذع
الواحدة منها ثلاثة أمتار ولكل منها اسم علم
عليها وقد تغنى الشاعر بها قائلا :

فأضا الرعود فملتقى أعراضها

فالدومة البيضاء فالسندان

إلى أن يقول :

والأرض مترعة زلالا باردا

تحنو عليه نواعم الأغصان

فظلله لشبابنا متنزه

وفروعه للطير والغلمان

وقد تميزت من بين هذا الشجر ، دومة تسمى
ذات الحبال ، وقد اعتاد الزوار التردد عليها
والمقيل فى ظلها ، وكتابة ما يريدون تخليده

على جذعها . ولقد خاطبها محمد بن حنبل
بقوله :

أذات الحبال الشُّم مَالِكِ غُضَّة

وفيك نقوشُ الأقدمين الأوائل

تعاطوك قرنا بعد قرن فأصبحوا

رميما رفاتا تحت صُمّ الجنادل

وكم فتية قالوا بظلك قَبْلُهَا

لهم حَسَبٌ فى الأكرمين الأفاضل

وقبل عشر سنوات ، لم تصمد ذات الحبال

على مر القرون وسنى الجفاف فأجابت داعى
ربها ، دون أن تحظى برثاء أو تأبين ، وسقطت
معها الدومة البيضاء ، والسندان . ودومة
العين ، التى يخاطبها الشاعر العلوى محمد
عبد الله بن أحمد فال ، فيقول :

دومة العين سرُّ العين مَرَّآك

لا زال يعلو على الأشجار أعلاك

ما أنت إلا عجوز من عجائزنا

فأنت أمُّ لنا ونحن أبناك

نفيدك بالدُّوم والأشجار قاطبة

لطيب ما مر من عيش بمغناك

(د) شعراء العقل :

والعقل : تطلق على مجموعة من الآبار
القصيرة ، والواحدة تسمى بعُقلة ، ولعل
اشتقاقها أنها فى بعض الفصول يمكن امتياحها
بجبل قصير ، مثل العقال . ولقد كانت مواطن
لكثير من الشعراء ، ويقول عنها والدنا محمد
فال بن بابه العلوى .

وكان العقلُ لى وطنًا قديما

وميلادى بجانب أبى عقال

وفى أبى عقال ؛ يقول محمد عبد الله بن
أحمد فال العلوى

أيا وادى الأراك وذا العقال

ضلالى عنكما عين الضال

فمن ضاليكما ما مِزْتُ ضالًا

وما مزت السيال من السيال

كأنى لم أقم بكما زمانًا

ولا شهرا أقمت ولا ليالى

ويذكر محمد بن محمدى العقل فى قوله :

شمّر لعل رسيم الأينق الذلل

من بعد عشرين يدنى ساكنى العقل

ويستسقى لها بقوله :

أرض العقيلات يا برق الحيا

وعلى أحيائها لعيون الشائمين لُح

ويقول عنها محمد بن السالم الحسنى :

تضاحك الركب لما أن رأوا طربى

لما أضاء روابى سهلة الجلم

واعتن لى نقيًا لمغاس واعترضت

لمحيّدتان ومن تاتيكت العلم

يومى إلى بعضهم بالضحك بعضهم

أن قد صبا ويحهم ذا القاحل الهرم

لم أصب ويحكم لكن ذا وطن

لم ينسنيه بعاد العهد والقدم

وقد أورد ابن حامد مقطعات كثيرة لمحمد

بن محمد المختار العلوى

منها قوله :

لدى ينبوع منزلة علىّ

لها ولنا بها زمن رضى

إذا هبّ النسيم بفوح منها

على الأرجاء هندی ندى

معاهد خيم الوسمى فيها

وولى فيضه فيها الولي

(هـ) شعراء إيكيدى :

ومن شعراء إيكيدى ، نعطي مثالين من
مجموعة كثيرة أحدها يتعلق بمحمد فى الشعر
كثيرا . وفيها يقول والدنا .

ذهابى لأرض البحر فى سورة الشتا

وكنت أوان البرد لا آلف البحرا

يعز على نفسى اصطباراً وإنما

يُهوّنهُ أنى أمرٌ على البترا

٦ - خاتمة :

إن من الضرورى أن ننبه على أننا فى هذا
المقال ، اقتصرنا على عينات محدودة من شعر
الأعلام الجغرافية ، فاكثفينا من القلادة
بما يحيط بالعنق ، ولو حاولنا إحصاء الأماكن
المذكورة فى الأدب الشنقيطى لتطلب ذلك
كتابا مستقلا على أقل تقديرى ؛ وإذا ما
أضفنا إليه ما قيل فى الشعر الحسانى ،
الشعبى ، لاحتجنا إلى عدة مصنفات .

غير أن الفكرة التى أردنا توضيحها ، هى
أن بلاد شنقيط ، أى موريتانيا - أراضى

مترامية الأطراف ، مليئة بأعلام جغرافية ،
يلتقى فيها الأدب والتاريخ ، كما أنها ،
بطبيعتها الصحراوية ، وعادات شعرائها
البدوية ، تعطى صورة تكاد تكون طبق الأصل
من الشعر القديم فى جزيرة العرب ، وتجعل من
شعراء شنقيط فيما قبل العهد المعاصر خلفاء
امرى القيس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ،
وذو الرمة ، وجريز ومن اتبع طريقهم .

ولعل فى هذا دليلاً - إن كان النهار يحتاج
إلى دليل - على وحدة الحضارة العربية ،
وأهمية التركيز على أصولها الثقافية ، التى
تعتمد أساسا على القيم الإسلامية الصحيحة .
ومما لا شك فيه أن أعمال مجمعنا الموقر ،
تسهم بحظ وافر فى توثيق روابط هذه الحضارة ،
وإن بحوثه فى الأعلام الجغرافية تقوى عرى
التواصل بين أبناء الأمة العربية فى كل مكان
وتوطد أركان التعارف والتعاون بينها .

والله الموفق

محمد المختار ولد إياه

عضو المجمع المراسل

من موريتانيا

الأعلام الجغرافية العربية

للأستاذ الدكتور فؤاد فخر الدين

الأعلام جمع « علم » وهى شخصيات بارزة كأن على رؤوسها النار ، يشار إليها بالبنان ، ظهرت فى الوجود حاملة لواء الشهرة ، بما لها من شجاعة أو بطولة أو مهارة فى فن من الفنون أو علم من العلوم أو مهنة من المهن أو عمل من الأعمال أو أدب من الآداب شعرا كان أو نثرا ، لها أثر يحكى عنه فى المجتمع أو يبقى مع الأيام لا يزول ولا يذهب أدراج الرياح ، ولكنه يرمز على الحضارة من الحضارات أو مدنية من المدن التى يتباهى بها الإنسان بل الأمم فى إظهار كيانها التقدمى ووجودها القومى أو تاريخها الإنسانى أمام العالم الذى يخاطب الناس بفخر عن مميزاته الخاصة يمتاز بها ، ويتميز عن غيره من أبناء الجيل المتقدم .

والجغرافيا كلمة مأخوذة من كلمة أجنبية ، وهى علم يتصل بأديم الأرض والثرى ومساحتها وما يحيط بها من مواقع الحياة النامية ، والتضاريس والجبال والأوتاد ، والبراكين والسهول ، والوديان والأحراش ، والحاصلات والمنتجات الطبيعية والمائية والجوية ، وما يواجهها من أجواء وأنواء ، وكل فى حيز قُرّر مكانه ومقره وموقعه حتى لا يتعدى على غيره ، فهو فى وطن له حدوده الطبيعية وروحه القومية ، ولغته الوطنية . فالأرض منطقة يابسة قسمت إلى أوطان وفى كل وطن جنس من البشر ، له حرته وحقه الأساسى يدافع عنه بكل ما لديه من قوة مادية ومعنوية .

والعرب جنس من هذا البشر ، عاشوا منذ الجاهلية الأولى فى شبه الجزيرة العربية ، وعرفوا كقوم لهم تاريخ ولا سيما فى الأدب شعره ونثره . فالفصاحة والبلاغة ميزة خاصة بهم ، وهما سلاح خاص بهم فى إشعال نار الحماس فى الحروب والخطوب وإشعال نار الحب فى قلوب النساء الفاتنات العاريات الكاسيات ، فاللغة مادة غزيرة سباحة فى بحر لحي ملأى باللالى والمرجان والأسماء ذات الألوان ، فصارت اللغة وسيلة التخاطب فى كل مسائل الحياة تقرب الفهم والود والوثام حتى

أصبحت اللغة العربية لغة سائدة قائمة منذ أن
كلم الله آدم عليه السلام وعلمه الأسماء كلها ،
كميزة خاصة بالإنسان فلا يفهمها الملائكة
واعترفوا بهذا العجز اعترافاً بمعنى سمو
المخلوق الإنساني .

هذه الميزة الخاصة باللغة العربية استمر
وجودها لغة دين قويم دين الله الوحيد ، ومن
يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى
الآخرة من الخاسرين .

انتقلت اللغة العربية مع الإسلام إلى قومية
أخرى أكثر فعالية ومفعولية وأوسع مجالا
وساحة فى الوطنية ، إذ كل البلاد الإسلامية
وطن للمسلم ، ولا يعرف الإسلام ولا يعترف
بالوطنية الضيقة المقيدة بجنس معين من البشر
والدين أقوى من صلة الدم ، وأقرب من القرابة
النسبية ، والسلالة الجنسية ، ولا سيما
أصبحت اللغة العربية إحدى مقومات القومية
الإسلامية الخمس ، إذ نزل القرآن بها واختار
الله واصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم
محمداً ممن يتكلم بها ، ولا شك أن الله جعل
هذه اللغة رابطة دينية قومية ، فى أخوة وطنية،
وفى وحدة شعورية لبناء مجتمع إسلامى فى
صورة موحدة الجوانب ، واللسان أقوى هذه
الجوانب فالمرء بأصغريه لسانه وقلبه ،

إذ اللسان آلة التعبير والتجسير والتصوير حتى
قال الفرنسيون :

(il faut tourner sa langue sept fois
dans sa bouche avant de parler) .

أى يجب أن تلف لسانك سبع مرات فى
فمك قبل أن تتفوه بكلمة ، وحيث هذه اللغة
من الله كلفة دينية للإسلام ، بل هى لغته
الخاصة به وفضلها على سائر اللغات فعلىنا أن
نرجعها إليه كحقه ومميزاته كما يقول الفرنسيون
فى مثلهم : (il faut rendre à César ce qui
appertient à César,et à Dieu ce qui est
à Dieu) .

أعط لقيصر ما لقيصر وأعط لله ما لله .

وقد حدد الله مهمة القرآن فى توحيد
الصفوف ، وتوجيه القلوب . وتكوين العقول
والأفكار ، وتأليف أمة ذات صيغة خاصة ،
ومقومات مميزة عن غيرها فقال سبحانه : « إنا
أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »
(يوسف ٢) ، وقال : « وكذلك أنزلناه حُكْمًا
عَرَبِيَا ، وَلِكِنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ مَالِكٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ »
(الرعد ٣٧) ، وقال : « وكذلك أنزلناه قرآنا
عربيا وصرّفنا فيه مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . فتعالى الله الملك الحق ،

وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنْسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » (طه ١١٣ - ١١٥) وقال تعالى « قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » (الزمر ٢٨) ، وغير ذلك من الآيات المبينات حاكية عن مهمة القرآن في تكوين أمة إسلامية غير ذات عوج ، وهى رحمة للعالمين ، وخير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .

والإسلام غير العرب ، ولم يغير اللغة العربية وأن رفعها إلى أسمى اللغات قيمة وقدر ، ونحن فى الواقع مجمع لغة القرآن لسان الإسلام ، إذا اتسعت مهمتها ، ويجب أن نرفع من شأنها فى الوحدة القومية التى بها نوحّد الخطط السياسية ، والشئون الاقتصادية ، والمشاكل الثقافية ، والاختلافات المذهبية ونؤدى مهمتنا العليا فى الرسالة الإلهية حتى تجد إسرائيل سم حاجتها فى تغيير جامعة الدول العربية الى جامعة دول الشرق الأوسط فالأولى بنا أن نجعلها جامعة الدول الإسلامية ، وهذا المجمع مجمع اللغة الإسلامية لنسد كل فراغ يمكن أن تدخل منها بجانب أننا نقوى صفوفنا القومية وروحنا

الإسلامية ، ونرقى مشاعرنا اللغوية ، وننظر إلى سياسة أبعد مدى وأكثر فعالية ومفعولية ، فلا نضع العربى خلف الحصان كما يقول المثل الفرنسى : (Mettre la charrue devant les boeufs) .

ومميزات العرب فى الجاهلية لم تصل بعد إلى درجة التقدم العلمى وإلى الرقى الأخلاقى ، ولم تمتد حدودهم عن المناطق العربى المجاورة فى تجارة ما وللحصول على الضروريات الملحة ، ولم تكن لهم رسالة واسعة النطاق بل هم قوم رحل للبحث عن قوت يومهم حول الصحراء القاحلة والفيافى النائية ، وعلومهم لم تفدهم فى أداء هذه المهمة الضيقة ولا سيما العداوة بينهم كانت قبلية وشعوبية وعزة قومية ، وعلومهم لا تتجاوز حدود الاحتياجات المطلوبة فكانت علومهم بدائية للتغلب على الطبيعة القاسية والعوارض النفسية من الأهواء فى صورة ضغائن للأخذ بالثأر ، فأتقنوا علم القيافة والنجوم وغيرها من العلوم التى تواجه الطبيعة القاسية وتتغلب على الظروف المحيطة ، وعلى الطبائع الإنسانية الشريرة ، فتلك العلوم خاصة بمنطقة لم تخرج عن حيزها الضيق ، فالجهل صفة عدم

إدراك الطبيعة الإنسانية الشاملة ، فالعرب فى الجاهلية لم يخرجوا بعقولهم فى معالجة الأمور ، فسلاحهم لم يكن العلوم الفعلية بمشاعرها الإنسانية بل هى علوم طبيعية لمواجهة القوة كقانون الغاب وأسلوب الوحوش .

فلا يمكن أن نقول بملء الفيه إن هناك جغرافيين من العرب ولا سيما الأعلام منهم ، فإن وجد شخص ما فلم يكن مقياسا فالندرة شذوذ لا يقاس عليه : « وما شذ فعلى نقل قُصر » كما يقول ابن مالك فى ألفيته ، وهو أنأى من الكواكب ، وأبعد من مناط الثريا وبيض الأنوق .

الإسلام هو الكمال المطلق ، وهذا ليس تعبيرا رمزيا ، بل هو تعبير إلهى شامل لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذ قال تعالى : « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » (الشورى ٢٤) ، ما جاء الإسلام كدين الله إلا ليعطى للعلم قدره ، وللعقل مكانه وللتفكير صورته فى لون من الاجتهاد ، وفى وضع العلماء ورثة الأنبياء ، وهل يستوى الأعمى والبصير ، والجاهل والعالم المنير ، فكل فى فلك يسبحون .

لا شك أن العلماء فى جميع العلوم ظهوروا مع الإسلام ، فالأشهر الإسلامية قمرية ، والقمر يظهر فى الليالى الليلية ، فينير الطريق لمن ضل السبيل ، فجعلت اللغة العربية القمر مذكرا لأنه حارس ذلك الليل المخيف الذى يهلك الإنسان خوفا ورعبا من الأخطار المهددة لسلامة الإنسان وأمنه حتى يصل إلى هدفه تحت حراسة دين قويم فى عدالته ومساواته وإعطائه الحقوق دون نقص ولا خلل ولأن الإسلام شامل كامل وجامع مانع فلا بد له من علوم تحميه وتحرسه من كل أخطار الدنيا ، والجغرافيا أحد العلوم الهامة لحراسة الكيان الإسلامى فى أداء دعوته وحفظ بلاده وصون وطنه ، وهذا العلم تعريف عن كل قطعة من المناطق الإسلامية حتى يلم المسلم بأحوال بلاده ووطنه ، ولا سيما الإسلام يدعو إلى القيام بأداء الرسالة لعامة الناس ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن فالإسلام سلام فى رحمة لإنقاذ البشرية من ظلم مقيم واستعمار بغيض كما نراه فى الحروب المتتالية من الصليبية وحرب الصرب القائمة إلى وقتنا الحاضر وغيرها من الحروب الانتقامية ضد الإسلام والمسلمين . فلا بد للمسلمين من مجلس أمن إسلامى يحدد

موقفهم إزاء هذه الأعمال الإجرامية التي تتنافى مع الأديان بل مع الشعور الإنساني والأمن البشرى ، ومجلس الأمن الإسلامى له قواعده ومطالبه ومكانته .

وعلم الجغرافيا لدى المسلمين مهد الطريق لهم لمعرفة بلاد العالم والخروج من حيز بلادهم الضيقة إلى عالم واسع ، وهذا من رسالة الحج إذ قال الله لنبيه إبراهيم عليه السلام : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » (الحج ٢٧-٢٨) .

فهجرة المسلمين من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة انتقال أمة استوفت الشروط بعد اختبار أفرادها من أحسن الناس إيمانا وعقيدة وإسلاما ، واصطفاهم الرسول فردا فردا من أعلى طبقة العرب روحا ونفسا ، وأنفعهم جهادا ودفاعا عن الإسلام ، وأتى بهم من أم القرى إلى مدينة الرسول لتكوين دولة إسلامية بعد أن ألفهم في أخوة صادقة وفية ، وفى تعاون مالى ودى وصفاء إسلامى وروح كلها تعايش سلمى وضمن اجتماعى وعدالة إنسانية شريفة .

هذه الأمة والدولة معا هما الإسلام فى صورته الحقيقية ، وهى صورة مصغرة لدولة

إسلامية كبرى فحدود الإسلام العربية جعلت هذه اللغة لغته الدينية فالإسلام لا يعترف بالعنصرية ، واللغة العربية فى وضعها الطبيعى والسمائى ليست بلغة عنصرية ، ولا سيما العربية فى معناها الوضعى الإيضاح والظهور فى جلاء دون خفاء تتفق والإسلام دين الوضوح الحى المعبر عن حقيقة الأمور . والدعوة الإسلامية جعلت الرسول صلوات الله عليه يتعرض للصين فى قوله « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، مهما كان وضع هذا الحديث فإنه يشير إلى المدى الذى يجب أن ينتشر الإسلام إلى المناطق النائية ، فهذا الحديث فتح للجغرافية الإسلامية ، وقد جاء وفد صينى فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان لمطالبة مساعدة عسكرية يستطيع بها إمبراطور الصين مواجهة الثوار ضد حكمه وسلطانه . قد تكون التجارة من الأمور الهامة ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها فى الدعوة الإسلامية ، وقد تكون سندا ماديا ، ولكن الإسلام رسالة روحية معنوية ، والمعنويات أعلى شأنا من الماديات إذ المعنويات لا تزول مهما عارضتها الماديات ، هذا الذى أبقى الإسلام حيا فى مناطق كثيرة رغم محاولة الاستعمار محوه وإزالته مع طول بقائه فى محاربتة قرونا وقرونا بل ومئات القرون .

فعلا اشتهر الجغرافيون الإسلاميون من العرب وغير العرب ، ولهم تاريخ طويل فى الجهاد العلمى المجيد ، وتركوا آثارا خالدة تسجل للإسلام مجدا فائرا تعتز به فى هذه الأيام الخالدة ، فعلى الاهتمام بدراسة جغرافية العالم الإسلامى وإعطاء الأهمية الكبرى للبلاد التى تحمل تاريخا إسلاميا بارزا مثل فلسطين وأفغانستان مما يعطى فكرة الحفاظ على التراث الإسلامى ، وعلى شخصيته الحقيقية لمواجهة الاعتداءات والمساعى لطمس معالمه الإسلامية كما فعلت إسرائيل فى المسجد الأقصى لإعادة هيكل سليمان المدعى .

ومما حافظ دائما الكيان الإسلامى فى وحدة قومية وإيجاد أسرة إسلامية متحدة العقيدة والشريعة فى كل حركاتها وسكناتها هو جعل الله الجزيرة العربية مركزا لبيته العظيم ، ومصدرا لظهور رسله وأنبيائه عليهم السلام ومهبطا للأديان الثلاثة العظمى ، هو تلك الإشارة على أهمية الجغرافية الدينية وبالأخص الإسلامية لأن الإسلام هو منبع كل الأديان السماوية من يهودية ومسيحية ، وبجانب هذا كله فهذا الجزء من العالم هو مركزه العالمى إذ يتوسطه كنقطة الارتكاز للكرة الأرضية ، من هنا انتشر الإسلام ، وإلى هنا يتجه

المسلمون فى صلواتهم وأداء مناسك حجهم وجمع كلمتهم .

ولانتشار الإسلام عن طريق الجزيرة العربية وقد أعد الله العرب من البداية أصحاب سفن ومواصلات بحرية للانتقال إلى ما وراء بحارهم ، فاشتهروا بالتجارة ، بها تنتقل البضائع من الشرق إلى الغرب ، ولهم رحلة الصيف والشتاء التى ذكرها القرآن الكريم تسجيلا لفائدة التجارة ، وللانتقال من مكان إلى مكان لتوسعة المدارك العلمية ، والخبرة والتجارب الاجتماعية ولهذا وصل العرب إلى الصين وغيرها للبحث عن الحرير والتوابل والبهارات والإفادية وافتح مصادر الرزق .

من هذه الناحية لم نجد للعرب تاريخا خاصا بهم بل انضوا تحت لواء الإسلام وكانوا قاداته ، وأصحاب الزعامة لحملها تلك المسئولية الدينية فى الرسالة الإسلامية وفى أداء الأمانة التى ورثوها عن سيد العرب رسول الإسلام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، والإسلام لا يفرق بين العرب والعجم فهو دين المساواة فالإنسان لديه كأسنان المشط ، والرسول قد قام بالرحلة التجارية كمثال للحياة العملية .

وصلات العرب بالبلاد الأخرى قبل الإسلام كانت صلات فردية ليست ذات أثر فى فكرة ما ، ولكن صلات الإسلام أنشأت أمة واسعة النطاق فى مساحة شاسعة من العالم ، وقال الدكتور يوسف أبو الحجار فى مقاله تحت عنوان مسالك انتشار الإسلام نشر فى صفحة ٣٣ من المجلد الرابع لبحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول لجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م « فالعالم الإسلامى دينا فسيحة الأرجاء ، حتى لو قصرنا هذا التعريف على الوحدات السياسية التى يؤلف المسلمون أكثر من نصف سكانها بإجماع التقديرات . فهو يمتد نحو ١٤٠ درجة طولية ، من درجة ١٢٠ الشرقية ، شرقى أندونيسيا حتى درجة ١٨ الغربية حيث سواحل السنغال التى هى أقصى أقطار العالم الإسلامى فى الاتجاه الغربى » .

وهو يمتد نحو ٧٠ درجة عرضية من أعالي نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ الشمالية حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار » وتلك مساحة هائلة ، أكثر مثلاً من مساحة كل القارة الأفريقية ، وأكثر من مساحة قارتى أوربا وأمريكا الجنوبية مجتمعين ، فهى تبلغ نحو اثنى عشر مليوناً من الأميال المربعة

ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليوناً إذا أضفنا إليها المساحة التى تشغلها الأقليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية » .

« وفى هذه المساحة يعيش نحو ٨٠٠ مليون مسلم أو يزيدون ، مما يجعل الإسلام يحتل المركز الثانى بعد المسيحية من حيث عدد معتنقى الأديان السماوية » .

ولا شك إسرائيل العدو اللدود للإسلام والمسلمين أخذت تغير الأسماء الإسلامية للبلاد التى استولت عليها فى فلسطين مما جعل أجزاء من تلك البلاد الإسلامية مشوهة الأصل ، وفى ذلك سياسة مأكرة لاسترجاع تلك البلاد بأسمائها الإسرائيلية المصطنعة ولقد لعبت إسرائيل فى هذا الصدد فى المؤتمر المتتالى عقده لتنميط الأسماء الجغرافية وعقد أخيراً بأثينا فى ١٧ أغسطس ١٩٧٧ ، وكان الدكتور عبد الهادى التازى رئيساً للوفد المغربى فيه » .

والعلماء المسلمون قد درسوا تطور الفكر الإسلامى فى فترة كان ازدهار العلوم الإسلامية يضع اهتماماً خاصاً فى تاريخ علم الجغرافيا ويتدرج أفكاره الرئيسية ، والإسلام فى نفس الوقت قد دعا الأمة الإسلامية إلى التأمل فى

السموات والأرض ، وإلى النظر فى الكون وإلى الطبيعة التى لعبت دورا فى التغيرات الجوية ، ومن سقوط الأمطار وغير ذلك من الأحوال على حياة الإنسان حتى أمر صيام رمضان برؤية الهلال وكذلك انتهائه ، ودورة الفلك ، كل أولئك داخل فى علم الجغرافيا فشموله على وضع الإنسان فى البحر والبر ، وحياته على أنشطة البحر والبر اللذين عليهما يعتمد الإنسان فى حياته وتنقلاته وجولاته . وعلم الجغرافيا هو الذى وحد المسلمين وهو الذى مهد لهم طريق الوصول إلى أداء فريضة الحج وغير ذلك من الأمور الهامة فى تكوين الوطن الإسلامى الموحد ، وفى نشر فكرة الاتحاد الأخوى .

من هذه الناحية الحساسة غير المسلمون العلوم الجاهلية المقصورة على مطالع النجوم ومضاربها إذ حددوا منازل القمر بين النجوم بثمانية وعشرين منزلا ، وسموها منازل القمر وأطلقوا على كل منزل منها اسما عربيا خالصا ، وأخذوا بأسباب العلوم فى القرون الأولى للهجرة وترجموا تراث القدماء سواء الهنود منهم أو المجوس أو الفرس أو اليونان ، وتوسعوا فى العلوم العملية بدور الإبداع وإظهار مهارتهم العلمية والفنية بالإسهامات

الحقيقية فى نشاط الفكر العلمى عامة ، فعلىنا أن نقدر تلك الشروة الضخمة ليكون لنا تاريخ علمى نفخر به أمام الحضارة الغربية المتوغلة فى المدنية المعاصرة التى قد طفت على الحضارة الإسلامية لإهمالنا وعدم اهتمامنا وتساهلنا وعدم إظهارنا تلك الحضارة فى مركز علمى إسلامى يضاهى ما لدى الغرب من معاهد عالية تدرس الحضارة القديمة الإسلامية وغير الإسلامية حتى أصبحنا نلتجئ إلى تلك المعاهد للتخصص فى العلوم الإسلامية مما يحط من كرامتنا العلمية والثقافية بل الإسلامية .

ويعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (٨٢٠ - ٩١٣) جغرافى فارسى الأصل ، وهو مصور هام لتعريف صفة الأرض ، يرسم هدفا ومنهجيا للجغرافية ، ويعتبر أول مصنف فى الجغرافيا الوصفية فى المدرسة الجغرافية الإسلامية ، وابن خرداذبة هو (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة) شغل وظيفة صاحب البريد بنواحي الجبال بإيران.

ويقول د/ محمد الأمير غلاف فى مقاله تحت عنوان « الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى فى الصفحة ١٣٦ من كتاب بحوث المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض المنعقد سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م » .

المجلد الثالث : « وتظهر طريقة الاستقصاء
فى جمع المادة الجغرافية من مقدمة الجغرافى
والمؤرخ إلى العباس أحمد بن يعقوب
اليعقوبى لكتابه « البلدان » إذ يقول : «
إنى عنيف فى عنفوان شبابه » بعلم أخبار
البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد » لأنى
سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام
تغريبى ، فكنت كلما لقيت رجلا من تلك
البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لى
محل داره وموضوع قراره سألته عن بلده وزرعه
ما هو وسأكتبه من هم من عرب أو عجم ...
ودياناتهم ومقالاتهم ... »

« ولكى نفهم ما يقصده الجغرافيون
المسلمون بالممالك أو البلدان نورد خطة كتاب
البلدان هذا . إذ هو يتحدث أولا عن بغداد
« وسُرَّ من رأى » لأنهما مدينتا الملك ودار
الخلافة . ثم عن إيران وتركستان وأفغانستان .
ثم عن غربى وجنوبى الجزيرة العربية ثم العراق
الجنوبى والشرقى وشرقى شبه الجزيرة العربية
والهند والصين أما الرابع فبيزنطة ومصر والنوبة
وشمال أفريقيا . »

ومن أنماط الكتب الجغرافية التى ظهرت فى
هذا العصر « كتاب فتوح البلدان للبلازرى »
الذى يعتبر بحق قطعة ممتازة فى الجغرافيا

التاريخية وهو ذو قيمة كبرى فى التاريخ
الإسلامى - وكتابان فى تاريخ مكة
أحدهما للأزرقى (المتوفى عام ٢٤٤هـ -
٨٥٨م) والآخر الفاكهى (المتوفى حوالى
٢٧٢هـ - ٨٨٥م) وينتسب لنفس النمط
كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر طبرفور
(المتوفى عام ٢٨٠هـ - ٨٩٣م) وإن كانت
ضئيلة الحظ من الجغرافيا وكتاب تاريخ دمشق
لأبى عساكر (توفى ٥٧١هـ - ١١٧٦م) .

والقرن الرابع الهجرى يعتبر تاريخيا عصر
ازدهار الحضارة الإسلامية وفى نفس الوقت
عهد ازدهار الجغرافيا الإسلامية وقد سمي
العصر الكلاسيكى للجغرافيا الإسلامية إذ
بدأت بالفلك ثم توسعت إلى رحلات وأدى ذلك
إلى وجود الجغرافيا الوصفية .

وقد تطورت الجغرافيا الإسلامية إلى ظهور
الجغرافيا الاجتماعية التى قادها عبد الرحمن
ابن خلدون (١٣٣٢م - ١٤٠٦م) بكتابه
« العبر » المشهور بمقدمة ابن خلدون وفى الواقع
الجغرافيا الإسلامية لها أن تفخر بعالم بارز آخر
وهو البيرونى (أبو الريحان ٩٧٣م - ١٠٤٨م)
من أصل فارسى ومن أهم كتبه « الآثار الباقية
من القرون الخالية » وهناك بعض علماء
مجهولى الأسماء من إخوان الصفا تلك الجمعية
السياسية الشيعية ظهرت فى القرن العاشر
بالبصرة .

وأبو الحسن المسعودى وذلك المؤرخ الجغرافى الذى نشأ فى بغداد وطاف فارس وكرمان والهند وسيلان والصين ومدغسكر وما وراء النهر وأذربيجان وجرجان والشام وفلسطين ومصر وتوفى سنة ١٩٥٦م وضع فيما سمعه ورآه عشرات المؤلفات وأشهر ما بقى منها «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهو من أشهر جغرافى القرن الرابع الهجرى وهو عربى صرف ونسبه يرجع إلى الصحابى عبد الله بن مسعود وقيل إنه قد زار الصين وأربخيل الملايو .
فغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرق

وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وأحمد بن فضلان له مكانة خاصة لدى الرحالة المسلمين إذ أوفده الخليفة المقتدر بالله بهدايا إلى أمراء بلفار الفلجا وبلاد الترك وطرق أبواب عالم بربرى وعاد إلى بغداد وكتب «رسالة فى الرومى» عن رحلته واهتم بها الغربيون باعتبارها أحد المصادر النادرة الأصلية عن رحلات أجدادهم من البلغار والروس والجزر وبدأت هذه الرحلة باثنين صفر (عام ٣٠٩ هـ - يونيو ٩٢١م) ولكننا لا نعلم متى انتهت . ويقول الدكتور محمد السيد غلاب فى نفس مقاله ص ١٣٩ ما يلى :
ويحتفظ باتوت بشذرات عديدة من رحلة

طريفة قام بها رحالة أحاط به وبصحبة رحلته كثير من الريب والشكوك ، وهو أبودلف الينبص الخزرجى . وكان أبودلف شاعرا مداحا التحق ببلاط نصر الثانى بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٣١ هـ - ٩١٤ - ٩٤٣ م) وقد انتهز أبودلف فرصة وصول سفارة صينية إلى نيجارى فاصطحبها وهى عائدة إلى بلادها ويبدو أن أبادلف كتب ذكرياته عن رحلته بعد عودته من الذاكرة . وخلط بها ما سمع من قصص وأساطير .

«غرب الرحالة العرب ووصلوا إلى أوربا ليس من الشرق فقط ، بل من الغرب أيضا وقد حفظ لنا البكرى الجغرافى الأندلسى (عبد الله) (توفى فى قرطبة ١٠٩٤م) والقزوينى (زكريا ١٢٠٣ - ١٢٨٣) كثيرا من مشاهدات الرحالة إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، وكان عالما أندلسيا يهوديا اشتغل بتجارة الرقيق ، وأخذته رحلاته التجارية إلى جنوب ألمانيا فى القرن الرابع الهجرى (٩٦٥م) وقابل الإمبراطور الألمانى أوتونى مجد برج (Otton) وحفظ لنا معلومات واسعة عن، إمارات الصقالية فى أوربا فى ذلك العصر، ويحدثنا عن أربعة منها ؛ بلغاريا وبولندا والتشيك وإمارة ناكون الأندوريتى كما يورد تفاصيل واقعة عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا.

استمرت رحلة المسلمين إلى بلاد مختلفة مما فتح آفاقا واسعة زادت في معرفة الناس للعالم ومواقع البلاد إلى أن وصلنا إلى آخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية وهو المقدسي (أبو عبد الله) أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة ، ولد في عام ٣٣٥هـ - ٩٤٦-٩٤٧ م ، وتوفي نحو سنة ٩٨٥م تجول أكثر البلاد الإسلامية وقام في سنه الأربعين بتأليف كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » (٣٧٥هـ - ٩٨٥-٩٨٦ م) ونقله الأوربيون إلى لغاتهم واستفادوا منه ، وهو لم يذكر غير الممالك الإسلامية ولم يتعرض لممالك غير إسلامية لأنه لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها غير أنه تعرض لمواضع المسلمين فيها .

وفي هذا العصر ذاته برز في الجغرافيا كأحد العلوم الفلسفية إذ تعرض لها كتاب «إخوان الصفاء وخلال الوفاء » كموسوعة ذات صبغة خاصة وحيدة من نوعها ألّفَتها نخبة من المفكرين والعلماء أخفوا أسماءهم وهذا الكتاب يشتمل على علوم مختلفة في مبادئ الرياضيات والمنطق وعلم النفس والطبيعة والتصوف والتنجيم ، وهو مجموعة من الرسائل مكونة من إحدى وخمسين رسالة وللجغرافيا الرسالة الخامسة .

فهناك البيروني ، والبكري في الأندلس ، والإدريسي في صقلية ، وكل منهم له أثر استفاد منه الناس عامة من المسلمين وغير المسلمين ، ولناصرى خسرو (٣٩٤-٤٨١ هـ = ١٠٠٣-٦٠٨٨ م) الذي نشأ في مدينة مرد ، كتاب باللغة الفارسية يعرف باسم « سفرنامه » وهو شاعر اعتنق المذهب الإسماعيلي ، وفي كتابه هذا تناول رحلته إلى مكة المكرمة .

وحمود الكاشفري قد ترك كتابا باللغة العربية ، وهو سلجوكي ، وعرف هذا الكتاب الوحيد باسم « ديوان لغات الترك » دون في بغداد بين عامي ٤٦٤ و ٤٦٦ = ١٠٧٢ و ١٠٧٤ م ، وهذا الكتاب قد ترك لنا مادة غزيرة عن الشعب التركي في مراحل تكوينه الأولى ، وتم طبعه أثناء الحرب العالمية الأولى .

وهناك كتاب « طبائع الحيوان » يتناول في جوهره علم الحيوان بيد أنه تعرض للحديث عن الأصناف البشرية والجغرافيا ، ويمتاز بما تضمنه عن الشرق الأقصى « أي الهند والتبت والصين » .

وفي الأندلس والغرب قد ظهر ثلاثة أعلام ، وهم أبو عبد الله البكري (توفي في قرطبة ١٠٩٤ م) أقدم من بقيت مؤلفاتهم لدينا

كأكبر جغرافى أنجبته الأندلس - كما قال المستشرق دوزى (Duzy) - ١٨٢٠ - ١٨٨٤ م الهولندى ، ومدرس اللغة العربية فى كلية ليدن « Leiden » واشتغل فى تواريخ الدول الإسلامية فى الأندلس والمغرب ، ومن أهم مؤلفاته « ملحق وتكملة القواميس العربية » ، ذكر فيها الكلمات التى لم ترد فى المعاجم . ومن مؤلفات البكرى « المسالك والممالك » وكتاب « معجم مااستعجم » والثانى الإدريسى (أبو عبد الله المعروف بالشريف) (١٠٩٩ - ١١٥٣ م) ولد فى الأندلس واشتهر بأنه أكثر الجغرافيين المسلمين مكانة بين العلماء المحدثين ، ونسبه يرجع إلى الأدارسة العلويين ولهذا عرف بالشريف الإدريسى .

والإدريسى يختلف سلوكا عن الجغرافيين المسلمين الكلاسيكين حيث لم يقتصر على البلاد الإسلامية فحسب ، ولكنه ألف كتابه وخطط خرائطه وهو فى الرمو « Palarme » عاصمة صقلية بدعوة من الملك روجر الثانى « Rager II » فاحتوى كتابه على وصف جذاب لأوروبا الغربية (فرنسا وسكتلاندا وألمانيا وأيرلندا وسواحل بحر الشمال) .

والبكرى (عبدالله) من أقدم ما لدينا من مؤلفاتهم عن جغرافى الأندلس وكتابه المعجم « ليس كتابا جغرافيا بل كتاب لغوى ، ولكن اهتم فيه البكرى بشبه الجزيرة العربية على وجه الخصوص ، واستغرق فى ذكر الأسماء المذكورة فى القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص المغازى الأولى والشعر الجاهلى .

كان فى الأندلس معاصرا للإدريسى « أبو حامد الغرناطى » ، ولد فى غرناطة عام ٤٧٣ هـ - ١٠٨٠ م ، شغوفاً بالرحلات وزار مصر وصقلية وسردينيا ، وبغداد وبحر قزوين وإيران ، وله كتاب تحت عنوان « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » .

ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن جبير الكنانى (١١٤٥ - ١٢١٧ م) . ولد فى بلنسية بالأندلس وتوفى فى الإسكندرية ، درس الفقه والحديث فى شاطبة ، شرب الخمر صدفة فحج تكفيرا ، زار الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة والكوفة والموصل وحلب ودمشق وعكا وصقلية ثم عاد إلى غرناطة عن طريق قرطاجنة وقد حج عن طريق النيل إلى الصعيد ثم عبر الصحراء إلى عيذاب (مرفأ على ساحل البحر الأحمر) وقد وصف ابن جبير ما رآه فى الإسكندرية ومصر .

ومن جغرافى هذا العصر أبو المكارم
أسعد مماتى المصرى توفى فى حلب
٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م ، وينتمى إلى أسرة قبطية
عريقة ، وتولى رئيس ديوان الجيش للملك
الناصر بالقاهرة ، اعتنق الإسلام وتولى منصباً
كبيراً فى عهد صلاح الدين وخلفائه . له كتاب
« قوانين الدواوين » فيه قواعد إدارة مصر فى
عهد صلاح الدين الأيوبي ، وقد فصل نظام
الأراضى بمصر ، وبين مساحتها وخراجها ،
ويعتبر هذا الكتاب وثيقة هامة فى تاريخ مصر
الاقتصادى .

بعد تغيير الوضع السياسى والاجتماعى فى
الشرق الأوسط وتبديل النظام الإدارى فى
العراق إثر استيلاء المغول على بغداد وتحطيمها
للحضارة الإسلامية وتخريبها مكتباتها العلمية
والثقافية تحول عمل الإشعاع الفكرى
الإسلامى نحو الغرب أى إلى دمشق وحلب
وأخيراً تركز فى القاهرة مما جعل القرنين
الهجريين السابع والثامن بروز المجهودات
العلمية فى موسوعات عربية كبرى وبالأخص
فى مصر ، وكان من قبل ياقوت الحموى قد
أقدم على هذا العمل العلمى الجليل بمجمعه ،
وكفى فخراً أن المعجم يتكون من ثلاثة آلاف
وثمانيئة وأربع وتسعين صفحة ، وهو فى واقع
الأمر مرجع للجغرافيا فى وصفها المختلف .

وياقوت هذا أى يعقوب الرومى (١١٧٩ -
١٢٢٩) كان أصله بلاد الروم ، أسر صغيراً إذ
ابتاعه تاجر بغدادى يعرف بعسكر الحموى ،
علمه وشغله بالأسفار ثم أطلق سراحه فأتى
رحلته إلى مدن إيران والشام والعراق ومصر إذ
راجع فيها المكتبات فجمع حاصلات علمية
وفيرة وضعها فى كتابه « معجم البلدان فى
معرفة المدن والقرى فى كل مكان » .

ومن عاصد ياقوت المؤلف موفق الدين
عبد اللطيف بن يونس البغدادى (١١٦٢ -
١٢٣١ م) وقد ترك معلومات هامة عن
مصر إذ ولد فى بغداد وأقام فى مصر ، درس
الطب والأدب والكيمياء ، وله كتاب صغير
تحت عنوان « الإفادة والاعتبار فى الأمور
المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وقد
وُلِدَ أبو الفداء (أبو الفداء عماد الدين
إسماعيل المؤيد ١٢٧٣ - ١٣٣١ م) بمدينة
دمشق ، وهو الأديب الإدارى المحارب
إذ اشترك فى عدة حملات ضد الصليبيين ،
واستقر أخيراً مع الأيوبيين بمصر ، فعُيِّن حاكماً
فى حماة ، ومؤلفه المشهور فى الجغرافيا تحت
اسم « تقويم البلدان » .

فى عصر المماليك ظهرت موسوعتان
إحدهما لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

البكرى النويرى (٦٧٧-٧٣٢ هـ = ١٢٧٩-١٣٣٢ م) والثانية لابن فضل الله العمرى (١٣٠٠ - ١٣٨٤) وكتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار »

والقلقشندي أحمد (١٣٥٥ - ١٤١٨) المنسوب إلى قرية مصرية فى القليوبية المعروفة باسم قلقشنده ، وهو من علماء الأدب العربى ، وقد عرف بكتابه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» ، وفيه ما يحتاج المتعلم من معارف عامة منها الجغرافيا ، وعن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة ، والجبال والبحار والجزر والأنهار ، والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها .

والعلامة المصرى أحمد زكى باشا (المتوفى ١٩٣٤) جمع هذا الكتاب القيم فى واحد وثلاثين جزءا .

ثم ظهر ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨ م) الرحالة المولود فى طنجة تجول فى العالم فى ثلاث رحلات استغرقت زهاء ٢٩ سنة ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوائى الطنجى ، وصل ابن بطوطة إلى إندونيسيا ، وهو ذلك المزواج الذواق . ترك آثاراً من سلالته فى كثير من البلاد . وذات مرة رأى الملك فى منطقة

أتشيه يخرج لصلاة الجمعة حافى القدمين متمشلا فى ذلك بالآية الشريفة : ﴿ فاخلع نعليك إنيك بالوادِ المقدس طوى ﴾ (طه ١٢) .

وهناك رحلات جغرافية قليلة الأثر قام بها بعض الشخصيات لغرض المتعة والترفيه ، ولكنهم تركوا شيئا من آثار رحلاتهم هذه ، وذلك مثل الأمير محمد على ولى عهد المملكة المصرية ، وقد زار إندونيسيا وتحدث عنها ، ومما قاله : « عند نزول الإنسان فى أى فندق من الفنادق فإنه يجد على سريريه مخدة محشوة طويلة مدورة يحتضنها النائم كمرافقة له تعرف باسم الفتاة الهولندية «Dutch fady» وكأن الهولنديين يرفهون عن الزوار بإعطائهم فرصة التمتع بفتاة هولندية افتخارا بكرمهم وحسن ضيافتهم كما يسمى الغربيون «البامية» للذتها بأصابع المرأة «Lady's fingers» ما أحلاها من اسم ، وفى الواقع البامية لذيدة وأنا من محبيها - خلاصة القول ، أنى أرى أن موضوع بحثنا أعلام الجغرافيين العرب لا يصلح لأن يكون موضوع الحديث بعد أن عرفنا أن الإسلام رفع العرب شأننا وجعلهم فى مقدمة الصفوف الدينية والعلمية والثقافية بل هم أصحاب الفضل فى فتح أبواب العلوم ؛ فلهذا أرى أن الأولى بنا أن ندرس أعلام الجغرافيين الإسلاميين الذين عاشوا فى التاريخ وأغلبهم

من العنصر العربى ومن فطاحل هذا الجنس
البشرى الذى اختار الله رسوله من بين
صفوفه .

واختصاراً للبحث عن هذا الموضوع فأمانا
دراسة مستفيضة عن الجغرافيين الإسلاميين إذ
عقدت جامعة الإمام محمد بن مسعود
الإسلامية بالرياض مؤتمراً خاصاً لدراسة هذا
الموضوع تحت عنوان « المؤتمر الجغرافى
الإسلامى الأول » فى الفترة من (٢٢ إلى
٢٨ / ٢ / ١٣٩٩ هـ الموافق من ٢٠ إلى
٢٦ / ١ / ١٩٧٩ م) .

وقد استضافت الجامعة نحو مئة وخمسين
عالمًا من علماء الجغرافيا المسلمين ، وفدوا على
الرياض من أرجاء العالم ، وألقيت بحوثهم
القيمة التى جُمِعت فى ثمانية عشر مجلداً .
فالأحرى بنا مراجعة ذلك المحصول العلمى ،
والمجهود الفكرى ، والإنتاج الجماعى عن
التاريخ الإسلامى فى الموضوع الجغرافى ، حتى
نختصر الطريق فى الوصول إلى الهدف المنشود
الذى نبتغيه ، ويمكن لاختصار الوقت أيضاً أن
نكون لجنة من شخصيات أعضائنا أو الأعلام
الجغرافيين خارج مجمعنا لبحث هذا الموضوع
والخروج منه بنتيجة مرجوة ، ولأبأس أن نطلب
من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

إتحافنا بتلك الكتب التى تبلغ ثمانية عشر
مجلداً ..

الفرنسيون يؤنثون لفظ « القمر »
« La Lune » ويذكرون كلمة « الشمس »
« Le Soleil » ، ولهم فى ذلك فلسفة خاصة
لهدوء القمر وثورة الشمس ، ولكن العرب
اعتبروا أن القمر يحرس السارى ليلاً فى البقاء
الموحشة بينما الشمس تحدث تلك الحرارة التى تثير
وتدفئ الجسم الهادئ الساكن .

ولكن العرب كالفرنسيين استعملوا هذه
الكلمة بحسب معناها المراد ، فيتغزلون
بالقمر ، فيقولون « يا قمر ، يا قمر »
عند مغازلة المرأة والإعجاب بها .

غير أن هناك مغنية فريدة هى التى
استعملت لفظ القمر فى معناه الحقيقى فتقول
« ياماً ، القمر على الباب » .

بعض اقتراحات لغوية

بمراجعة الاستعمالات اللغوية بل بالتأمل
فى الناحية الخاصة ببناء الكلمات العربية
ولاسيما الوضع الحركى فى النحو وقواعد

الإعراب ، فإننى أرى أن هناك أمورا يجب أن نستفيد منها فى إظهار فلسفة لغوية ولاسيما فيما يتصل بالشرعة الإسلامية فى استعماله للألفاظ ومعانيها فى إظهار الأحكام الفقهية ، بل هناك اصطلاحات لا يصلح استعمالها لتعارضها مع حقيقة المعانى التى تحملها وقد تودى إلى سوء الأدب بالنظر إلى ارتباطها بالمعانى الحقيقية لها ، وذلك :

١ - الفلسفة اللغوية :

لا يمكن أن نترك اللغة العربية بدون أن ننظر إلى فلسفة تركيب كلماتها وما الذى دفع واضعى قواعد النحو إلى تحريك الكلمات حسب وضعها الإعرابى مصورة تحقيق الغرض الحقيقى الذى تؤديه تلك الكلمات فى تركيب الجمل . مثلاً يقول النحويون الفاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة وما إلى ذلك .

فبالتأمل نجد فلسفة هذه التسمية ملاحظة الاعتبار الطبيعة فى المجتمع الإنسانى ، فالفاعل عمدة كما يقولون، وصاحب الشأن فى تركيب الجملة فلمركزه هذا فهو مرفوع، وإذا رآه الناس ضموا احتراماً وتبجيلاً تقديرًا لوضعه الاجتماعى ، والمفعول

به عبارة عن شىء واقع عليه الأذى كأنه مضروب ، فإذا هو مضرب مطروح أرضاً ، وعلامة هذه الحادثة أثر فى جسمه وهى الفتحة أو الجرح ، وأما المجرور فإنه انجر فانكسر .

والاسم لا يكون مجزوماً أو ميتاً ، بمعنى ليست له مهمة فى الجملة ، فهو متحرك أى له فعل ظاهر فى أداء مهمة ما فى الجملة ، والفعل قد يكون مجزوماً لعله سبب ذلك مثل حروف الجزم التى دخلت عليه فمنعته من الحركة أى منعه من أداء مهمته فمثلاً لا تفعل هذا ، ومعناه لا تودى هذا الفعل أى منعه من الحركة، وكذلك الأمر .

وإذا استطرنا البحث فوجدنا مثلاً علامة التأنيث ، فللمفرد تاء التأنيث المربوطة وفوقها نقطتان بمعنى أن الأنثى إذا كانت منفردة وحيدة فلا يسمح لها الاختلاء بمفردها أو الخروج وحيدة، فهى مربوطة وهناك نقطتان تلاحظان تحركاتها ، أما إذا كانت أكثر فعلاقتها تاء مفتوحة ولكن هناك النقطتان أى العينان اللتان تلاحظان تحركاتهن ، وعدد من النساء إذا خرجن معاً لا مانع فى ذلك غير أنهن تحت رقابة دائمة للأئمة الفاتنة .

فهناك نوع آخر من مميزات هذه اللغة من حيث اشتراك كلمات فى مصدر أصلى واحد مثل فرج بسكون الراء والفرج بفتح الراء ، إذ بينهما ترابط روحى فى المعنى ، إذ الفرّج بسكون الراء يفرّج عن الإنسان همومة وضيقه فى حالات هو فيها مضطر للبحث عن الفرّج ، ولهذا قال (رسول الله صلى الله عليه وسلم) « إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقصت فى نفسه فليعد إلى امرأته فليواقعها ، فإن ذلك يردن نفسه » هذه أمثلة فحسب ، وهناك الكثير من أمور تستحق الملاحظة وآخذ الاعتبار منها ، فأرى لا بد من إبراز هذه الفلسفة اللغوية لإعطاء العربية مميزات الخاصة ، ولا سيما الفقهاء قد لاحظوا هذه الأمور فى وضع الأحكام الشرعية فمثلا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » فهناك ظهرت فلسفة الإعراب من فاعل ومفعول به والمجرور ، فالفاعل القوى وضعاً هو الذى يغير المنكر بيده ، والمفعول به فهو الذى يغيره بلسانه أما المجرور المكسور فلم يستطع تغييره إلا بقلبه ، وقال بعض العلماء : إن الأول هو الحكومة صاحبة السلطة والقوة ، والثانى هم الدعاة

الذين لهم الألسن والدعوة والنداء ، وأما الثالث فعامة الشعب الذى لا قوة له ولا حيلة .

٢ - الألقاب :

هناك ألقاب سائدة فى المجتمع تضع أناسا فى مقامات مختلفة وتناديهم بصفات ذات صبغة خاصة مميزة كل منهم عن غيرهم ، وهذه الألقاب أصبحت لاصقة لكل صاحب منصب ومكانة فى الدولة ، اصطلاح عليها المجتمع العالمى فى التطور السياسى والدبلوماسى والاجتماعى حتى أصبح لكل منصب لقب خاص له ينادى به ولا يتنازل بل يعاقب من تساهل فيه أو أهمله ، ومن تلك الألقاب : صاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة ، صاحب الفخامة ، وصاحب السمو الملكى ، صاحب المعالى ، صاحب السيادة ، صاحب العزة ، وصاحب السماحة ، وصاحب الفضيلة وغير ذلك ، ولم تنفض هذه الألقاب بل تزيد مع مرور الزمن ووجود مناصب جديدة ، ففى الأيام الأخيرة فى مصر مثلاً زاد لقبان جديداً هما صاحب المقام الرفيع للنحاس باشا كرئيس الوزراء ورئيس الوفد والأمة معا ، وصاحبة العصمة لزوج السيدة زينب الوكيل .

هذه الألقاب أصبحت لها مميزات خاصة فى المجتمع ، وهى فى الغالب مأخوذة من الدول الأجنبية ، وبالأخص من الدول الغربية كفرنسا مثلا صاحبة السيادة فى الدبلوماسية ، فمثلا منها فى اللغات الأجنبية وفيرة ، وتستعمل فى المكاتبات والنداءات مثل : (His Majesty. His Royal Highness. His Eminence etc) وغير ذلك من الألقاب المشيرة إلى عدم المساواة وتفرقة عنصرية أخرى للعلماء أو تفرقة طبقية تتنافى مع الإسلام ومع الديمقراطية فى مساواة الجنس البشرى فى حقوقه الإنسانية ومنزلته البشرية .

وهذه الصفات مأخوذة من صفات الله سبحانه وتعالى صاحب الجلالة والإكرام والعزة والعصمة والفخامة والسمو ويجب على المجتمع حامل الرسالة الإسلامية واللغة العربية تحديد موقفه وإظهار رأيه إذ هذه الألقاب لم توجد فى اللغة العربية سواء فى العصر الجاهلى أو فى العصر الإسلامى .

وقد شعرت بعض الدول الإسلامية هذه الأعراض الاجتماعية الاستقرائية فاندونيسيا مثلا عقب الاستقلال ألغت كل هذه الألقاب ، واستعملت كلمة « بونج » (BUNG) بمعنى الأخ لكل أبناء البلاد على حد سواء فيقولون

بونج كارنو للرئيس سوكارنو ، وبونج حنا للدكتور حنا وغير ذلك ، وفى مصر كذلك عقب الثورة إذ تقرر استعمال لفظ « السيد » لكل أبناء البلاد دون استثناء وفى الواقع هذا هو الأمر الذى نواجهه فى مخاطبة الدول الأجنبية ، ولكن إذا اتخذنا قرارا فلا أحد يستطيع أن يغير نظامنا السياسى أو الاجتماعى ولا عيب فى ذلك بل فى ذلك حفظا لكياننا وشخصيتنا بل ولغتنا وديننا .

٣ - الكلمات المشتركة :

نجد فى اللغة العربية كلمات مشتركة تعطى معنيين أو ثلاثة ، وقد تؤدي إلى اختلاف فى إعطاء المعنى الحقيقى المراد ، ولا سيما فى الأحكام الشرعية كما نجد فى الفقه الإسلامى مما أدى إلى وجود مذاهب أهمها أربعة مثلا فكلمة « لامس » فى قوله تعالى « إذا لامستم النساء » فهذه الكلمة لها معنيان أى اللمس والجماع وقد اختلف العلماء فى إعطاء المراد من معناها فى الحكم الشرعى ، أى هل اللمس فحسب أو الجماع هو الذى ينقض الوضوء .

هذا الاختلاف أدى إلى وجود أربع جماعات فى مواقيت الصلاة فى الجامع الأزهر ، والسبب

فى ذلك فى اختلاف إعطاء المعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فالحنفى مثلاً يقول بعدم بطلان الوضوء عند مس / لمس المرأة ، والشافعى خلاف ذلك . فالشافعى لا يصلى وراء الحنفى اعتقاداً بأنه غير متوضئ إذا مس امرأة ما .

وقد توغل المذهب الشافعى فى هذا المعنى حتى قال إذا مس المرأة عموداً أملس أثار شهوته بطل وضوؤه ومس المرأة المسنة إن لم يثر الشهوة لا يبطل الوضوء . وفى الواقع لا بد من إزالة هذين المعنيين غير المقيدتين فنعطى معنى جامعاً ومانعاً ولا يخرج عن حقيقة المعنى الأصلى الحقيقى المراد .

فالمعنى هو المس بشهوة ، والجماع مجمع الشهوات أما المس واللمس العادى ففيه نظر ، فطالما لا يثير الشهوة فغير مبطل للوضوء كالتاجر فى السوق أو المار فى الطريق أو غير ذلك . هذا لا سيما فى العصر الحاضر عصر الازدحام والاقتحام والانسجام .

ومثل ذلك كلمة قرء فى قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثه قروء ﴾ (البقرة ٢٢٨) والقرء تأتى بمعنى الحيض والطهارة معاً ، فللمطلقة أو التى توفى زوجها فعليها أن تتربص « أى المدتين » أوفق لها

الطهارة أو الحيض وفى الواقع أن لفظ « قرء » يأتى بمعنى « منجماً » ولهذا قال بعض اللغويين القرآن مأخوذ من هذا المعنى لأن القرآن نزل منجماً . وإذا قمينا مع هذا المعنى فالقرء يأتى بمعنى الوقت المنجم الذى لصالح المرأة سواء الطهر أو الحيض فلها حق الاختيار للشيء الذى ينفعها أى الانتهاء من العدة لتتزوج من رجل آخر أو البقاء فى العدة لتستمر النفقة عليها .

هذه الأمور وأمثالها تحتاج إلى تحديد موقفنا لتوحيد الصف الإسلامى الذى فرقت المذاهب وحدته ، ولو أن فى الاختلاف رحمة ، ولكن فى الاتحاد قوة .

٤ - الاختلاف فى إبداء الرأى :

أرى بعض العلماء خرجوا عن حدود المنطق فى إعطاء معانى للكلمات الشرعية ، فمثلاً كلمة « المطهرون » فى قوله تعالى :

﴿ فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون ﴾ وقد قال العلماء المقصود من هذه الكلمة إما الملائكة أو الإنسان المطهر .

أما إعطاء معنى الملائكة لهذه الكلمة فبعيد عن التصور العقلى ، إذ الملائكة مخلوق طاهر من شأنه والقرآن للجن والأنس :

﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾
فالمقصود بهذه الكلمة هم المكلفون بالمأمورين
بتلاوة هذا الكتاب الكريم ، ولهذا قال تعالى :
﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾
(البقرة ٢٢٢) وقوله سبحانه :

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب
المتطهرين ﴾ (التوبة ١٠٨) .

فإعطاء معنى « المطهرون » للملائكة
فيه نوع من التكلف ، لأن القرآن خاص
بمخلوق الأرض ، وقد نزل من السماء لأمر
تكليف بشرى .

فؤاد محمد فخر الدين

عضو المجمع المراسل

من إندونيسيا

